مع العربية ومجمع اللغة في القاهرة (*)

قصيدة للدكتور إبراهيم السامرائي

رِيعَتْ فَضِيمَ بُرُوْدُهـا وَرِقُ   ومَضَتْ بما تَتْقَى وتَأْتَلِقُ
ببقيَّـةٍ مِن سِحْرٍ يانعـةٍ   فَمَنْ يَتِي بنُضارِهِ أَلَقُ
تَرَكَتْ عريضَ الرَّوْضِ ظامئةً   رَوْحاتُه ، واسْتَصْرَخَ الوَرَقُ
وذَوَى على أَعلاقِها عَبِقُ   لم يَخْلُ عنه وارفٌ أَنِقُ
لغـةٌ سَعَيْتُ لِمَا شَقِيتُ لَهُ   منها ، كأنِّي رُحْتُ أَسْتَبِقُ
وشُغِلْتُ منها شُغْلَ ذي أَرَبٍ   أَضْناهُ في عَمَراتِهِ عَلَقُ
أَنا بعضُ قَوْمٍ نالَهُمْ نَصَبٌ   فيما سَعَوا لِعَلائِها وشَقُوا
أَضْناهُمُ الدَّرْبُ الذي طَرَقُوا   وهَدَاهُمُ الهَدْيُ الذي صَدَقُوا

* * *

يا خالدين ! وقد سَعَيْتُ لكُمْ   بأَثارةٍ في طَيِّها عَبَقُ
أَكْبَرْتُ فيكُمْ كلَّ مُحْتَرِبٍ   طَالَعْتُهُ كالسَّيْلِ يَدَّفِقُ
ووَجَدْتُ فيكم كلَّ مُدَّرِعٍ   بالعِلمِ ، وَهْوَ بِسِرِّهِ حَذِقُ
وقَبَسْتُ من « شَيْخٍ » سَماحةَ مَنْ   يَغْنَى بأَيِّ هُدًى ويَعْتَنِقُ
ولأَنْتُمُ قَدَرٌ لبارِعةٍ   غَنِيَتْ ، فلا خَوْفٌ ولا فَرَقُ
أَسْرَى بكمْ في كلِّ مُظلمةٍ   فُلْكٌ ، فلا عَطَبٌ ولا غَرَقُ

* * *

(*) أُلقيت هذه القصيدة في الجلسة الثالثة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الأربعاء ٣ من شعبان سنة ١٤١٠ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٠ م

أنَا بعضُ جَمْعٍ ليسَ يَجْمَعُهُمْ ... إلّا التى بِبَيَانِهَا نَطَقُوا

وأَمَضُّهمْ هَمٌّ لِمَا بغَدٍ ... تَلْقَى، فَلا تَشْقَى وتَخْتَنِقُ

مِمَّا حَوَتْ من فَيْضِها مَدَدًا ... تَقْوَى بهِ، وتَروحُ تَرْتَفِقُ

وضِمَادَةُ الضَّادِ المُنِير ومَا ... «للذِّكْر» من نَفَحاتِهِ نَسَقُ

وذَخِيرةٌ كُنَّا بحُرْمَتِها ... بأَجَلٍ ما نُمْنَى ونَفْتَرِقُ

وبِمَا تَحَدَّرَ مِن سَمَاحَتِها ... حِكَمٌ تُضِىءُ لَنَا وتَتَّسِقُ

وبِمَا هُدِينا من رَحَابَتِها ... طَبْعٌ مَشَى فى سَمْحِهِ خُلُقُ

وَسَعَتْ إلى أُمَمٍ أَضَرَّ بها ... خُلْفٌ، وعَمَّ سَبِيلَها غَسَقُ

ودَنَتْ إلى رَشَدٍ تَلُوحُ بهِ ... فيما تَلِى من خَطْبِهَا طُرُقُ

أَلْوَتْ بِنَا غَيًّا ونَفْتَرِقُ ... ومَشَتْ بِنَا هَدْيًا ونَتَّفِقُ

أَفَبَعْدَ ما ضَاقَتْ بِنَا حِلَلٌ ... وتَوَزَّعَتْ بشَتَاتِنَا فِرَقُ

شِمْنَا الرَّجَاءَ المُسْتَنِيرَ إلى ... فَجْرٍ أَضَاءَ بنُورِهِ أُفُقُ

* * *

إنِّى، وقد أَدْرَكْتُ من رَشَدِى ... وأَرِقْتُ فيه ونابَنِى أَرَقُ

لأُطِيلُ مِن نَفَسٍ لِعَافيةٍ ... وأَصُدُّ ما يُودِى بهِ رَمَقُ

وأُزِيحُ عَنِّى كلَّ غَاشِيةٍ ... لولا الهُدَى، قد كِدْتُ أَحْتَرِقُ

عَوْدًا إلى دَرْبٍ تَهَيَّبَنِى ... مِمَّا دَجَا فى وَعْثِهِ لَثَقُ

ومَعَ الَّذِينَ بِبَأْسِهِمْ وَصَلُوا ... بِمَسِيرةٍ قد رُحْتُ أَلْتَحِقُ

أُولاءِ مَنْ شَرُفُوا بِمَا صَدَقُوا ... ولأَنْتَ فى هَدْىٍ بِمَا نَطَقُوا

بلِسَانِ صِدْقٍ غَيْرِ ذى عِوَجٍ ... ولِذَاك أَوْفَرُ مِنَّةٍ رُزِقُوا

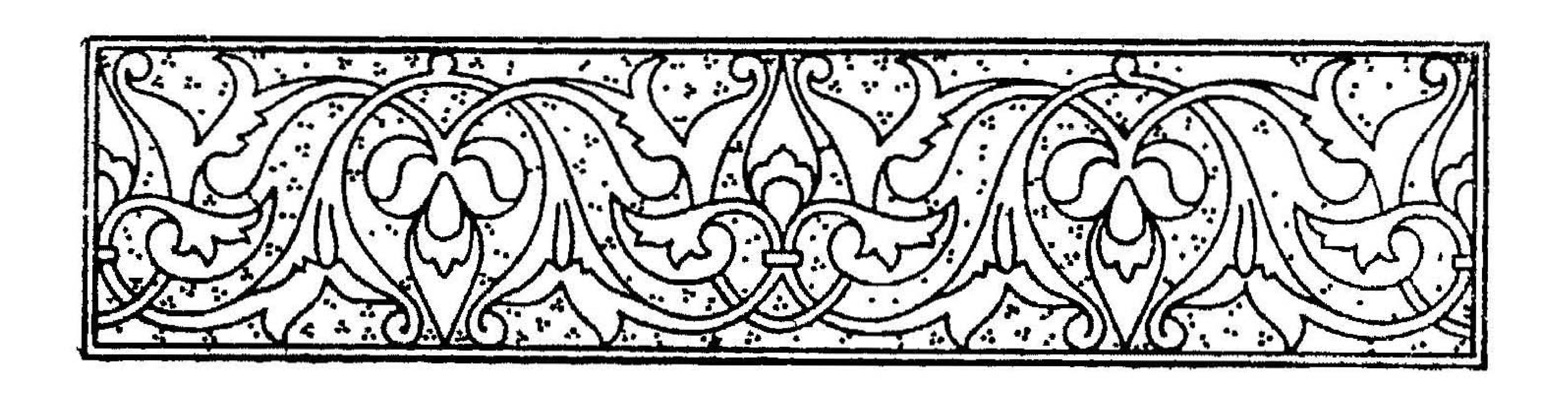
تَلْقَاهُمُ السَّاعِين فى حَرَدٍ ... لِلْمَجدِ، كُلٌّ مُفْصِحٌ لَبِقُ

بحماسةٍ ذَهَبَتْ بِهِمْ رَشَدًا ولَهُمْ بِذَلِكَ مِقْوَلٌ ذَلِقُ
إِنْ كانَ ذَاكَ فأَنْتَ بَعْضُهُمُ ولأَنْتَ فِيهِمْ مُعْجَلٌ تَئِقُ

* * *

قَسَمًا بِمَا ثَمَّرْتُ مِن قِيَمٍ وبِمَا انْجَلَى من هَدْيِهَا فَلَقُ
ما كُنْتُ أَعْدِلُ عن هَوًى أَبَدًا للحَزْمِ ، لا دَعْوَى ولا مَلَقُ
هَمٌّ شَقِيتُ بِهِ وأَحْسَبُنِى أَنْ لَوْ صَبَرْتُ لَزُحْزِحَ القَلَقُ
ولَنِعْمَ ما يَلْقَاهُ ذُو مِقَةٍ فى سَعْيِهِ مِمَّا بِهِ يَثِقُ

ابراهيم السامرائى
عضو المجمع (من العراق)



حديث عن الإنسان
فى القرآن الكريم

للدكتور محمد رشاد الطوبى
عضو المجمع

سبق لى أن تحدثت فى العام الماضى أمام هذا المجلس الموقر عن « دواب الأرض فى القرآن الكريم » ، وأوضحت فى ذلك لحديث أن تلك الدواب تبدأ من النملة الصغيرة حتى الإنسان العاقل ، فكلها من المخلوقات التى تدب على سطح الأرض ، تأكل من رزق الله وتُسَبِّح بحمده ، وقد ورد فى القرآن الكريم ما يستدل منه على أن هذا الإنسان العاقل إن هو إلا أحد تلك الدواب كما فى الآية الكريمة التالية :

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » . (٦١ / النحل)

ولكن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان العاقل بالفطنة والذكاء ، وجعل له من قدراته العقلية والجسدية ما يتفوق به على سائر المخلوقات ، حتى أصبح بفضل من الله وحكمة ، سيد المخلوقات جميعًا دون منازع ، وأصبحت له السيطرة الكاملة على مجريات الأمور فى هذا العالم المتسع الأرجاء.

ولذلك فقد تراءى لى أن أخص هـذا الإنسان العاقل بحديث مستقل أستمدُّ عناصره وأساسياته من القرآن الكريم ، فكان حديث اليوم .

الإنسان ، الناس ، البشر :

إن لفظ « الإنسان » يطلق على كل من الذكر والأنثى من بنى آدم كما ورد فى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » الذى أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ،

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر المعقدة يوم الثلاثاء ٢ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٢٧ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٠ م.

وصدرت طبعته الأُولى سنة ١٩٥٣ (ألف وتسعمائة وثلاث وخمسين) وقد ورد هذا اللفظ بدون أداة التعريف مرة واحدة فى القرآن الكريم ، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى :

« وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ »

(صدق الله العظيم)

(١٣ / الإسراء)

أما مع أداة التعريف فقد ورد ذكره فى كثير من الآيات البينات نذكر منها على سبيل المثال :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا »

(٨ / العنكبوت)

« أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ »

(٣ / القيامة)

« يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » .

(١٠ / القيامة)

« يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى » .

(٣٥ / النازعات)

« خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »

(٣ ، ٤ / الرحمن)

« إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا » .

(صدق الله العظيم)

(١٩ / المعارج)

وعدد هذه الآيات البينات إحدى وستون آية (٦١) ، كما ورد فى معجم ألفاظ — القرآن الكريم . تضاف إليها ثلاثُ آيات أُخرى (٣) المقصود فيها بلفظ الإنسان هو آدم عليه السلام ، وتلك الآيات — الثلاث هى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » . (٢٦ / الحجر)

« وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ »

(٧ — السجدة)

« خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »

(صدق الله العظيم)

(١٤ / الرحمن)

ومعنى ذلك أن هناك أربعًا وستين (٦٤) آية ورد فيها لفظ « الإنسان » معرفًا ، كما ورد فى معجم ألفاظ القرآن الكريم .

عند قراءة هذه الآيات البينات استعدادًا لكتابة هذا البحث عثرت على خطإ يسير غير مقصود فى سرد الآيات السابق ذكرها ويكون لى اليوم شرفُ تصحيح هذا الخطأ . ففى قائمة الآيات الخاصة بالإنسان عامةً وجدت الآية رقم « ١٢ / المؤمنون » ضمن

هذه القائمة . وتلك الآية هى كما يلى

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ » . (صدق الله العظيم)
(١٢ / المؤمنون)

ولمَّا كانت هذه الآية الكريمة المقصود فيها أيضًا بلفظ « الإنسان » هو آدم عليه السلام ، فيجب ضمها إلى الآيات الثلاث الأخرى المتعلقة بآدم ، وبذلك يكون العدد الحقيقى للآيات الخاصة بالإنسان عمومًا هى ستون آية (٦٠) ، وتلك التى تشير إلى آدم عليه السلام هى أربع آيات (٤) بدلًا من ثلاث .

يضاف إلى تلك الايات السابقة ست آيات أخرى (٦) ورد فيها لفظ « الإنسان » مجرورًا باللام ، كما فى قوله تعالى :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » .
(صدق الله العظيم)
(٥ / يوسف)

ولمَّا كانت كلمة « الناس » تطلق كما هو معروف على « الجماعة من الإنسان » فلابد لنا من التعرف على ورود هذا اللفظ فى القرآن الكريم ، وخصوصًا أنه أكثر الألفاظ دلالة على بنى البشر ، إذ أنه ورد فى مختلف الآيات القرآنية مائتين وأربعين مرة (٢٤٠) ، نذكر منها على سبيل المثال الآيات التالية :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ » . (٤٤ – البقرة)

« فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » . (٢٤ / البقرة)

« فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » . (٨٥ / الأعراف)

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ » . (٩ – آل عمران)

« وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » . (صدق الله العظيم)
(٥٨ / النساء)

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى لفظ آخر يدل على الإنسان وهو « البشر » لوجدنا أنه ورد كثيرًا فى القرآن الكريم ، ومن أمثلة الآيات التى ورد فيها هذا اللفظ – الآيات التالية

« قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » . (٤٧ / آل عمران)

« قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » .

(٣٣ / الحجر)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ »

(صدق الله العظيم)

(١١٠ / الكهف)

الذكر والأنثى :

لست فى حاجة إلى القول إن الإنسان أو الناس أو البشر منهم الذكر ومنهم الأنثى ولولا وجودهما معًا لما استمرت الحياة على ظهر هذه الأرض من عهد آدم إلى يومنا هذا ، وكانت الأقوام فى العهود الغابرة وخصوصًا أيام الجاهلية الأولى يفضلون الذكر على الأنثى ، وربما كان هذا الشعور العدائى نحو ولادة الأنثى من رواسب المعتقدات القديمة التى توارثها الإنسان جيلًا بعد جيل . فقد عُرف مثلاً أن العرب فى الجاهلية ، أى قبل ظهور الإسلام كانوا يعتبرون ولادة الأنثى كارثة تنخلع لها قلوبهم ، وليس أدل على ذلك من الوصف الذى أورده القرآن الكريم بهذا الخصوص ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُون أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرابِ » .

(صدق الله العظيم)

(٥٨ ، ٥٩ / النحل)

وكان العرف السائد حينئذ هو التخلص من المولودة الأنثى ، وكأنهم يتخلصون من داءٍ وبيل ، وكان مبعث هذا الشعور هو الخوف مما قد ترتكبه تلك الأنثى من الفساد عندما تشب وتنضج ، أو من وقوعها فى الأسر فى أيدى أعدائهم ، حيث كانت القبائل البدوية فى حروب شبه مستمرة .

وكانت القبيلة المنتصرة تأخذ الأسلاب من ممتلكات القبيلة المهزومة ، كما كانت تأخذ نساءها أسرى حرب أو سبايا ، ولذلك كانوا يتخلصون من الأنثى بعد ولادتها مباشرة بدفنها حية فى التراب ، مما كان سببًا فى نزول الآية الكريمة التالية :

« وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » (صدق الله العظيم)

(٨ ، ٩ / التكوير)

ولم يكن الانزعاج من ولادة البنت ، مقصورًا على الرجال وحدهم ، بل يتعداهم

إلى النساء أيضًا ، وقد نتلمس شيئًا من هذا القبيل فيما ورد ذكره فى القرآن – الكريم عن « امرأة عمران » فى الآية الكريمة التالية :

« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى » (صدق الله العظيم)

(٣٦ – آل عمران)

ثم تستمر بعد ذلك فى مخاطبة المولى عز وجل قائلة :

« وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى »

(صدق الله العظيم)

(٣٦ / آل عمران)

وقد نستشف من ذلك أنها غيرُ قانعة تمامًا بتلك المولودة ، أو أنها غير راضية عنها وإن لم يرد ذلك صراحة فى تلك الكلمات ، بل إنها كانت تفضل المولود الذكر ، لأنه فى عرفها أفضل من الأنثى

وقد تلاشت تمامًا تلك الأفكار القديمة فى عصرنا الحاضر ، أو كادت ، ولم يعد هناك أىُّ تمييز أو تفضيل بين الذكر والأنثى فى مضمار الحياة ، مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى :

« يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ » (صدق الله العظيم)

(٤٩ – الشورى)

الأساس العلمى للذكورة والأنوثة :

إن ولادة الذكور أو الإناث تسير فى نظام محدد ثابت منذ بدء الخليقة إلى الآن ، فقد وضع الله سبحانه وتعالى فى حساباته الدقيقة أن تكون ولادة الذكور مساوية تمامًا لولادة الإناث . فلا يطغى أحدهما على الآخر عدديًا ، مما قد يؤدى إلى اختلال فى موازين الوجود والبقاء على سطح الأرض .

وتدل جميع الإحصائيات فى مختلف بلاد العالم أن عدد الذكور مساو تقريبًا لعدد الإناث . ومع ذلك فقد وجد مثلًا أنَّ هناك بعض العائلات التى تلد نساؤها ذكورًا أكثر من الإناث ، وهناك عائلات أخرى تلد نساؤها إناثًا أكثر من الذكور . ولكن المجموع الكلى للذكور يكون مساويًا لمجموع الإناث فى نفس هذا المجتمع .

وعلى أية حال فقد ثبت علميًا فى الوقت الحاضر أن المرأة غيرُ مسئولة إطلاقًا عن ولادة الذكور أو الإناث . وذلك ، لأن

جميع البويضات (ova) التى تخرج من المبيض - والتى يتكون منها الجنين بعد إخصابها - من نوع واحد فقط ، وهذا النوع الوحيد من البيض قادر على إنتاج الذكور أو الإناث ، فهو يحتوى بداخله على نوع واحد فقط من الصبغيات الجنسية أو الكروموسومات (Chromosomes) يطلق عليه اسم الكروموسوم السينى (س) ، ويرمز له باللغات الأجنبية بالحرف (X)

أما الماء الدافق الذى « يخرج من بين الصلب والترائب » فهو يحتوى على خلايا جنسية من نوعين مختلفين ، يحمل أحدهما بداخله الكروموسوم السينى (س) ، بينما يحمل النوع الثانى كروموسوماً جنسياً آخر هو الكروموسوم الصادى (ص) ويرمز له باللغات الأجنبية بالحرف (Y)

إن هذه الخلايا الجنسية دقيقة الحجم تماماً إذا قورنت بحجم البويضة . ويوجد منها ما يقرب من الثلاثمائة مليون فى الدفقة الواحدة ، وعند وصولها إلى داخل الرحم فإنها تتسابق جميعاً نحو البويضة - إن وجدت - لإخصابها ، تدفعها فى ذلك قوة غامضة يطلق عليه العلماء اسم « التوجه الكيميائى » (Chemotaxis) ، ويكون الفوز للمتسابق الأول الذى يصل إلى البويضة قبل غيره ، إذ أنه يندمج معها تماماً ، ويقال للبويضة عندئذ : إنها قد أخصبت . ولما كانت تلك الخلايا الجنسية توجد بأعداد متساوية تماماً ، تكون الفرصة سانحة لأى من النوعين : (س) أو (ص) لكى يؤدى إلى إخصاب البويضة .

وبذلك يكون هناك احتمالان فقط ، لا ثالث لهما :

الاحتمال الأول :

بويضة + حيوان منوى ←(عملية الاخصاب) بويضة مخصبة
س س س س

ويكون المولود أنثى

الاحتمال الثانى :

بويضة + حيوان منوى ←(عملية الاخصاب) بويضة مخصبة
س ص س ص

ويكون المولود ذكراً

وتبعاً لقانون الاحتمالات يكون نصف

المواليد (٥٠ ٪) من الأولاد ، والنصف الآخر من البنات . وهو ما يشاهد فى مختلف بلاد العالم بصفة عامة

وأحب أن أنوه هنا أن بعض علماء الوراثة قد قاموا بعدة محاولات للتحكم فى جنس الجنين فى الإنسان . وكانت آخر هذه المحاولات تعتمد على فصل الحيوانات المنوية المنتجة للذكور (وهى الحاملة للكروموسوم ص) عن تلك المنتجة للإناث (وهى الحاملة للكروموسوم س) بعد تكوينها داخل الخصية . ثم إتاحة الفرصة للنوع الأول منها لإخصاب البويضة دون النوع الثانى وذلك فى حيوانات التجارب تمهيداً لاستخدامها بعد نجاحها فى حالة الإنسان . ولكن لم يكتب لمثل تلك المحاولات أى نجاح على الإطلاق ، ويظل الأمر كله فى يد الخالق العلى القدير ، كما تحدثنا الآية الكريمة

« يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ » . (صدق الله العظيم)

(٤٩ / الشورى)

مراحل العمر

الطفل ، الصبى ، الغلام .

إن كل هؤلاء المواليد سواء كانوا من الذكور أو الإناث يمرون خلال حياتهم بمراحل متعددة لكل منها فى القرآن ذكر ، وأول هذه المراحل هى مرحلة الطفولة ، ولم يرد لفظ « الطفل » فى القرآن الكريم إلا بمعنى الوليد (كما هو واضح من معجم ألفاظ القرآن الكريم) . ومن ذلك على سبيل المثال الآية الكريمة التالية .

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » .

(صدق الله العظيم)

(٦٧ / غافر)

وآية أخرى مماثلة .

« وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » .

(صدق الله العظيم)

(٥ / الحج)

ثم يأتى بعد ذلك الصبى ، وقد عُرِّفَ فى « المعجم الوسيط » بأنه الصغير دون الغلام ، أو من لم يفطم بعد ، وعرف فى معجم ألفاظ القرآن الكريم بأنه « من لم يبلغ الحُلُمَ » ، وقد وردت عنه فى القرآن الكريم آيتان فقط ، إحداهما

هى الآية الكريمة التالية :

« يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . (صدق الله العظيم)

(١٢ / مريم)

هناك بعد ذلك الغلام ، وقد عرف فى معجم القرآن الكريم والمعجم الوسيط بأنه « الصبى من حين يولد إلى أن يشب » ، ووردت عنه فى القرآن الكريم عدة آيات نذكر منها على سبيل المثال :

« قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ »

(١٩ / يوسف)

« فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » .

(١٠١ / الصافات)

« فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ »

(٧٤ / الكهف)

النضوج الجنسى :

أما بعد بلوغ الحُلُم أو بعد مرحلة البلوغ فيكون هناك تمييز واضح بين الذكر والأنثى ، أو بين الرجل والمرأة نتيجة لظهور مايعرف « بالصفات الجنسية الثانوية » ، وتنتج هذه الصفات بتأثير هرمونات معينة تفرزها الخصية عند الرجال أو المبيض عند النساء .

فالمعروف أن الصبى أو الغلام عندما يقترب من سن البلوغ أو عند اجتيازها تظهر عليه عدة تغييرات جسدية منها على سبيل المثال عمق الصوت وخشونته نتيجة لنمو الحنجرة والأحبال الصوتية ، وخشونة الجلد بعد أن كان ناعم الملمس كجلد الفتيات ، ثم البدء فى نمو الشعر على الوجه لتكوين الشارب واللحية . ونمو عضلات الجسم وتضخمها وخصوصًا عضلات الأذرع والسيقان ، ولا يكون هناك تركيز لتوزيع المواد الدهنية تحت الجلد فى الصدر وعند الأرداف كما هى الحال عند الإناث .

أما الفتاة الصغيرة فمن أظهر صفاتها الجنسية الثانوية نمو الأثداء بطريقة تؤهلها للقيام بوظيفتها المستقبلية ، وهى إدرار اللبن لإرضاع المولود وكذلك توزيع المواد الدهنية تحت الجلد بصورة تؤكد أنوثة الأنثى . وخصوصًا عند الأرداف . وهو مايعنيه الشاعر بقوله :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة

لا يشتكى قصر منها ولا طول

أى أنها نحيفة البطن ممتلئة العجز ، مما يجعلها فى صورة تختلف تماماً عن صورة الرجل .

هذا بالإضافة إلى نعومة فى الصوت ، فلا يختلف كثيراً عن صوت الطفل ، ونعومة فى الجلد فيظل ناعم الملمس ، ولا تدركه الخشونة الموجودة فى جلد الرجال.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة ذكر فيها كل من الرجل أو المرأة على حدة ، نذكر منها على سبيل المثال :

« أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ » .

(٧٨ / هود)

« وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى »

(٢٠ / القصص)

« وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ » .

(٢٨ / غافر)

« إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ » . (صدق الله العظيم)

(٢٥ / المؤمنون)

أما المرأة فقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم للدلالة على الأنثى من بنات آدم ، كما فى قوله تعالى :

« إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » .

(صدق الله العظيم)

(٢٣ / النمل)

ولكن الأغلب والأعم هو ورودها بمعنى الزوجة ، وتكون مقرونة باسم زوجها ، كما فى الآيات التالية :

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا » .

(٣٥ / آل عمران)

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ » .

(٣٠ / يوسف)

« وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ » . (صدق الله العظيم)

(٩ / القصص)

الكهل ، الشيخ :

ويصل كل من الرجل والمرأة إلى دور الكهولة ، ويطلق لفظ « الكهل » كما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم على من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين ووخطه الشيب ، وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن

الكريم في آيتين فقط في معرض الحديث عن عيسى عليه السلام :

« وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ » . (٤٦ / آل عمران)

«إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا » (صدق الله العظيم)

(١١٠ / المائدة)

أما الشيخ فتعريفه في معجم ألفاظ القرآن الكريم « من الخمسين إلى آخر عمره ، وقيل إلى الثمانين » . وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ثلاث مرات فقط في الآيات التالية :

« أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا » .

(٧٢ / هود)

«لانَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ[1] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » (٢٣ / القصص)

« ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا » . (صدق الله العظيم)

(٦٧ / غافر)

ابيض واسود :

نعرف جميعًا أن آدم عليه السلام ، وزوجته حواء كانا يعيشان في الجنة ولكنهما استمعا إلى وسوسة الشيطان وأكلا من الشجرة المحرمة ، فطردا من الجنة كما توضح الآية الكريمة التالية :

« قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » . (صدق الله العظيم)

(١٢٣ / طه)

ومنذ ذلك التاريخ السحيق وأبناؤهما يضربون في مجاهل الأرض ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، حتى امتلأت بهم الدنيا على سعتها ، وأصبحوا يبلغون الخمسة آلاف من الملايين على وجه التقريب ، كما أصبحوا شعوبًا وقبائل ، يتباينون في صفاتهم وطبائعهم ، كما يتباينون أيضًا في لغاتهم وألوانهم ، كما توضح الآية الكريمة التالية :

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » .

(صدق الله العظيم)

(٢٢ / الروم)

---

(١) يصدر الرعاء — يسقى الرعاة دوابهم ويصرفوها عن الماء .

المقصود « بالألسنة » هنا هو « اللغات » التى يتكلم بها بنو البشر فى مختلف أرجاء العالم ، كما هو معروف ، وقد أشرت فى حديثى السابق إلى أن اللغة إن هى إلّا أصوات ينطق بها اللسان ، فتستقبلها الأذن وتدرك المقصود منها ، وأن الإنسان يتعلم فى طفولته جميع الكلمات التى ينطق بها كل من حوله من البشر ، أى أنه يتعلم اللغة تعليمًا ، ولا يولد على معرفة بها على الإطلاق.

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب — بالصمم لا يستطيع سماع الأصوات أو الكلمات التى نتبادلها فيما بيننا ، ولذلك فإنه يصبح فيما بعد من البكم الذين لا يتكلمون ، ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصمم والبكم فى كثير من الآيات القرآنية — الكريمة ، ومنها مثلًا :

« صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » .
(١٨ / البقرة)

« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . (صدق الله العظيم)
(٧٨ / النحل)

أما الألوان فالمقصود بها على الأرجح لون الجسم من بياض أو سمرة أو سواد أو غيرها وقد وردت فى القرآن الكريم عدة آيات تدل على اللون عمومًا ، منها على سبيل المثال :

« يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ » .
(٦٩ / النحل)

« فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا »
(٢٧ / فاطر)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا »
(صدق الله العظيم)
(٦٩ / البقرة)

وسوف أقتصر هنا فى كلامى على لون الإنسان دون الألوان الأخرى ، ففى الأقاليم الشمالية الباردة حيث تكون أشعة الشمس ضعيفة نسبيًا ، ويكون عدد الأيام المشمسة قليلًا على مدار العام ، نجد أن الجلد لا يحتوى إلّا على كمية قليلة من صبغ الميلانين[1] (Melanin) مما يودى إلى بياض البشرة وإلى وجود العيون الزرق ،

(١) الميلانين صبغ أسود أو بنى داكن يستقر داخل الجلد عند قاعدة البشرة فى خلايا خاصة تسمى خلايا الميلانين .

والشعر الأصفر ، كما هي الحال فى البلاد الإسكندينافية على سبيل المثال .

فإذا انتقلنا نحو الجنوب نجد أن لون الجلد والشعر والأعين يزداد سمرة بالتدريج حتى نشاهد اللون الأسود الداكن فى المناطق الاستوائية وهى المناطق التى لا تكاد تغيب عنها الشمس طول العام ، كما تكون الأشعة الضوئية فى أعلى معدلاتها قوة ، وانتشارًا ، وهو مايوضح لنا أن كمية الصبغ الأسود الموجود فى جلد الإنسان يتناسب تناسبًا طرديًا مع كمية الأشعة الضوئية التى يتعرض لها فى حياته اليومية .

والواقع أن صبغ الميلانين له أهمية قصوى فى حماية أنسجة الجلد اللينة من التأثيرات المدمرة «للأشعة فوق البنفسجية» الموجودة فى الشمس ، ولذلك تتكون من هذا الصبغ طبقة داكنة تمنع وصول تلك الأشعة إلى داخل الجلد ، ولذلك تكون هناك اختلافات واضحة فى كمية الميلانين الموجودة فى الجلد فى مختلف السلالات البشرية تبعًا للبيئات التى تعيش فيها كل من تلك السلالات .

ويتضح من ذلك أن اللون الأسود نعمة لا نقمة ، وحسنة لا سيئة ، قدرها الله سبحانه وتعالى لعباده الذين يعيشون فى أقاليم قد تتعرض فيها جلودهم ، وبالتالى أنفسهم للهلاك بفعل أشعة الشمس ، فالمعروف أن الجلد هو خط الدفاع الأول فى وقاية الإنسان من « الغزو الميكروبى » للجسم ، ولعل البيض فى جنوب إفريقيا يعون هذه الحقائق ، وتتفتح أبصارهم وقلوبهم على الحق والعدل

تلك نبذة قصيرة عن « الإنسان فى القرآن الكريم » ، تناولت فيها قليلا من الحقائق المتعلقة بحياة هذا المخلوق الذى كرمه الله سبحانه وتعالى ممثلًا فى آدم عليه السلام ، حيث طلب من الملائكة أن يسجدوا له إجلالًا وتعظيمًا ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » .

(صدق الله العظيم)

(٣٤ / البقرة)

ثم فى قوله سبحانه وتعالى :

«لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»

(٤ / التين)

وغير ذلك من الآيات البينات التى توضح المنزلة الرفيعة التى اختصه بها ، سبحانه وتعالى دون سائر المخلوقات .

ولعلى أكون قد وفقت فى عرض هذا الحديث .

محمد رشاد الطوبى

عضو المجمع

المختصرات
وطريقة أدائها باللغة العربية

للدكتور عبد الكريم خليفة

تهدف هذه الكلمة إلى طرح قضية من قضايا كثيرة، تخص اللغة العلمية العربية في العصر الحديث. وعلى الرغم من الجهود الخيرة التي قامت بها مجامع اللغة العربية ولا سيما مجمعنا بالقاهرة في مجال المصطلحات العلمية، فإن قضايا اللغة العلمية لم تحظ بعد بالعناية اللازمة، وما زالت تنتظر مزيدًا من الدراسة والتحليل في ضوء المعطيات والمناهج العلمية الحديثة، ووضع الحلول المناسبة والقواعد الضرورية لإنماء اللغة العلمية العربية. والهدف الكبير الذي ما زلنا نتطلع إليه يتجسد في تحقيق تعريب العلوم والمعرفة، وتصبح العربية لغة التدريس الجامعي في مختلف مستوياته وفي جميع فروعه، ولغة البحث العلمي والتقنيات الحديثة. وبهذا الأسلوب وحده تستعيد العربية سيادتها في أوطانها، وتصبح عاملًا فاعلًا في رُقي أُمتنا وتحررها.

وإنه لمن البدهي القول باختلاف اللغة الأدبية عن اللغة العلمية من حيث أساليبها ووضوح مدلولاتها وتحديد مفرداتها. فاللغة العلمية تتحدد بصورة رئيسية بالقواعد التي تنتظم منهجية المصطلح العلمي وأدوات التعبير الأخرى من رموز علمية ومختصرات ومعادلات رياضية وأشكال إيضاحية ورسوم بيانية وغيرها من أشكال الاختزال والتركيب والرمز..

وقد بذلت جهود كبيرة، منذ مطلع هذا القرن، ولا سيما في العقود القليلة الماضية، في مجال وضع المصطلحات العلمية

(*) أُلقي هذا البحث في الجلسة الثالثة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الأربعاء ٣ من شعبان سنة ١٤١٠ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٠.

باللغة العربية . وتحديد منهجية ترتكز إلى قواعد ومبادئ محددة ، تنظم عملية التعريب . وفى هذه العملية واجه علماؤنا قضايا ومشكلات فى النقل من اللغات الحديثة المتقدمة التى أنتجت هذا السيل الضخم من العلوم والمعارف الإنسانية فى شتى المجالات . وبدأت المجامع اللغوية العربية وبعض المؤسسات العلمية والغيارى من علماء هذه الأمة ؛ يتلمسون طريقهم للتغلب على هذه الصعاب . دون أن تكون هنالك سياسة محددة ومناهج واضحة ودقيقة ، متفق عليها ، تلتزمها الجامعات والمؤسسات العلمية العربية فى التطبيق .

وكان نتيجة ذلك ما أشار إليه زميلنا العالم الجليل الدكتور محمود مختار ، فى محاضرته القيمة التى ألقاها فى ندوة عمان التى عقدها اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية فى المدة الواقعة بين ٢٧ من جمادى الأولى – ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٧هـ الموافق ٢٧ كانون الثانى – ٢٩ كانون الثانى – يناير سنة ١٩٨٧ م ، إذ يقول :

« ولكن يؤسفنى أن أقول : إن هذه المعاجم (يشير إلى مانشر من معاجم للمصطلحات العلمية) لم تخل من الشوائب التى أصابت اللغة العلمية ذاتها بشىء من الوهن والقصور ... والتى كان من آثارها ظهور المصطلح الواحد المتخصص ، بعدد من المقابلات العربية ، وهو ما ترفضه اللغة العلمية تماماً ، لما ينشره من بلبلة ولبس بين العلميين ... »

وإن قضية الرموز العلمية العربية ، التى كانت موضوع الدراسة فى تلك الندوة ، كانت فى الواقع إحدى المشكلات التى واجهت مجمع اللغة العربية الأردنى منذ أواخر السبعينات ، عندما بدأ حملته ، لتعريب التعليم العلمى الجامعى . فقد أقر المتخصصون أن الترجمة برموز أجنبية إنما هى مجرد ترجمة ، وليست تعريباً للعلم وإن التعريب ، إنما يتطلب إنبات العلم فى بيئة عربية خاصة[1]. وأن للرمز إيحاءات خاصة لا تنقل بانتقال الرمز من لغة إلى أخرى .

وأدى تسارع الحركة العلمية منذ الحرب العالمية الثانية ، إلى دخول فيض كبير من المصطلحات العلمية والتسميات بكلمات

(١) انظر : مشروع مجمع اللغة العربية الأردنى للرموز العلمية ، ص ٧ .

متعددة وعبارات طويلة فى اللغات الأجنبية المتقدمة مثل - الإنجليزية والفرنسية ، والألمانية والروسية . وقد رأوا فى مؤسساتهم اللغوية والعلمية أن ينأوا عن تكرار هذه العبارات الطويلة ، توفيرًا الوقت والجهد وتيسيرًا للفهم والإفهام فلجأوا إلى أسلوب المختصرات (Abbreviations) ، وذلك بوضع أشكال معينة للتعبير عن المعنى بصورة رمزية مختزلة ، وفق قواعد محدّدة ومتعارف عليها ، فاختصروا الكلمات فى حروف تكون عادة أوائل كلمات المصطلح .

لقد دلت نتائج البحوث اللغوية ، أن الاتجاه العام لجميع اللغات هو نحو تقصير الصيغ للكلمات . وأن هذا الاتجاه واضح كل الوضوح فى مسيرة العربية عبر تاريخها التُّراثى الطويل . واعتبر « النحت » فى العربية جنسًا من « الاختصار » . فكانت العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، كقولهم : « رجل عبشمى » منسوب إلى اسمين ، وقولهم : « حيعلة » من حيَّ على ، وتسارع هذا الاتجاه نحو «الاختصار» بعد ظهور الإسلام ، فقالوا : «البسملة » من عبارة « باسم الله » ، و « الهيللة » من « لا إلٰهَ إلّا الله » ، والحولقة والحوقلة من «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلّا بالله » و «الحمدلة » من « الحمد لله » و « الجعفدة » من جعلت فداك والسبحلة أى من « سبحان الله » ... وأصبحت « الحيعلة » تعنى قول المؤذن : « حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح »[1] ...

وما زال « النحت » فى اللغة يراوح مكانه فى هذا المجال المحدود ، وهو مع ذلك يكوِّن رافدًا من روافد إنماء العربية . وما فتئت العربية أن وجدت نفسها . منذ بداية القرن العشرين تستيقظ على طوفان من المصطلحات العلمية فى مختلف مجالات المعرفة . ولذا كان على العربية أن تستخدم جميع أدوات التعبير من أجل استيعاب المصطلحات ، والمعانى الجديدة .. وكان النحت والاشتقاق والنقل والمجاز والاختزال والتركيب ، والتعريب ، من أهم الأدوات ، ولاسيما فى موضوع إيجاد المقابلات العربية للمصطلحات والرموز العلمية والمختصرات ... وعلى

(١) انظر : السيوطى ، المزهر ، ح ١ ص ٤٨٢ – ٤٨٥ .

الرغم من الدراسات التي عالجت هذه القضايا اللغوية المهمة ، إلا أنها لم تصل إلى مرحلة التنظيم وفق قواعد محددة فكثيرا ما تختلط مفاهيم أدوات التعبير مثل النحت والاختزال والمختصرات والرموز .. إلخ ، ولا سيما أنها ذات طبيعة متداخلة .

واللغة العربية تجربة خصبة في استعمال مختلف أدوات التعبير هذه . وإن دراسة هذه التجربة التراثية ، لتشكل أساسًا في وضع القواعد المحددة للإفادة من الاستعمال الواسع للرموز والمختصرات العلمية في العصر الحديث

شاع استعمال « المختصرات » في اللغات الحية في هذا القرن . لا سيما منذ الحرب العالمية الثانية . وهي في اللغات الأجنبية المتقدمة تخضع لقواعد محددة ، بصورة عامة . وتستعمل عادة أوائل حروف الكلمات التي تكوّن العبارة أو المصطلح . وتكتب وفق نظام متفق عليه . وأصبح هذا الأسلوب يجد طريقة إلى كتاباتنا العربية . ولا سيما العلمية منها في العصر الحديث . ولكن غياب الدراسات اللغوية لموضوع المختصرات هذه . وعدم التوصل إلى وضع قواعد تحدد استخدامها في الكتابة العربية . قد أعاق انتشارها من ناحية ، وأوقع الفوضى والتناقضات من ناحية أخرى ، فالعفوية والاجتهادات الفردية ، ما زالت مع الأسف هي الطريق الرئيسي . الذي تشيع من خلاله أدوات التعبير العلمية الحديثة ، سواء أكان ذلك في مجال العلوم التطبيقية والإنشائية أم في مجال الحياة الحضارية .

فإذا كانت الرموز العلمية ، تتصف بالخصوصية والثّبات ، فإن «المختصرات» تتصف بالشمولية والتغير إنها تتجاوز مجال العلوم إلى دلالات الحياة بأوسع معانيها ، وهي في الوقت ذاته ، أداة تعبر عن دلالات آنيّة . تختفي من الاستعمال باختفاء هذه المدلولات من واقع الحياة . فهذا « المختصر » مثلًا الذي يدل على حلف عسكري أو دولي معين ، يختفي من الاستعمال بانتهاء هذه الأحلاف وتلك المنظمات .

وأدت العفوية في دخول «المختصرات» إلى الكتابة العربية الحديثة إلى فوضى في الاجتهاد وتناقضات تصل إلى حدّ التفكه

أحيانًا وأحيانًا أُخرى تفتح الباب إلى إدخال الحروف الأجنبية بلفظها الأعجمى فى سياق الكتابة العربية وإن هذا الحال لشىءٌ مؤسف حقًّا ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

لنأخذ مثلًا اسم إحدى المنظمات العربية والمختصرات التى شاعت للدلالة عليها ، فالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، أشاعت من حيث الواقع « المختصر » (ALECSO) وهذا المختصر بحروفه الأجنبية قد تطور من الكتابة بحروف كبيرة ، يفصل بينها النقط إلى كلمة واحدة ، إنجليزية اللفظ والدلالة ... ثم تجاوز الأمر إلى كتابتها بالحروف العربية (ألكسو) على طريقة التعريب من حيث إدخال الكلمة الأعجمية كما هى فى العربية ، وتطبيق قواعد العربية عليها . لا شك أن هذا اللون من التعريب ، تقبله العربية من حيث المبدأ ويشكل واحدًا من الروافد المهمة الكثيرة التى تمد العربية بالحياة المتجددة وباستيعاب كل ما يصل إليه الفكر الإنسانى من معارف وعلوم ولكنه فى هذا المقام يدعو إلى العجب . وإن نظرة فاحصة لهذا المسار الذى سلكته « المختصرات » ، على نهج المثال الذى أوردناه تبين لنا مقدار عقم هذا الأُسلوب ، وتناقضه واستخفافه بروبق العربية وخصوصياتها من حيث هى لغة نامية ومتطورة . فإن حروف (A L E C S O.) ، هى الحروف الأُولى – للكلمات التى يتألف منها اسم المنظمة العربية باللغة الإنجليزية وهو :

Arab League Educational Cultural and Scientific Organization

وإن كل حرف يوحى باللفظة التى ينتسب إليها ، وأنه بسبب الشيوع أصبح المختصر كلمة واحدة ، وسقطت النقط ، ومع ذلك بقيت إلى حد ما موحية تذكر بأُصولها الإنجليزية . ولكنها عندما انتقلت إلى العربية بلفظها الأعجمى ، وكتبت بالحروف العربية (ألكسو) أصبحت لفظة صماء ، مقطوعة الجذور والأُصول ، فضلًا عن الهجنة التى تكتنفها .

ومثل ذلك يقال فى « المختصر » الذى أُشيع استعماله فى تسمية «المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة » . فقد سلك « المختصر »الأُسلوب ذاته وسار على الطريق إياه . فقد وضع «المختصر » لاسم المنظمة

باللغة الإنجليزية واسمها باللغة الإنجليزية هو :

Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization

فوضع المختصر بأن أخذ الحرف الأول من كل كلمة من هذه التسمية ماعدا حروف العطف فأصبح على هذا الشكل : (I.S.E.S.C.O.) ثم سقطت النقط ليكوّن كلمة واحدة مؤلفة من الحروف الكبيرة فأصبحت هكذا (ISESCO) ، ثم وجدت طريقها مع الأسف إلى الكتابة العربية بلفظها الأعجمى فأصبحت تكتب بالحروف العربية (اسيزكو) ...

سار هذا الأُسلوب فى هذين المختصرين على غرار الأُسلوب الذى اتخذته منظمات الأُمم المتحدة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ... وإن المثالين اللذين أوردناهما قد استوحيا تسمية المنظمة الدولية (U.N E.S.C.O) . فقد شاع هذا «المختصر» ، ودخل فى كتابة جميع اللغات تقريباً فى العصر الحديث . ودخل فيا دخل فى الكتابة العربية ، وقد عُرِّب بكتابته بالحروف العربية ، وإدخال « ال » التعريف عليه .

ونحن نجد فى هـذا المسار ، أُسلوباً صحيحاً ، وطريقاً سليماً فى استيعاب العربية هذه المختصرات التى أصبح لها وجود عالمى والأَمثلة كثيرة على ذلك . فقد أصبح كثير من هذه المختصرات كلمات لا توحى بأُصولها ولا تنم عن جذورها ، وبدأت تكوّن مصطلحات ذات دلالات علمية محدَّدة مثل : الليزر والإيدز ... إلخ

وإنه لمن العبث الذى يدعو إلى الاستهجان والحزن عندما تَسْتَعْمِلُ كثير من الأَدبيات فى الوطن العربى اسم « اليونسكو العربية » للدلالة على « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » أو « اليونسكو الإسلامية » ، للدلالة على المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ... أو أنها تشيع المختصرات بألفاظها الأَعجمية مكتوبة بحروف عربية !

ونحن نعتقد أن هذه الفوضى التى تكتنف المختصرات ، مثل ما تكتنف كثيراً من أدوات التعبير الحديثة ، وهذا التخبط الذى نلمسه فى أساليب استخدامها يهيب بنا إلى دراسة جميع المشكلات الخاصة بأدوات التعبير ، والأَساليب التى تغنى العربية وتجعلها قادرة على مواكبة المسيرة.

العلمية الحديثة ،فى عصر التفجر العلمى ، ونحن نحث الخطى نحو فجر القرن الحادى والعشرين ..

فإشاعة أسلوب « المختصرات » فى كتاباتنا العربية يقضى بأن تأخذ المجامع والهيئات اللغوية العربية على عاتقها دراسة المشكلات التى تنشأ عن ذيوع استخدام المختصرات ، ووضع قواعد محددة تنظم كيفية صياغتها ، وإضفاء رونق العربية عليها ، ونظمها فى سياق الجملة العربية السليمة . فيتناول البحث المختصرات الأجنبية التى شاع استعمالها فى حياتنا العامة مثل : اليونسكو والليزر ... إلخ ، وكذلك المختصرات التى تتداولها اللغات الأجنبية المتقدمة ، ولما يَشِعْ استعمالها فى لغتنا . فما السبيل إلى استيعابها ؟ أيكون ذلك بأخذ هذه المختصرات بحروفها ، الأعجمية أم المحافظة على نطقها الأعجمى وكتابتها بالحروف العربية ؟ وهل تكتب هذه الحروف العربية بشكلها المقطع ، مفصولة بعضها عن بعض ، وهل تكون الفاصلة نقطة أم شولة ! أم أن تكتب هذه الحروف العربية بشكلها المتصل مكونة كلمة أو مقطعًا من كلمة !!

وربما نتحول إلى أسلوب آخر ، ينطلق من ترجمة المصطلح أو الاسم إلى العربية ، سواء أكان مؤلفًا من كلمة واحدة أم عدة كلمات ، وأن يؤخذ الحرف الأول من كل كلمة عربية ، بعد تجريدها من ال التعريف ويكون من أوائل هذه الكلمات مجموعة من الحروف ، تكتب بشكلها الهجائى المقطع (ا . ب ت ث ج ... إلخ » وهنا أيضًا يرد التساؤل ، فهل يكتب المختصر بهذه الحروف المقطعة مع فواصل بينها ، سواءٌ أكانت نقطة أم شولة .. أم أنها تكتب دون فواصل ، ويجرى نطقها بأسماء الحروف (ألف باء جيم دال ... إلخ) ، أم أنها تكتب بالحروف المتصلة وتنطق كلمة دالة على معنى اصطلاحى معين ؟ لنأخذ مثالاً على ذلك وليكن المختصر (حماس) فهو « مختصر » (حركة المقاومة الإسلامية) ... إلخ ، وربما كان لطبيعة الحروف المجتمعة وما تؤديه أحيانًا من لفظ يخف على السمع ويسهل على اللسان ، دور فى صياغة المختصر على شكل ألفاظ مقبولة أو بقائها حروفًا تنطق بأسمائها (حاء ، ميم ، سين) ، وإذا كان الإجماع تامًا على تجريد الأسماء من ال

التعريف ، عندما يؤخذ الحرف الأول من كلّ منها ، فإن التساؤل ما زال باقياً حول حروف الجر وأدوات الشرط والاستفهام والضمائر المنفصلة وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وظروف الزمان والمكان ... إلخ ، التي قد تؤلف جزءاً من تلك التسمية ، أو ذلك المصطلح الذي نريد وضع « مختصر » له . وربما تدعو الحاجة إلى استعمال « النسبة » إلى هذا الاسم أو المصطلح ، فكيف تتم النسبة ؟ ومتى تستساغ النسبة إلى « المختصر » ؟ ومتى يمكن أن تكون النسبة إلى التراكيب والعبارات ؟ وما هي القواعد اللغوية التي تضبط ذلك كله ؟ ... إلخ .

وجملة القول ، فإن ذلك كله يتطلب من المجامع اللغوية العربية وضع قواعد محدَّدة ومنهجية ملزمة ، يتم الاتفاق عليها تحدد طريقة وضع « المختصرات » . وغيرها من أدوات التعبير التي راج استعمالها في اللغات الأجنبية المتقدمة ، وتوضح أساليب استعمالها في الكتابة العربية .

وقد هداني الاهتمام بهذا الموضوع والاطلاع على بعض ما كتب حوله ، قديماً وحديثاً أن أتقدم إلى مؤتمرنا العتيد ببعض الأفكار التي يمكن أن تشكل الخطوط العريضة لقواعد محدَّدة يتم الاتفاق عليها ، تنظم طريقة أداء « المختصرات » وكيفية استعمالها باللغة العربية وقبل أن أجمل هذه الأفكار ، أقول :

عَرَفَت العربية منذ تاريخها المبكر أدوات التعبير المختلفة من رموز ومختصرات وغيرها ولكن ظروف استعمالها كانت محدودة في مجالات معينة . وإن التطور العلمي الحديث وتفجر المعرفة وتسارعها ، يحتم علينا إيجاد قواعد محددة يلتزم بها في وضع الرموز والمختصرات وتعميمها في الكتابة العربية ، من أجل أن تفي العربية بمتطلبات العصر الحديث وتواكب مسيرة اللغات الأجنبية المتقدمة . فالعربية الخالدة ، لغة القرآن الكريم ، ثابتة من حيث نحوها وصرفها ، ولكنها لغة نامية ومتطورة من حيث أساليبها ومفرداتها فلها من خصائصها الذاتية وأدوات التعبير ، ما يجعلها قادرة على استيعاب كل ما يجد من معارف في مختلف العصور

وإنني إذ أعزو الفضل لأصحابه من

العلماء والباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع من جوانبه المختلفة ، لأوذأن أورد القواعد العامة التى ربما تصلح أن تكون منطلقًا ، للاتفاق على قواعد محددة توضح كيفية وضع « المختصرات » وأساليب استعمالها فى الكتابة العربية ، وذلك على الشكل التالى .

أولًا : يؤخذ ما جاء فى التراث من « مختصرات » كما هى ، سواء أكانت عن طريق النحت أم عن طريق التركيب أو الاختزال أو الرمز ، باعتبارها نقلية سماعية ، لا يقاس عليها ، ولا نخضعها لقواعد « المختصرات » الحديثة ، مثال ذلك . البسملة والحوقلة ، والحمدلة والحيعلة ... إلخ . ونقول بعدم القياس فى وضع هذه الكلمات ، كى نتجنب الخروج عن القاعدة والدخول فى فوضى الاجتهادات الفردية .

ثانيًا : قبول « المختصرات » الأجنبية التى أصبح لها وجود عالمى فى اللغات المتقدمة ، وإدخالها فى الكتابة العربية باعتبارها كلمات أعجمية ، دون النظر إلى أصولها أو إيحاءاتها . وتكتب بالحروف العربية المتصلة ، وذلك على سبيل « التعريب » . وتجرى عليها قواعد العربية من حيث التعريف والتنكير والتثنية والجمع والنسبة عند الحاجة ، ومن حيث السياق والتركيب ، فنقول : اليونسكو والليزر والرادار والإيدز . . إلخ ، ونقول فى النسبة : « الليزرى والرادارى واليونسكى . . إلخ » .

ثالثًا : قبول « المختصرات » الأجنبية لأسماء الأعلام ، كما هى ، وكتابتها ، بالحروف العربية وفق نطقها الأعجمى .

رابعًا : يوضع « المختصر » للتسميات العربية ، سواء أكانت هذه التسميات عربية الأصل والمنشأ أم أنها تستعمل فى الدوائر الرسمية أو الجيش أو الموسسات العامة والخاصة أو الشركات أو يكثر استعمالها وترددها فى الحياة العامة ، وذلك وفق القواعد التالية :

١- يؤخذ الحرف الأول من كل اسم بعد تجريده من « ال » التعريف ، ومن كل كلمة بعد تجريدها من « الزوائد » . ويكتب المختصر بالحروف المنفصلة دون وضع إشارة فصل بينها . وتلفظ الحروف

العربية بأسمائها ، فنقول مثلًا : (جيم ميم عين) ، عند كتابة (ج م ع) .
وإذا كان المختصر يشكل كلمة واحدة سهلة اللفظ ، سائغة الاستعمال ، فتكتب بالحروف المتصلة ، وتلفظ الحروف ، بأصواتها فى بنية الكلمة . فنقول مثلًا :
« مآب » بدلًا من « مؤسسة آل البيت »

وإذا كان المصطلح أو الاسم كلمة واحدة يؤخذ الحرف الأول والثانى من الكلمة ، بعد تجريدها من ال التعريف والزوائد . ويكتب بأشكال الحروف المتصلة ، وتلفظ الحروف بأسمائها فنقول :

« سين ميم » للمختصر « سم » بدلًا من « سنتيمتر » .

و « تاء عين » للمختصر « تع » بدلًا من « تعاونية » .

و « ميم خاء » للمختصر « مخ » بدلًا من « مخطوطة » .

وهكذا ...

٢ – لا ينظر فى العبارة التى تكون التسمية أو المصطلح ، إلى حروف الجر والعطف وأدوات الاستفهام والشرط والتنبيه ، وأدوات النداء ، ولا إلى الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة .

٣ – يؤخذ الحرفان الأول والثانى من الكلمات الدالة على الظرف ، وتلفظ الحروف بأصواتها أى باعتبار بنية الكلمة وتكتب بالحروف المتصلة ، مثال ذلك :

« قَبْ » بدلًا من « قبل » .

و « تَحْ » بدلًا من « تحت » .

و « شَمْ » بدلًا من « شمال » .

و « بَعْ » بدلًا من « بعد » .

خامسًا : وبالنسبة للمختصرات الأجنبية التى تدعو الحاجة إلى استعمالها فى الكتابة العربية ، فيتم ترجمة المصطلح أو التسمية كما هو فى الأصل ، إلى اللغة العربية . ثم يعامل فى كيفية وضع « المختصر » ، معاملة التسميات العربية كما ورد فى البند الرابع . مثال ذلك : المختصر الإنجليزى (M.O.) يعنى بدلًا من المصطلح الإنجليزى (Money Order) ، فيترجم هذا المصطلح إلى العربية ، ويصبح : « حوالة مالية » ، ثم يوضع له المختصر باللغة العربية ، وفق القواعد التى ذكرناها

فيكون على الشكل التالى (ح م) ويلفظ بأسماء الحروف أى : (حاء ، ميم) ...

وإذا كان المصطلح أو الاسم كلمة واحدة وأردنا أن نضع له مختصرًا ، فتجرى عليه القواعد نفسها التى ذكرت سابقًا . مثال ذلك : فإن المختصر « باللغة الإنجليزية » (M.S.) يعنى بدلاً من التسمية الإنجليزية (Manuscript) . يترجم هذا المصطلح الأخير إلى العربية فيصبح « مخطوطة » ، ثم يوضع له « المختصر » باللغة العربية : « مخ » ، بأن يؤخذ الحرف الأول والثانى من كلمة « مخطوطة » ، ويكتبان بالحروف المتصلة ، ويلفظان حسب أسماء الحروف ، وقد يوحى « المختصر » ، بأن تلفظ عبارة المصطلح بكاملها ، إذا أصبح ذلك شائعًا ، كما هو الحال فى مختصر (ص) . فيكون النطق دائمًا بلفظ العبارة « صلى الله عليه وسلم » . وهنا يتداخل مفهوم « الرمز » مع مفهوم « المختصر » ...

سادسًا : الالتزام باستعمال قواعد وضع « المختصرات » واستعمالها فى الكتابة العربية ، وأن تحتوى المعاجم والموسوعات والكتب العلمية العربية المتخصصة والعامة ثبتاً بالمختصرات التى استعملت فى هذه المصنفات ، ترجمة أو تأليفًا ...

سيدى الرئيس الجليل ، أيها الأساتذة العلماء ، لا أزعم أننى أتيت بشىء جديد ، بما عرضته من أفكار عامة وخطوط عريضة فى محاولتى تلمس الطريق فى هذه المسألة اللغوية ، ولكننى أرجو أن أكون قد وفقت فى جلب الانتباه إلى ضرورة دراسة المشكلات التى تواجهها العربية ، ونحن نستشرف القرن الحادى والعشرين ، حيث يلوح فى الأفق البعيد فجر حضارة جديدة . وإن أمتنا العربية لمدعوة إلى اللحاق بركب الحضارة ، والمشاركة المبدعة فيها ، وأنه لا يجوز لها التخلف أو التقصير والاختلاف فالقضية تمس هويتها ووجودها الحضارى . وإنها مدعوة بكل إمكاناتها ، لتجاوز مرحلة التبعية الفكرية والاستعمار العلمى الذى أبعد العربية من أن تمارس سيادتها فى أوطانها ، وأن تكون لغة التدريس العلمى الجامعى ولغة البحث العلمى فى جميع مستوياته ، ولغة التقنيات الحديثة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الكريم خليفة
عضو المجمع (من الأردن)

خارجة بن فليح المللي

للأستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي

مقدمة :

خارجة بن فُليح المَلَلى شاعر حجازى مُجيد عاش فى القرن الثانى للهجرة، لم تتحدث عنه كثيراً كتب الأدب الشهيرة، خاصة منها الكتب التى عُنيت بتراجم الشعراء وطبقاتهم، فلا ذكر له فى (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، ولا فى (طبقات الشعراء) لابن سلام، ولم يذكره الزركلى فى أعلامه، ولا المرزبانى فى (معجم الشعراء) .. ولا نكاد نجد له اسماً إلّا فى مصادر نزرة. وهذه لا تورد من أخباره وأشعاره إلّا الشيء القليل الذى لا يشفى الغليل. ونجد أحياناً اسمه فى بعضها قد تصحّف وتحرّف، فجاء المكى بدلاً من المللى، وسيرد الحديث عن ذلك مفصلاً فيما بعد.

وقد رأيت فى شعر هذا الشاعر سمات من الجودة أغرتنى أن أتتبعَ أخباره ما استطعت بل رأيت ثناء على شعره من بعض الرواة يُغرى بذلك التتبع، فساورتنى رغبةٌ جامحة إلى إنصافه، وجمع أخباره وأشعاره، وهى رغبة كثيراً ما تستبد بى كلما وجدتُ عبقرية يتكاثر عليها الظلام ليغطى من لمعانها، ويحجبَ من شعاعها.

ولا أزعم أننى بلغت فى استقصاء أخبار هذا الشاعر المدى، أو انتهيت إلى آخر الشوط، ولكنى بذلت ما تيسر لى من جُهد. مؤملاً أن تكون هذه بدايةَ بحث أستكمله أو يستكمله غيرى .. وحسبى الآن من القلادة ما أحاط بالعنق

والله الموفق.

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم السبت ٦ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٣ من مارس آذار سنة ١٩٩٠ م.

الفصل الأول

ترجمته وأخباره

- اسمه ونسبته :
- والده :
- تصحيف نسبته في المصادر :
- عصره وأخباره :
- مكانته الشعرية :

اسمه ونسبته :

إن ندرة أخبارِ الشاعر ، وتبعثرها هنا وهناك بين مصادره القليلة لم تتح لى معلومات كافيةً عنه ، فلا حديثَ عن تاريخ مولده ولا تاريخِ وفاته ، ولا ملامحَ بارزةً من حياته ، وليس في مُكنة الباحث إلَّا أن يستنتجَ فحسب الفترةَ الزمنية التى عاش فيها من تلك الأخبار الواردة من معاصريه أو ممدوحيه .

وأَقْدَمُ من ذكره فيما انتهى إلينا من مصادره هو (الزبير بن بكار) في كتابه (جمهرة نسب قريش) ، فقد كانت وفاته ٢٥٦ هـ ، على أن هذا الكتاب لم يصل إلينا كاملًا ، وما نشره منه الأُستاذ الباحث الجليل (محمود شاكر) ما هو إلَّا بعضُ الكتاب لا كلُّه ، وبقى منه بعضٌ لم ينشر بعد ، على نفاسة الكتاب وقيمته الكبرى للتاريخ الأدبى ، وهناك بعضٌ منه ذهبت به الأَيام .. فلا يُدرى أَين هو ؟

نعرف من الجزء الذى نشر : نسبَ الشاعر . فهو خارجة بن فُليح بن إسماعيل ابن جعفر بن أبى كبير[1] .

ونعلم أنه مولى أسلم . . ذكر ذلك أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح (ت ٢٩٦ هـ) في كتاب (الورقة) ص ٧٤ ، حيث قال : « خارجة بن فُليح المَلَلى ، مولى أسلم ، حجازى ، شاعرٌ مجيد

(١) ص ١٠٨ ، حيث جاء هذا النسب عن (فليح) وقال الأستاذ (محمود شاكر) محقق الكتاب كأنه هو أبو خارجة بن فليح المللى .

كثير الشعر » وقد ذكر (البكرى)[1] فى شرح أمالى القالى ص ٦٥ أن فليحا المَلَلى هو مولى أسلم

وتدلنا نصوص الزبير بن بكار . أن نسبته (الملَلى) ، كما جاء فى ص ١٣٥ منه حيث قال « وقال خارجة بن فليح الملَلى يمدح (عبد الله بن مصعب) .ويفسر (البكرى) فى شرح الأمالى ص ٦٥ معنى (مَلَل) التى ينتسب إليها الشاعر فيقول : « ملل التى ينسب إليها على مقرُبة من المدينة فى شق (الرَّوْحاء) »

أى أن (ملل) اسم موضع لا اسمُ رجل أو قبيلة

وأوسعُ مَنْ تحدث عن (ملل) من البُلدانيين القدامى هو (البكرى) نفسُه فى كتابه الآخر (معجم ما استعجم) فى مادة (الميم واللام) ، ونص أن خارجة بن فليح ينسب إليها ، وجاء بشاهد من شعر جعفر ابن الزبير يرثى ابنًا له مات بملل هو قوله :

أحزنٌ على ماء العشيرة والهوى
على ملل ، يالهف نفسى على مللْ

وقال : إن الفرش والفريش من مَلَل ، ويدل على قربها من المدينة . ما رواه البكرى أيضًا من أن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، صلى الجمعةَ بالمدينة . وصلى العصرَ بملل .

ويقول (ياقوت) فى (معجم البلدان) إنه منزل على طريق المدينة إلى مكة على بعد ثمانية وعشرين ميلًا من المدينة .وهو واد ينحدر من (وَرِقان) جبل مُزينة . حتى يَصُب فى (الفرش) فرش سويقة .

أقول : والفرش والفُريش لا يزالان معروفيْن بهذا الاسم حتى اليوم . وكان الفُريش على الطريق القديم للسيارات بين مكة والمدينة . وقد مررت به . وهو على مقربة من المدينة المنورة .

وقد ورد ذكر (الفرش) فى شعر الشاعر نفسِه :

سقى هضبات الفرش كلُّ مُجَلْجِلٍ
له نَضَدٌ من مزنه ، وصبيرُ

والده :

إن المصادر التى بين يدى لا تزيد عند

---

(١) الوزير عبد الله بن عبد العزيز البكرى الأونبى ت ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م .

ذكر الشعر عن أن تقول إنه (خارجة بن فليح) . ولا نعلم أى (فُليح) هذا ، ولكن لأُستاذ (محمود شاكر) محقق كتاب (جمهرة نسب قريش وأخبارها) . وهو العمدة فى أخبار (خارجة) توقف عند الفقرة (٢١١) من هذا الكتاب . ص ١٠٨ . فعلق فى الهامش بما يدل على أنه يرجح أن فليحًا هو فليح بن إسماعيل ابن جعفر بن أبى كبير .

ولكى تتضحْ الصورة تمامًا . فإنى أورد نصَّ هذه الفقرة وتعليقَ شيخِنا عليها .

« ٢١١ – وابنه ثابت بن الزبير بن خُبَيْب . وكان يتبدى بالرائع . فزاره فليح بن إسماعيل بن جعفر بن أبى كبير . فقال فليح :

عنَّيتنا يا ثابت بن الزبير

جشَّمتنا جَوْب حرار وعُورْ

سقيًا لجنَّيك وجديهما

ومن له جدٌّ كمثل الزبيرْ »

هذه هى الفقرة ، أما التعليق ، فقد قال أُستاذنا عن فُليح : كأنَّه هو أبو (خارجة ابن فليح المللى) .

فإذا صح هذا ، وأحسبه صحيحًا ،فيكون والد خارجة شاعرًا

ولقد وجدت لفليح بن إسماعيل ذكرًا فى (مجالس ثعلب) ص ٩٤ ، فى هـذا الخبر :

« أخبرنا محمد قال : وثنا أبو العباس قال : حدثنى عبد الله قال : حدثنى محمد ابن عيسى . عن فليح بن إسماعيل قال ؛ : حدثنى عبد الله بن صالح سنة اثنتين وستين ومائة قال . حدثنى عمى سليمان بن على ، عن عكرمة قال : إنى لمع ابن عباس بعرفة إذ فتية أُدْمان[1] يحملون فتى فى كساء ، معروقَ الوجه ، ناحلَ البدن ، له حلاوة ، حتى وضعوه بين يدى ابن عباس وقالوا : استشفِ له يا ابن عم رسول الله . قال :

(١) لأنه ب اسمر .

فقال ابن عباس . وما به ؟ فأنشأ الفتى يقول :

بنا من جوى الأحزان والوجد لوعةٌ
تكاد لها نفس الشفيق تذوبُ

ولكنما أبقى حشاشةَ مُعْوِلٍ
على ما به عُودٌ هناك صليب

فأقبل ابن عباس على عبد الله بن حُميد ابن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى فقال : أخذ هذا البدوى العود[1] علينا وعليك . قال : فحملوه فخفَتَ فى أيديهم فمات . فقال ابن عباس رحمه الله : هذا قتيل الحب ، لا عقْل ولا قَوَد . قال عكرمة : فما رأيت ابن عباس سأل الله عز وجل فى عشيتِه حتى المساء إلّا العافيةَ مما ابتلىَ به الفتى » اهـ .

ونرى من هذا الخبر أن فليح بن إسماعيل يحدد سنة روايته ، بسنة اثنتين وستين ومائة ، وهى الفترة التى عاش بها خارجة . فاحتمال أنه أبوه ليس مستبعدًا .

على أن لهذا الخبر بقية فى كتاب الأغانى ٢٠-١٥٨) هى :

« قال : وسألنا عنه فقيل هذا عروة ابن حزام » .

ولهذا الخبر دلالته فى عناية (فليح بن إسماعيل) بأخبار الأدب ؛ مما ينم على نزعة أدبية ورثها عنه ابنُه الذى أصبح شاعرًا .. حاز إعجابَ فريق من نقاد الشعر فى عصره

تصحيف نسبته فى المصادر :

أشرت أن هناك تصحيفًا فى نسبته .. جعله المكىّ بدلًا عن المللى ، وقد جاء هذا التصحيف فى (مجالس ثعلب)[2] ، ومع أن محقق الكتاب هو العلامة المدقق الأستاذ عبد السلام هارون ، فإنه لم يتعرض لهذا التصحيف ، بل لم يترجم للشاعر ، أو يدل على مصادره خلافًا لعادته ، ولم يصلح ذلك فى كتابه (تحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب) ص١١٠ ، ولكنه عاد فأثبت الصواب فى تحقيقه الرائع لخزانة الأدب ١٠ / ٤٥٢

---

(١) المراد الصلابة .
(٢) ج ١ - ٢٣٥ .

وهذا التصحيف وجدته فى كتاب (الأغانى) لأبى الفرج الأصفهانى (ت ٣٥٦هـ)، فقد جاء فى ج ٢٠ / ١٥٧ فى رواية عن سليمان بن عبد العزيز بن عمران الزهرى «قال . حدثنى خارجة المكى أنه رأى عروة بن حزام يطاف به حول البيت قال: فدنوت منه فقلت: من أنت؟ فقال: الذى يقول:

أفى كل يوم أنت رام بلادها
بعينين إنسـاناهمـا غرقان
ألا فاحملانى بارك الله فيكما
إلى حاضر الرَّوْحاء ثم دعانى(١)

فقلت له: زدنى، فقال: لا والله ولا حرفًا. اهـ.

هكذا النص فى الأصفهانى. ومما يستوقف النظر فيه، أن خارجة الملى لا يمكن أن يكون قد رأى عروة بن حزام، لأن وفاة هذا كانت سنة ٣٠ للهجرة، وعاش خارجة إلى أواخر القرن الثانى للهجرة. فلعل هناك راويًا سقط أو أكثر من راو بعد اسم خارجة.

ومما يستلفت النظر جدا أن الأصفهانى لم يذكر شيئًا عن الشاعر الملى، رغم كثرة رواياته عن الزبير بن بكار، الذى أورد نصوصًا شعرية لخارجة، بل كان (جمهرة نسب قريش) هو أكثر المصادر القليلة إيرادًا لأشعاره.

وأشار الأستاذ الدكتور (عبد الله الجبورى) فى هامش الصفحة ٣٤٢ تعليقًا على الفقرة ١٥١ الخاصة بخارجة بن فليح الملى، من كتاب (التذكرة السعدية فى الأشعار العربية) تأليف (محمد ابن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدى) من رجال القرن الثامن الهجرى، وقد حققه – أشار إلى ورود النسبة فى (مجالس ثعلب) المكى، وأعقب ذلك بقوله: «ولعله الصواب»، قلت: بل الصواب هو الملى.

والأستاذ العلامة (عبد العزيز الميمنى) وهو الذى حقق كتاب (سمط اللآلى) فى شرح أمالى القالى، علق فى هامش الصفحة ٦٥ التى أشرت إليها من قبل، بعد أن أشار إلى ورود اسم خارجة بنسبه

(١) (الروحاء) كما سلف أن شرحت إلى جوار ملل.

(المكى) فى ج ٢٠-١٥٧ من الأغانى . فقال : « إنه ورد مصحفًا إلّا أنّ المصحِّف لم يبعد لقرب ملل من مكة » .

وأقول : بل لقد أبعد المصحف ، إن كان خارجة هذا هو خارجة بن فليح لأن موقع ملل قرب المدينة - كما بينت من قبل - وهو يبعد عن مكة ، وإن كان على الطريق إليها ، فلا تصح نسبته إلى مكة .

وقد ذكر الذى همش على كتاب (الأمالى) ج ١/ ١٤ ، معلقًا على كلمة (المللى) بأنه لم يجد هذه النسبة فى كتب الأنساب .

أما الدكتور (حمود عبدالأمير الحمادى) الذى حقق كتاب (التعليقات والنوادر) لأبى على هارون بن زكريا الهَجَرى (ت نحو ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) ، فقال معلقًا على نص منسوب إلى (المللى) ، ولم يذكر المؤلفُ اسمه : « لم أهتد إليه لعدم الإفصاح عنه » ، وألتمس له العذر ، فكتب الأدب الكبيرة ضنينة بذكره .

عصره وأخباره :

نستطيع أن نستنتج من بعض رواية فليح بن إسماعيل ، ومن مدائح ابنه خارجة لبعض مشاهير ورجالات عصره - فى موطنه - أن خارجة عاش بين القرنين الثانى والثالث للهجرة ، على عهد الخلفاء المؤسسين من بنى العباس ، كالمهدى - والمنصور ، وهارون الرشيد ، وهو عهد مزدهر بالعلم والأدب والشعر .

ومادمنا لا نجد فى المصادر المتوافرة معلوماتٍ كافيةً عن شاعرنا ، فلنلتمس هذه المعلومات بقدر الإمكان من شعره ، ومن مناسبات هذا الشعر .

ممّا يدلنا عليه شعره ، أنه كان وثيقَ الصلة ببنى مصعب من الزبيريين ، أى بعبد الله بن مصعب ، وابنه البكار ، وهذان توليا إمارة المدينة المنورة على التتابع أيام هارون الرشيد ، وكان يمدحهم ، ونجد فى ذلك أكثرَ من نص ، من ذلك قصيدةٌ رائية طويلة ، يمدح فيها عبدَ الله بن مصعب (جمهرة نسب قريش ١ /١٣٥) ، وسيرد بعضها فى النصوص إن شاء الله تعالى ، فقد صرح صاحب الجمهرة أنها أكثر ممّا أورد ، وفيها يقول له :

لعمرك ما سُدَّتْ علىَّ مواردى
إليك ولا ضاقت علىَّ المصادرُ

مما يدل على أنه كان يتردد عليه . ويمتدحه . ويرتفق بأعطياته ، وذلك شأنه أيضًا مع ابنه أبي بكر أو البكار ، وقد وليا إمارة المدينة المنورة بالتعاقب . الوالدُ ثم الابن .

ونجده في غزله يلهج بذكر (ليلى) .. فلا ندرى أهو اسم محبوبته حقا ؟ أو أنه يتخذ من هذا الاسم رمزا ، ليكتم الاسم الحقيقى تجنبًا للتشهير به :

وأقنع من ليلى بأصقاب دارها
وأخدع فيها بالمنى وهى باطلُ

ويقول :

ألا طرقت ليلى لَقًى بين أرحل
شجاه الهوى والنأى فهو عميدُ

ويقول :

أحن إلى ليلى وقد شط وَلْيُها
كما حنّ محبوسٌ عن الألف نازع

ويقول :

ومانلت من ليلى وفاءً بعهدها
ومانلت منها العهدَ إلَّا تضرعا

ويقول وقد أبدع .

فقد جعلت دواوينُ الغوانى
سوى ديوانِ ليلى يمَّحينا

مكانته الشعرية :

لقد وصف (البكرى) فى شرح اللآلى شاعرنا بقوله : « شاعر مطبوع من شعراء الدولة العباسية »

وقد سبق أن أوردت نص ماقاله عنه (ابن الجراح) حيث وصفه بأنه (شاعر مجيد) وساق الرواية التالية :

« أخبرنى أحمد بن يحيى النحوى قال : أخبرنى عبد الله بن شبيب قال : حدثنى محمد بن إسماعيل قال : جئت عبد العزيز ابن عمران الرهوى يومًا ، فلما كنت عند خوخته سمعته يقول : علىّ أيمان البيعة إن لم يكن أشعرَ الناس . فدخلتُ عليه فقلت : من هذا ؟ قال : خارجةُ الملل . قلت : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول :

تخايلها طرفُ السمو لعاشق
هفا هفوةً ثم استفاق فأكذبا

ومن قوله :

فهمّ نياط القلب إذ نشرت به
بنات الهوى فى الصدر ، أن يتقضىا

ومن قوله :

ما تدلُّك الشمس إلّا حذوَ منكبه
فى غايةٍ تحتها الهامات والقُصُرُ

آل الزبير نجومٌ يستضاءُ بهم
إذا دجى الليل من ظلمائه زَهَروا

قومٌ إذا شوسموا جد الشماس بهم
ذاتَ العناد ،وإن ياسرتَهم يسروا

خُصَّ المديح أبا بكر ووالـده
وعُمَّهمْ منك إن غابوا وإن حضروا[1]

ومثل هذه الرواية ترد فى (مجالس ثعلب)
١/ ٢٣٥ قال : حدثنى عبد الله ابن شبيب
قال : جلس عبيد الله بن الحسن يومًا

وهو والى المدينة ومكة – للناس . فذكروا
الشعر والشعراء . فقال عبد الملك
ابن عبد العزيز بن الماجشون[2] فقيه أهل
المدينة : أشعرُ الناس خارجةُ بن فايح
المكى[3] ، حيث يقول فى مديح أبى بكر
بن عبدَ الله الزبيرى[4] .

كأنَّ على عرنينِه وجبينه
شعاعيْن لاحا من سِماك وفرقدِ

هو السابق التالى أباه كما تلا
أبوه أباه ، سيد وابن سيِّد

أهابك إجلالًا وأرحوك للتى
تلين بها للراغب المتردد

قال : فقال أبو عبدالله زبير[5] : كنت
وحسن بن عبيد الله – وأبوه إذ ذاك وال[6]
وابن الماجشون جلوسا ، فذكر الشعر

(١) يقصد الشاعر بأبى بكر البكار بن عبد الله بن مصعب ، ت ١٩٥ هـ ٨١١ م ، ووالده عبد الله ت ١٨٤ هـ ٨٠٠ م .
(٢) عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمى بالولاء ، أبو مروان بن الماجشون فقيه مالكى فصيح ت ٢١٢ هـ ٨٢٧ م (الأعلام) .
(٣) تصحيف صحته الملى .
(٤) سلفت ترجمته .
(٥) هو الزبير بن بكار ت ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م ، وقد أسلفت ترجمة أبيه .
(٦) أى عبيد الله بن الحسن ، سالف الذكر .

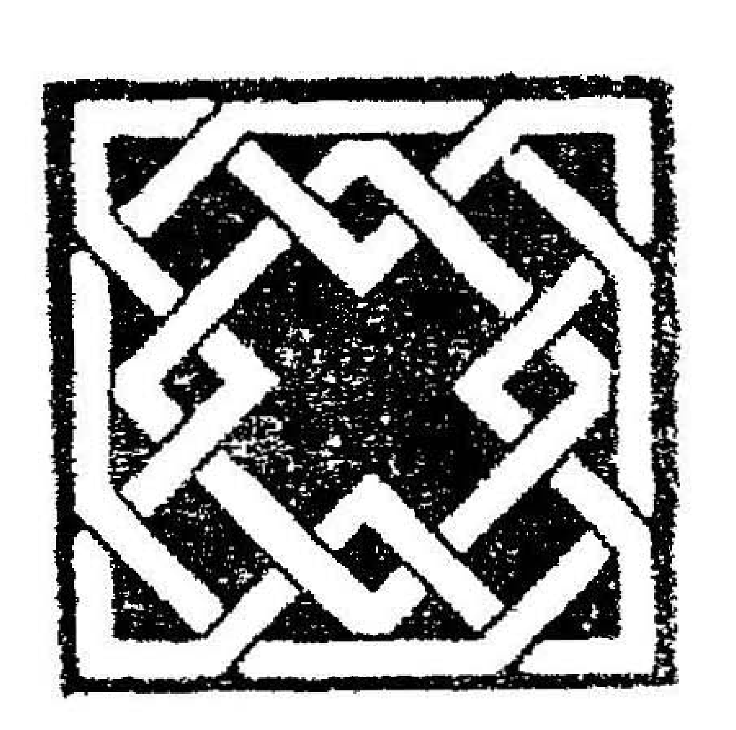
والشعراء ، فقال عبد الملك[1] : خارجة أشعر الناس فى مديح لأبى بكر هذا حين يقول :

ما تدلُك الشمس إلَّا حذوَ منكبه

... إلخ (الأبيات الأربعة السابقة)

ونخلص من هذه الأقوال والروايات أن خارجة شاعرٌ مُجيد مطبوع ، تستحوذ أشعاره على الإعجاب ، فهى فى بعض المواطن من الغزل أو المديح عند بعض متذوقى شعره ، تجعله عندهم أشعر الناس .

وهذا يدل على أنه كان يتمتع بمكانة شعرية عالية ، كما كان له شعر كثير كما حدثنا ابن الجراح . ومن العجيب أن لا نجد له ذكرًا موسعا ، وأن لا نعثر من شعره إلَّا على النزر القليل .



(١) أى ابن الماجشون .

الفصل الثانى

شعره

(البـاء)

— ١ —

قال :

تخايلهـا طرف السموّ لعاشـقٍ   هفـا نحوه ثم استفاق فأكذبا

النص : هذا البيت مفرد ، جاء فى كتاب (الورقة) لابن الجراح ٧٤ ، ساقه مع الخبر التالى :

(أخبرنى أحمد بن يحيى النحوى : قال : أخبرنى عبد الله بن شبيب قال : حدثنى محمد بن إسماعيل قال : جئت عبد العزيز بن عمران الزهرى يومًا ، فلمّا كنت عند خوخته سمعته يقول : علىّ أيمان البيعة إن لم يكن أشعرَ الناس ، فدخلت عليه فقلت : من هذا ؟ فقال : خارجة المللى . فقلت : حين يقول ماذا؟ ، قال حين يقول : وأورد البيت) .

— ٢ —

وقال :

فَهَمَّ نياطُ القلبِ إذ نشرت به   بنات الهوى فى لصدر أن يتقضبا

النص : هذا البيت مفرد فى (الورقة) لابن الجراح ٧٤

(النساء)

قال :

١ – ولقد قالت لأتراب لها كالمها يلعبن فى حجرتها :

٢ – خدن عنى الظل لا يفزعنى ومضت تسعى إلى قبتها

٣ – بنت عشر . لم تعانق رجلًا صُور البدر على صورتها

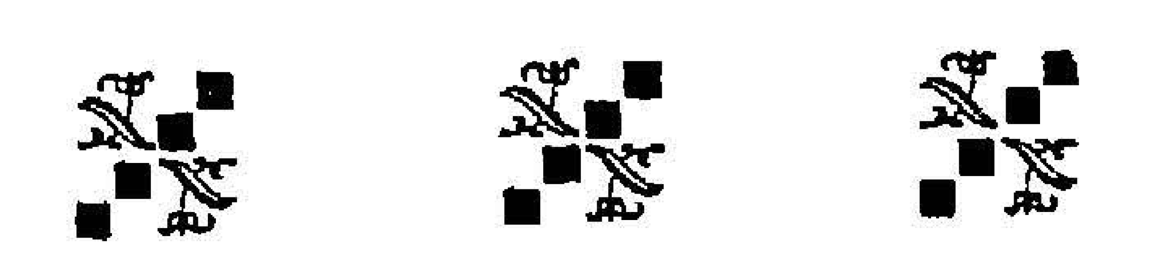
٤ – ولقد قبلت فاهًا قبلة كدت ألقى الله من لذتها

٥ – لم تعانق رجلًا فيما مضى طفلةٌ غيداءُ فى كلتها

٦ – لم يطش سهم لها قط ومن ترو لم ينج من رميتها

النص : فى (التعليقات والنوادر) لأبى على هارون بن زكريا الهجرى ، (عاش فى القرن الثالث الهجرى) القطعة ١١١٢ ، حققه (د . حمود عبد الأمير الحمادى) . نشر دار الرشيد بالعراق .

أما المؤلف فاكتفى بأن قال : (المللى) وعلق المحقق ، بأنه لم يهتد إليه لعدم الافصاح عنه ، ولكنه أضاف أنه يعتقد أن نسبته إلى ملل ، وهو موضع فى طريق مكة بين الحرمين . بينه وبين المدينة ليلتان ، وهو واد منحدر من ورقان (جبل لمزينة) حتى يصب فى الفرش : فرش سويقة ، ودل على المراصد ٣/ ١٣٠٩



(الدال)

– ١ –

١ – ألا طرقتنـــا والرِّفاق هجــود   فباتت بعــلات النوال تجودُ
٢ – ألا طرقت ليلى لَقًى بين أرحل   شحاه الهوى والنأْى فهو عميــدُ
٣ – فليت النوى لم تُسحق الخرق بيننا   وليت الخيــال المسترات يعودُ
٤ – إذًا لأَقاد النفس من فجعة الهوى   بليلى ، votre وروعات الفؤاد تقيد
٥ – كأَن الدموع الواكفاتِ بذكرها   إذا أسلمتهن الجفــونُ فريــدُ
٦ – إذا أدبرت بالشوف أعقاب ليلة   أتاك بها يوم أعزّ مَجيدُ (جديد)

النص : من كتاب الأَمالى للقالى ١/ ١٤ ، ومقدمته كالتالى :

« وأنشدنا أبو بكر قال : أنشدنا عبد الرحمن عن عمه قال : أنشدنا بعض أهل المدينة لخارجة بن فليح المللى » .

وهو فى كتاب (الأَشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمحضرمين) للخالدّيين ، تحقيق د. السيد محمد يوسف ٢ /١٨٧

– ٢ –

وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب :

١ – أرى البرق يدنو من يد مصعبية   إلينـــا ويذكو فى صبير منضَّدِ
٢ – يدٌ عوّدتنا أن يروح غمامها   علينـــا بنجو مستهل ويغتدى
٣ – بسَيْب أَبى بكر نفــاد بدولة   على سالف من عيشنا غير مُرغد

---

(١) هجود : نيام . علات . جمع علة : ما يتلهى به .
(٢) لقى : المطروح لهوانه . عميد · هدّه العشق .
(٣) تسحق : تبعد . المسترات : المستبطى .
(٤) أقاد : اقتص ، يقال : أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

٤ – وما زال مَوْليّ التحيـةِ بالنـدى	وما زال مشفوع السؤال بموعـد
٥ – إذا هُز هـزته عروقٌ كريمـة	يؤول إليهـا المجد من كل محتد
٦ – ترى سبل المعروف نحو سجاله	عوامرَ بالحادين من كل مورد
٧ – أغر زبيرى تمتـه جـدوده	بنو مالك فى بيت مجد مشيد
٨ – كأن على عرنينـه وجبينـه	شعاعين لاحا من سماك وفرقـد
٩ – له نسب بين الزبير وهـاشم	رفيع ، وصديقُ النبى محمد
١٠ – هو السابق التالى أباه كما تـلا	أبوه أباه ، سيِّد وابن سيد
١١ – أهابك إجـلالًا وأرجوك للمنى	تلين بهـا للرّاغب المتـودد
١٢ – له لحظـةٌ فيها لنا اليسر بالغنى	وأخرى رهـوقٌ للعـدو بمرصد
١٣ – لقد لاذ منه العائذون من الردى	بركن منيـع الساحتين مؤيَّد
١٤ – له عطَن رحب ، وحوض وفارط	يَعُلّ وفـودًا أولهت بتوقُّـد

النص : فى (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار ، القطعة ٣٠٧ ، ١/ ١٧٠ – ١٧٢ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ فى مجالس ثعلب ٢٣٥ ، وفى مخطـوط فى الأنساب لإسماعيل بن إبراهيم ابن محمد الكتانى البلبيسى (ملل) ، وهو برقم ٥٩٦ فى مكتبة رئيس الكتاب باستانبول و ٨ فى خزانة الأدب ١٠/ ٤٥٢

١ – الصبير : السحاب الأبيض الكثيف .

٢ – النجو : السحاب الذى به بريق المطر .

٧ – بنو مالك : يقصد به مالك بن نصر بن كنانة ؛ المقصود قريش .

١١ – المتودد .. جاءت فى (مجالس ثعلب) : المتردد .

١٤ – العطن : مبرك الإبل . والفارط : هو الذى يقدم الواردين إلى الماء ليعدلهم السقاء . ويعل : أى يسقيهم مرة بعد مرة .

(الراء)

١ - قال يمدح عبد الله بن مصعب :

١ - دعانا لعبـد الله والدهر باسط	علينا جناح البوس والجود عاثرُ
٢ - تواترُ أخبـار يردن بحمـده	علينا ، وللمعروف والنكر آثرُ
٣ - فإنى لمـا أوليتنى يا ابن مصعب	يدًا بعـد أيد منعمات لشاكر
٤ - وإنك والحى الذى أنت منهم	لكالبـدر حفَّته النجوم الزواهرُ
٥ - ويسمو بكم مجد الزبير وفخره	إذا عُدِّدت عنـد النفار المآثرُ
٦ - وتسطع منه غرة الفجر فيكم	فتغضى لها عنك العيون الشوازرُ
٧ - فإن يك قوم قوضوا عرش مجدهم	فقد رب مجدًا أولا منك آخـر
٨ - رأيتك تسمو للمكارم والعُلا	فلا زاهق عنها ولا أنت قاصرُ
٩ - وتعلُو بكَ الأيَّام للـذروة التى	لهـا كنف يأْوى إليه المعاشِرُ
١٠ - لكم منكباها حيث قر قرارها	وفرعك منهـا أيمنٌ متياسرُ
١١ - وجادت يداك المستهل نداهما	فأغنى وأقنى سـيبُك المتظاهرُ
١٢ - فلا مجـدَ إلَّا منكم فيه أولٌ	ولا مجـدَ إلَّا منكمُ فيه عابرُ
١٣ - ولا حرب إلَّا قد قرعتم كماتِهـا	عليها بكم كانت تدور الدوائرُ
١٤ - لعمرك ما سدت على مـواردى	لديك ولا ضـاقت على المصادرُ

النص : فى (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار - القطعة ٢٦٧ ج ١/١٣٥ ، ويذهب محققه الأُستاذ (محمود شاكر) أن من هذه القصيدة البيتين المذكورين بَعْدُ ، ينظر الهامش فى ص ١٢٢ من الكتاب المذكور .

١ - الزواهر : النيِّرات .

٦ - الشوازر : من الشزر ، وهو النظر بغضب بمؤخر العين .

١١ – أقنى : أرضى ، سيبك : عطاؤك .

٢ – ولبنى مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير يقول

١ – بنى مصعب أنتم خيـار خيارنا أكابركم والمُعقبـون الأَصاغرُ

٢ – بهاليل قوَّامون بالقسط بيننـا لكم خطب تهتز منهـا المنابر

النص : القطعة ٢٤٤ من ١ /١٢٢ من (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار ، تحقيق الأُستاذ (محمود شاكر) ، وذهب إلى أنهما من القصيدة الرائية السابقة . ويبدو الأَمر كذلك .

٢ – بهاليل : جمع بُهلُول . السيد الجامع لصفات الخير .

النص :

* فى (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار : القطعة ٣١٦ ج ١ / ١٦٩ – ١٧٠

ومعنى اعتام فى ٣ ، ٦ : اختار .

وفى ٥ : لعل الصحة (مرغوبة) لا (مرهوبة) .

وقال الأُستاذ (محمود شاكر) فى تعليقه على كلمة (مرهوبة) فى البيت الخامس : « كذا فى النسخة الأُم ، ولم أعرف له معنى ، وفى (نسخة) كوبرلى : (مربوبة الثدى) كأَنه من قولهم رب المكان إذا لزمه .. » ، وربما كان هذا هو الصواب .

* والأَبيات الأَربعة الأَخيرة فى (مجالس ثعلب) ٢٣٥ – ٢٣٦

و ١٣ فى (لسان العرب) فى موضعين دلك وقصر . وهو فيه غير منسوب .

* وهى أيضًا فى كتاب (الورقة) لابن الجراح .

١٣ – تدلك الشمس : تميل للغروب . القصر : جمع قَصرة : وهى أصل العنق .

٣ - وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب .

١ - بين البروج ، أبو بكر ووالده	حيث استوى فوق طرف الناظر القمرُ
٢ - فى منزل بين مضْحَى الشمس معتدل	ومخْفَق النجم ، يعشو دونه البصرُ
٣ - أنت الإمام الذى بالبر نعرفه	اعتامـه لدوام النعمة القـدرُ
٤ - يوماك : يوم تعم الناس رأفتُه	ويومُ حكم لدين الله منتصـرُ
٥ - كم من يدٍ لك لا تبلى صنيعتها	مرهوبة الشدى معلول بها البشرُ
٦ - تضحى لديك جنود الرأى عاكفة	يعتامها عكر مـن خلفها عكرُ
٧ - تسمو بك الأرض عُلْواً فى مناكبها	حيث انتحى بك من أقطارها قُطرُ
٨ - أكرم بأوَّلكم فى الناس من سلف	والآخرين إذا ما عدت الأُخَـرُ
٩ - إن يسبقوك - أبا بكر - بأُسِّهِمُ	تحت البناء فقد شيدتَ ما عمروا
١٠ - مرفه الشـأو سبَّاق على مهل	مستحصد الرأى لا كهل ولا غُمُرُ
١١ - مستعجم عن أذاة القوم منطقه	مستسمح القـول لاعى ولا هذر
١٢ - مدا الزبير له باعًا على شرف	مطهَّر البيتِ ، والقُطَّان قد طهروا
١٣ - ما تدلك الشمس إلَّا حذو منكبه	فى حومة تحتها الهامات والقَصَرُ
١٤ - آل الزبير نجوم يستنار بها	إذا دجا الليل من ظلمائه زهروا
١٥ - قوم إذا شومسوا ، لج الشماس بهم	ذات العناد ، وإن ياسرتهم يسروا
١٦ - خُصَّ المديح أبا بكر ووالده	وعُمَّهم منك إن غابوا وإن حضروا

٤ - وقال :

١ - لقد طعنت فى ربرب شابه الدمى	رقاق الثنايا واضحات المحاجر
٢ - ويسفرن للسارى إذا جن ليلها	سبيلَ المطايا بالوجوه السوافر

النص :

* البيتان فى (التذكرة السعدية) للعبيدى . تحقيق د . عبدالله الجبورى ص ٣٤٢ قطعة رقم ١٥١

وقد ساقهما المؤلف دون تعليق . أما المحقق فقال : (خارجة بن فليح المللى ، مولى أسلم حجارى ، شاعر مجيد ، كثير الشعر . وفى مجالس ثعلب : المكى ، ولعله الصواب . ثم دل على مواطن ترجمته وشعره . ولكنه لم يشر إلى الأغانى ، وجمهرة نسب قريش

٥ – وقال يمدح محمد بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر :

١ – ألا هل من البين المشتّ مجيرُ	وهل لليـالى السـالفات عكورُ
٢ – لقد صدعت بين القرينين بغتة	نوى ، يوم حرعاء الرياض هجور
٣ – فقى كبدى يا ليل من فجعة النوى	نوائب وجى بينهن فطـور
٤ – يميت المنى شوقى مرارًا وللهوى	... من أحـداقهن نشـور
٥ – غريب عـداوى يكاد فـؤاده	إلى أهل جلى البلاد يطـير
٦ – غريب له قلب يحنّ صبابة	وعين بأسراب الدموع دَرُورُ
٧ – وإنى لعين أسـعدتنى بدمعهـا	وقلب مراه شـوقه لشـكور
٨ – ولى روعة عند الإياب وزفـرة	لهـا تحت أحناء الضلوع سعير
٩ – خليلىّ ما لليل باتت نجومه	رواكد ما يَسْرِى بهـا فتغـور
١٠ – أظن الليالى زدن طولًا على امرئ	يطول عليه الليل وهو قصـير
١١ – سقى هضبات الفرش كل مجلجل	له نضدٌ – من مزنه – وصبير
١٢ – وعادَ بأرض الجعفريين رائح	هزيم ، ومنهلّ الغمـام بكور
١٣ – هناك بنو الطيار فى الغرف العلى	وجوه عليهـا نضـرة وسرور
١٤ – لهم غرر تحت الدجى جعفرية	لها تحت جلباب الظلام زهور

النص :

من كتاب (النوادر والتعليقات) لأبى على الهجرى وهذه القصيدة فى القسم الذى لا يزال مخطوطًا من الكتاب ، فى المخطوطة الهندية . وقد تفضل بإمدادى بها من مصورة المخطوطة أستاذنا الجليل الشيخ (حمد الجاسر) جزاه الله خيرًا . وقد تعسرت قراءة النص لوجود طمس كثير ، وقد وضعت فراغًا للكلمات التى تعذر إدراكها . وفى البيت رقم ٢٦ أرجح كلمة (عليها) فى الفراغ .

والنص من الصفحة ١٢١ من المخطوطة . وجاء فى مقدمته ·

« قال وأنشدنى أبو الحسن إبراهيم بن يوسف بن عيسى بن محمد بن جعفر ابن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر الحارجة بن فليح الملى . وهو مزنى ، فى محمد بن جعفر جده المذكور هاهنا : ... » .

١ – المشت : المُفَرّق . عكور : رجوع .

٣ – وجى · الوجى رقة القدم من كثرة المشى ، استعير هنا للكمد .

٥ – عداوىّ : نسبته إلى عداء مزينة ، قال معن بن أوس العداوى – عداء مزينة فى إبله :

وترمى بها العوجاء كل ثنية كأنّ بها بوًّا بنهبى تعاوله

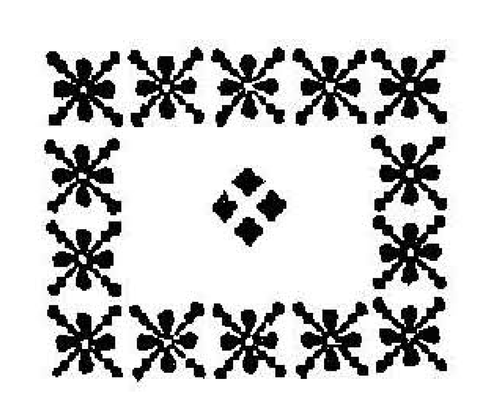
قال أبو على : كل ما فى العرب بنو عداء . فالنسبة إليه عدائى الأعداء مزينة فالنسبة إليه عداوى .

٧ – مراه : استدرّه .

١١ – النضد : ما تراكب من السحاب . الصبير : السحاب الأبيض الذى يصير بعضه فوق بعض درجات .

١٤ – زهور : نور .

١٥ – ثرى أرضهم من وقع أقدامهم بها	ومس الجباه الساجدات – طهور
١٦ – لهم نسب لو يسـتلان ...	ذرى الصخر ظلت صمهن تمـور
١٧ – دعوت لنكبات الزمان محمداً	وقد هيض عظم الجود فهو كسير
١٨ – فلبّى ، وأنشـا مزنة من نواله	لها عارض جمّ السجال مطـير
١٩ – له شـيم فيها أناة ونائـل	عتيـد ، وفيها للنكير نكير
٢٠ – تلاقت عـليه بالمكارم منهمُ	بطون نفتْ عنه القذى وظهور
٢١ – تلاقت عليـه أمهات حواضن	... . الكرام فخـور
٢٢ – يمانية الأنسـاب أو مضرية	تخيرها من سالفيه عشـير
٢٣ – كلكن بعقـد الخاطبين وإنما	دعاهن مجد ثاقب ومهـور
٢٤ – بعلياء تجرى الشمس دون فروعها	ويقصر عنها الطرف وهو حسير
٢٥ – بحيث استوى بدر السماء وبدرها	هناك لهم مجـد أشم فخـور
٢٦ – فتى علقت كفى بأسبابه التى	أغـار ... بالسماح مغـير
٢٧ – هناك له بين النبى وجعفر	وبين علي معقـل ومصـير
٢٨ – ورثت يمين الجود جود ابن جعفر	فأنت له فى الغابرين نظـير
٢٩ – وحرمت (لا) يا ابن النبي فلفظها	لباغى الندى عبءٌ عليك كبير



(العين)

— ١ —

١ – أحن إلى ليلى ، وقد شـطـ وليها كما حنّ محبوس عن الالف ، نَازِعُ

٢ – إذا خوفتنى النفس بالنأى تارة وبالصرم منهـا أكذبتها المطامعُ

٣ – أَكَلّ هواك الطرفَ من كل بهجة وصُمّت عن الدّاعى إليها المسامع

النص :

فى الأمالى ٢٢٣/١ ، وفى السمط ٥١٥/٥١٦ . أورد البيتين : الأول والثانى فقط ، وقال . الولى · القرب . وفى مجموعة المعانى : المؤلف مجهول . تحقيق عبد المعين – الملوحى : ٥٠٢ – ٥٠٣

وقال :

١ – ثنت طرفهـا نحو المطى صبابة إلىّ فكاد القلب أن يتصـدعا

٢ – أقامت فطابت تربة الخيف إذ ثوتْ به بعد تعريف المعرف .. أربعا

٣ – وطاب حجاب المروتين بنشرها ومتن الصفا الشرقى حتّى تضوعا

٤ – وما نلت من ليلى وفاء بعهدها وما نلت منها العهد إلّا تضرعا

النص :

من كتاب (الورقة) لابن الجراح ٧٥ قدّمه بقوله :

« ومن قول خارجة ، أنشد نيه بن أبى خيثمة عن مصعب والزبير بن بكار » . ثم أورد الأبيات .

(اللام)

١ – أشوقًا ولمّـــا يسلك البين مسلكا   فما أنت إن شقّت عصا البين فاعل

٢ – هنـــاك يحن القلب حَنّةَ والهٍ   ويستنّ مرفضٌ من الدمع هاطل

٣ – وإن عنّ لى بالليـــل ذكرك عـــّـة   هفوت وشاقتنى الرسوم المواحل

٤ – وأقنع من ليلى بأصحاب دارها   وأُخـــدع فيها بالمنى وهى باطل

النص :

فى الحماسة البصرية ١٩٠/٢ القطعة رقم ٢٥١ ، ولم يعلق المحقق بشىء . عنوان القطعة (وقال خارجة) ، ولم يذكر المؤلف من هو خارجة ، وصمت المعلق . ولكن جاء فى فهرس الشعراء بعد ذكر (خارجة) وبين قوسين (بن فليح المللى) .

٢ – يستنّ : ينصب . مرفض . مترشش .

(النون)

قال :

فقـــد جعلتْ دواوين الغوانى   ســـوى ديوان ليلى يمحينا

النص :

البيت مفرد فى كتاب (الورقة) لابن الجراح ٧٥

عبد العزيز احمد الرفاعى
عضو المجمع المراسل (من السعودية)

تراجم أدبية من مخطوط مجهول
(تاريخ عبد الحميد بك)

للدكتور أبو القاسم سعد الله

نحقق الآن كتاباً فى التراجم نظن أنه لم ينشر بعد . وقد اخترنا منه نماذج من الشخصيات التى عرفت فى مجال الأدب بالخصوص ، وإلى وقت الشروع فى كتابة هذه الدراسة كنا نعتقد أن مؤلف الكتاب يكاد يكون مجهولا أيضاً ، لأننا لم نعثر على سوى اسم (عبد الحميد بك) فى المخطوط، وطالما رجعنا إلى كتب التراجم لأهل القرن التاسع عشر (13 هـ) فلم نعثر له على ترجمـة ، ولولا بعض الإشارات فى غضون الكتاب عن والده ، وحياته هو الشخصية ودراسته ، لمـا استطعنا أن نعرف من هو .

وحتى عنوان الكتاب ما يزال مبتورًا ومجهولا عندنا ، إذ كل ما أفادنا به المصدر الذى رجعنا إليه هو أن عنوان الكتاب (تاريخ عبد الحميد بك) ، وكلمة (تاريخ) هذه لا تدل على أن الكتاب فى التراجم ، فقد يكون تاريخاً للدول أو البلدان والأمم ، وقد يكون تاريخاً شخصياً أو سيرة ذاتية ، ولكن المتمعن بعد ذلك فى محتوى الكتاب يدرك أنه مجموعة من التراجم أو قاموس أعلام .

وعندما جمعنا المادة لهذه الدراسة وأخذنا نتهيأ لتحريرها أطلعنا على كتاب أحمد تيمور (أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث[1]) ، فإذا فيه ترجمة قصيرة

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الأحد ٧ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

(1) ط أ ، القاهرة ، 1967 ، ص 204 – 205 . ولا ندرى من أين أضيفت كلمة (نافع) لإسم عبد الحميد ما دامت لم ترد فى المخطوط .

لمؤلف الكتاب الذى نحن بصدده . لم تبلغ الصفحتين . وإذا اسمه فيه (عبد الحميد نافع بك) ، وإذا عنوان كتابه هو (تاريخ أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثانى عشر) وبقدر ما أفادتنا هذه الترجمة بقدر ما زادتنا حيرة لأنها لم تؤرخ لعبد الحميد نافع ميلادًا ولا وفاةً . ولم تصف كتابه . ولعل السبب فى ذلك هو أن أحمد تيمور لم يطلع على الكتاب أصلا وإنما سمع عنه أنه بيع بعد وفاة صاحبه كما بيعت كتبه الأخرى .

هذه هى الإشارة الأولى التى أفادتنا وحيرتنا معاً . أما الإشارة الثانية فهى ما ذكره محمد عبد الغنى حسن فى ثنايا كتابه (أعلام من الشرق والغرب[1]) من أن عبد الحميد نافع قد جمع وطبع فى حياته مختصر ديوان صديقه محمود صفوت الساعاتى ، والغريب هو أن اسم الساعاتى لا يظهر أبدًا فى تاريخ (أو قاموس) عبد الحميد ، رغم أنه ترجم لمن اسمه (محمود) وتناول فى أعلامه الأصدقاء وغيرهم [2] .

ومهما يكن الأمر فإن دراستنا هذه تتناول التعريف بالمؤلف ، عبد الحميد ، والتعريف بمخطوطه ، ونماذج من الأدباء الذين ترجم لهم .

(أ) التعريف بالمؤلف :

ترجم عبد الحميد بك لأبيه ولم يترجم لنفسه وبناءً عليه فإن والده هو خليل بن مصطفى آغا بن حسن آغا (ويسميه ابنه الأمير خليل أفندى) ، وهو من مواليد قوالة حوالى سنة 1185 . وقد نشأ الوالد فى مسقط رأسه حيث تعلم المبادئ ثم أرسله والده (جد المؤلف) إلى اسطانبول حيث تعلم التركية والفارسية وبعض العلوم . وبعد رجوعه إلى قوالة اصطحبه محمد على (قبل ولايته على مصر) ولازمه

(1) دار الفكر العربى ، القاهرة ، 1949 ، ص 44 ، 55 .

(2) كما أنه لم يترجم لإبراهيم أفندى طاهر الذى ذكر تيمور أنه كان من الشعراء المجيدين وصديقاً حميماً لعبد الحميد ، عاش معه ولم يفرق بينهما إلا الموت ، وكذلك لا وجود لاسم نصر الحورينى فى قاموس عبد الحميد رغم أن تيمور يقول إنه كان (عبد الحميد) يعهد إليه بمقابلة كتبه وتصحيحها .

مدة وكانت بينهما مصاهرة ، ثم تقلب خليل فى عدة وظائف قبل الاستقرار بمصر منها الكتابة فى إحدى سفن الأسطول العثمانى ، وبعد ولاية محمد على على مصر لحقت به عشيرته وأصهاره ، ومنهم خليل والده مؤلفنا .

ويريد المؤلف أن يبرز ثلاثة أمور من حياة والده : أن نسبه من جهة الأم ينتهى إلى الإمام الحسين ، فهو من آل البيت والأمر الثانى أنه من عائلة موظفين سامين (آغوات) كانت تقطن قوالة ، والأمر الثالث أن والده قد أصبح فى مصر من كبار الأغنياء والملاك لأنه ترك عند وفاته سنة 1256 (1840) قصرًا ضخماً فى شبرا تحيط به البساتين والحدائق الواسعة ، كما ترك نحو ألف فدان من الأرض موزعة فى عدة جهات ، بالإضافة إلى أربعة بيوت كبيرة ومجموعة من الحوانيت . أما الوظائف التى تولاها خليل أفندى فكثيرة نذكر منها : ناظر سوق السمك فى الإسكندرية ، وناظر سوق الغلال فى رشيد ثم أصبح محافظاً على رشيد ، ثم ناظرًا على القلعة ، ثم على مصلحة المنسوجات التابعة للدولة ، ثم حاكماً على ولايتى الغربية والبحيرة ، ثم على ولاية بنى سويف ثم مديرًا لولاية الدقهلية ، ثم على ترسانة السفن ببولاق ، بالإضافة إلى نظارة الكسوة الشريفة ومصلحة ضرب العملة .

ولو ترجم عبدالحميد لنفسه أو وجدنا له ترجمة وافية ، لما أطلنا فى ترجمة والده كل هذا الطول وقد وجدنا فى المخطوط تعليقاً لمحمد عارف ، صهر عبد الحميد (زوج أخته) ، أن وفاة عبد الحميد كانت سنة 1280 (1863) . وجاء فى ترجمة مصطفى بيك الجميل المولود سنة 1247 (1831) قول عبد الحميد إنه كان « رفيقى وصاحبى فى الصغر » . وآخر تاريخ ذكره عبد الحميد فى المخطوط هو تاريخ وفاة مصطفى الكبابطى الجزائرى ، سنة 1278 (1861) أى قبل وفاة المؤلف بسنتين . ويذكر أحمد تيمور أن عبد الحميد « مات شاباً » ، ومعنى ذلك أنه قد ولد لأبيه بعد التحاقه بمصر ، ونقدر ذلك بحوالى سنة 1245 (1829) ، عندما كان الوالد يقوم بإحدى وظائفه

المذكورة . فهل كان الميلاد بالقاهرة ؟ ليس هناك ما يدل على ذلك الآن ، ولكن من الواضح أن عبد الحميد قد تنقّل مع والده فى بعض الأماكن التى تولى فيها تلك الوظائف .

وواضح أيضاً أن عبد الحميد نشأ فى نعمة وبذخ . وهو من تلك البيوتات الدخيلة على مصر عندئذ والتى ارتبطت بعائلة محمد على ، واستثرت على حساب الإنسان المصرى . ويظهر ذلك من مجموع التراجم التى اختارها عبد الحميد لكتابه ، فبعضها من أعيان هذه الفئة الطارئة والغنية والتى تمتعت بالوظائف السامية والامتيازات الكبيرة . ومن هذه التراجم ما يمت بصلة وثيقة إلى عائلة المولف من قريب أو بعيد مثل أحمد باشا يكن وحسن بيك منجى .

أشرنا إلى المصاهرة التى كانت بين محمد على ، والى مصر ، و (الأمير) خليل والد عبدالحميد . ومن الطبيعى أن يكون لهذا أيضاً أقارب وأصهار ، فأخته (منيرة) كانت متزوجة من محمد عارف (باشا) . وقد توفيت فى سنة وفاة أخيها (1280) وورث زوجها مكتبة عبد الحميد . كما أشار تيمور ، ولعله قد ورث منه أشياء أخرى أيضاً ، رغم تأففه الذى عبر عنه بقوله « يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى » . وفى ترجمة حسن بك منجى يقول عبد الحميد إنه ابن عمه الشقيق وأنه ورث منه ربع الميراث تعصيباً فى الأرض الواقعة ببنى سويف والأمتعة . وكثيراً مايذكر عبد الحميد أموراً عائلية تتعلق بأصهاره وأقاربه ولا ندرى إن كان قد ترك عقباً .

وكانت ثقافة المؤلف هى ثقافة هذه الفئة أيضاً . فهو قد درس التركية والفارسية والعربية ، ويظهر ذلك من إشادته بمن يعرف اللغتين التركية والفارسية وكان والده قد درسهما . أما العربية فقد تمكن منها ، ولكن ليس إلى الحد الذى يذكره له أحمد تيمور عندما قال إنه شغف بالأدب « حتى صارت له ملكة أدبية يعتد بها » . ذلك أن أسلوبه فى كتابه الذى نحققه لا يدل على ذلك . وتكون ملاحظة أحمد تيمور صحيحة إذا ما صنفنا

عبد الحميد فى « العجم » الذين درسوا العربية وتأدبوا بها وتذوقوا أساليبها رغم الخلفيات اللغوية والعائلية التى كانت معهم .

وهناك إشارات عديدة تدل على ثقافة عبد الحميد . فبالإضافة إلى اللغات المذكورة ، كان مولعاً بالأدب والموسيقى والميقات . ففى ترجمته لأحمد بن إسماعيل البقلى قال إنه قرأ عليه فن الميقات والحساب ، وإن له معه مراسلات أدبية ومناشدات شعرية وكان الشيخ البقلى يتردد على قصر عبد الحميد فى شبرا سنة 1273 (1856) وأنه كان عندئذ فى مجلس حافل وفى ترجمة قاسم ابن على التونسى قال إنه لما ورد المدينة المنورة « اقتبسنا من مشكاة أنوار علومه ، وانْتَزَهْنَا بحدائق رياض فهومه » . وذكر مرة أخرى فى ترجمة رحمين الإسرائيلى المتجول أنه شاهد علاجه منه بنفسه بالقاهرة وأنه رأى له شهادات معه أعطاها له « حكماء الأطراف » وهو يعنى بهم الأطباء وحين ترجم لعلى اللقانى قال عنه إنه أملاه نسبه أنه حسينى .

ومن جهة أخرى يذكر عبد الحميد أنه أخذ الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ مصطفى الكبابطى الجزائرى[1] عن محمد صالح الرِّضْوِى البُخَارى . كما أخذ حديث المصافحة عنه وعن محمد عاقل أفندى. وكلا الشيخين كان بالإسكندرية[2] . والملاحظ أن عبد الحميد قد أكثر من تراجم المتصوفين والدراويش أيضاً ، وكان يذكر كراماتهم وخوارقهم بعقيدة واضحة . وهذا كله يدل على أنه كان غارقاً فى تيار العصر أيضاً من البدع والدروشة والطرق الصوفية رغم أنه كان ، كما ذكرنا ، من أهل النعمة والجاه ، وكان منزله ، كما يقول تيمور ، موئلا للأُدباء والمناظرات وكان

---

(1) ترجمنا الحياة ونشاط المفتى مصطفى الكبابطى فى دراسة خاصة نشرت فى مجلة (عالم الفكر) الكويتية إبريل - مايو 1985 ، وهى مطبوعة ضمن كتابنا (أبحاث وآراء فى تاريخ الجزائر (، ج 2 ، الجزائر ، 1985 ص 11 - 48 . انظر أيضاً رثاء محمد عاقل للكبابطى فى كتابنا (تجارب فى الأدب والرحلة) ، الجزائر ، 1983 ، ص 17 - 47 وكذلك فى مجلة الثقافة (عدد 44 ، 1978) .

(2) لاحظ أن عبد الحميد كثيرا ما ذكر الاسكندرية ونسب إليها الأعيان والأدباء، فهل أقام بها أكثر من القاهرة أو كان يتردد عليها بكثرة ؟

مولعاً باقتناء الكتب والمغالاة بها حتى جاءه الوراقون من كل فج . ويذكر تيمور أيضاً أن عبد الحميد قد حذق الموسيقى واشتغل بها وأتقن العرف على القانون ، وألف رسالة فى الموسيقى . ومما يشهد على ذلك أن عبد الحميد كان يشير فى بعض تراجمه إلى من أتقن الموسيقى علماً وعملا . كما يقول . وألف فيها الرسائل . وقد ترك عبد الحميد عدة مؤلفات :

1 - تاريخه الذى نحن بصدده .

2 - رسالة فى الموسيقى [1] .

3 - مختصر ديوان الساعاتى [2] ويهمنا من هذه الأعمال الأول .

(ب) المخطوط :

ليس هناك عنوان ثابت لهذا العمل ، فهو كما قلنا قاموس أعلام أو مجموع تراجم . والمؤلف نفسه هو الذى استعمل كلمة (تاريخ) لعمله ، كما سنرى . ولعل هذا هو الذى جعله مفهرسى الكتاب يطلقون عليه اسم (تاريخ عبد الحميد بك) اختصاراً أما محمد عارف ، صهر المؤلف فقد أطلق عليه اسم (المجموع) عندما ذكر فى تعليق له أن « عبد الحميد بك جامع هذا المجموع انتقل إلى دار الرحمة سنة 1280 . » ولا ندرى من أين أخذ أحمد تيمور العنوان (تاريخ أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثانى عشر)

والظاهر أن عبدالحميد قد ألف كتابين أوكتاباً واحداً فى جزئين تناول أحدهما تراجم أعيان القرن الثانى عشر والآخر أعيان القرن الثالث عشر ونحن نفهم ذلك من العبارة التالية التى وردت فى ترجمته لمحمد أمين الزللى ، حيث قال : « ونقلت منه (أى من الزللى) جملة من تراجم أعيان القرن الثانى عشر فى تاريخى الذى رتبته فيه ، والثالث عشر هذا - أسأل الله إتمامه » . فمن الواضح أن عبد الحميد ألف « تاريخا » فى أعيان القرن الثانى عشر واستفاد من عمل الزللى فيه ، ويوحى كلامه أنه رتبه وانتهى منه . وأما عمله

---

(١) أشار إلى ذلك تيمور ، ص 205 .

(٢) ط . على الحجر سنة 1860 فى 90 صفحة .

الخاص بأعيان القرن الثالث عشر فما يزال لم يتمه عندئذ ، كما يوحى كلامه أيضاً ولم يرتبه .

ويزداد الأمر وضوحاً عندما نعرف أن الجزء الذى بين أيدينا إنما هـو الخاص بأعيان الثالث عشر ، وهـو غير مرتب وغير تام فعلا . فهو غير مرتب لأن التراجم متداخلة ويقع فى عدة صفحات غير مرتبة من الكتاب ، مثلا ترجمة خليل الغزلات تقع على الصفحات التالية : 7 ، 64 ، 68 ، وترجمة على الصيرفى تقع على صفحات 18 ، 34 ، 72 ، 73 . وهكذا . ولذلك كان علينا إن نجمع للترجمة الواحدة ما تفرق عنها فى مختلف صفحات الكتاب . وقد قلنا أن العمل غير كامل أيضاً لأن الموت قد أدرك عبد الحميد وهو منهمك فى عمله ، فهناك أولا بياضات متروكة لبعض التراجم قصد تسويدها متى توفرت المعلومات ، وهناك ثانياً حروف عديدة لم يترجم فيها لأى شخص . والحروف الموجودة هى : الألف والباء ، والحاء ، والخاء ، والدال ، والذال ، والراء ، والسين ، والشين ، والطاء ، والعين ، والقاف ، والميم ، والباء وكثير من هذه الحروف لايتضمن سوى ترجمة واحدة أو اثنتين . مثل الباء ، والدال والذال ، والطاء ، والقاف إلخ . وقد ذكرنا أن آخر تاريخ مذكور فى التراجم هو تاريخ وفاة الكبابطى الجزائرى سنة 1278 فهل أصيب عبد الحميد بمرض عاقه عن مواصلة عمله إلى أن مات به سنة 1280 ؟

ومهما كان الأمر فإن عبد الحميد قد جمع مادة كتابه من عدة مصادر ، من ذلك ما استقاه من معاصريه وزملائه وشيوخه . ذلك أن معظم الذين ترجم لهم كانوا معاصرين له (أهل القرن الثالث عشر) وفى عدد من الأماكن يتحدث عن المترجم له كشاهد عيان ، وأحياناً كراوٍ عن غيره من المعاصرين . فإذا عرفنا أنه أن قد تنقل فى حياة والده إلى مناطق عديدة من مصر ، تبعاً لوظائف والده ، فإننا ندرك أنه جمع المعلومات عن تراجمه من هذه الاتصالات الشخصية والروايات الشفوية وقد لاحظنا أنه كان يقيم المجالس الحافلة فى قصر والده بشبرا فإذا هو يستقبل فيه الأدباء والأعيان . وقد ترجم لعدد من

وقد ضم الكتاب عددا من أهل مصر والواردين عليها ، من الجزائر وتونس ، والحجاز والشام ونحوهم ، وفيهم الأتراك والإيرانيون والهنود وأضرابهم . كما أن فيه من لم يخرج ربما من بلاده مثل حاكم تونس وحاكم المغرب الأقصى . فالكتاب إذن ليس خاصًا بتراجم المصريين ولا بتراجم المشرقيين ، بل شمل مجموعة من أعيان العالم الإسلامي مشرقه ومغربه . وقد أحصيت عدد التراجم المغاربية فيه فوجدت تسعة من المغرب الأقصى وسبعة من الجزائر وستة من تونس .

(ج) بعض التراجم :

والتراجم التي سنذكرها اخترناها لصلتها بالأدب ، لأن الكتاب يضم كما ذكرنا أعيانًا من أهل الدين والسياسة والحكم والتصوف . وسيكون عملنا هنا هو — تلخيص ما أورده عبد الحميد عن كل ترجمة محتفظين أحيانًا ببعض العبارات المفتاحية فى وصفه أو حكمه على شخصية المترجم ، ومن ثمة فنحن لم نرجع إلى مصادر أخرى لتوثيق معلومات المؤلف عن كل شخصية . وقد كنا رجعنا إلى بعض التراجم فى دراسات مستقلة مثل ترجمة الكبابطى وترجمة محمد بن محمود ابن العنابي[1] . وكنا نود ذكر ترجمة محمد عقل لعلاقته بالمؤلف وبالأدب ولكننا لم نجدها ضمن الكتاب رغم أن عبد الحميد ذكر أنه ترجم لصاحبه فى حرفى (م — ح) .

١ — احمد راشد المصرى :

ولد بالقاهرة سنة 1215 (1800) وأخذ العلم بالأزهر . وعمل بدواوين القاهرة بوظيفة كاتب ، وفى سنة 1544 (1828) حل بالإسكندرية وتوظف بدواوينها أيضًا وكان أثناء ذلك يشتغل بتحصيل العلوم

---

(1) أصدرنا عن ابن العنابي كتاباً سنة 1978 . واستفدنا من ترجمة عبد الحميد له فى ط . 2 المعدة للنشر وقد نشرنا ذلك فى مجلة (حوليات جامعة الجزائر (1988) . وكان ابن العنابي من أبرز علماء الجزائر عند احتلالها من قبل الفرنسيين . وقد حكموا عليه بالنفى فاستقر بمصر وتولى الفتوى بالاسكندرية وله تآليف منها (السعى المحمود فى نظام الجنود) ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، الجزائر ، 1983 . وقد توفى ابن العنابي بالاسكندرية سنة 1850 .

الرياضية وغيرها ، وأخذ يدرس ما مهر فيه من هذه العلوم لبعض أخصائه . كما تولى خليفة الطريقة الخلوتية .

تعلم علم الموسيقى علمًا وعملًا على الشيخ على الصيرفى الصغير (الابن) ، وبرع فى آلة القانون البسيط علمًا وعملًا أيضًا ، « وألف فيها رسائل عدة » . ثم درس اللغتين التركيه والفارسية . وأتقن الأخيرة حتى صار يتكلم بها كأهلها[1] . (وقد ذكرنا هده الترجمة هنا لصلتها بالموسيقى لأن عبد الحميد ولع بها أيضًا وألف فيها) ولم يذكر وفاته .

٢ – احمد المسيرى :

أحمد بن على بن موسى المسيرى ، نسبة إلى بلدة بولاية البحيرة « الأديب الشاعر والأريب الناثر » . ولد ببيروت سنة 1225 (1810) كان والده قد رحل إلى بيروت عندما احتل الإنجليز مدينة الإسكندرية سنة 1222 (1807) . أمه بنت خليل والد الشيخ خليل الغزلات ـ قاضى الإسكندرية عندئذ[٢] .

نشأ أحمد المسيرى فى بيروت وحفظ بها بعض القرآن ، واستكماه فى طرابلس الشام عندما انتقل إليها والده سنة 1233 (1817) وظل يتنقل مع والده بينها وبين بيروت إلى أن توفى والده سنة 1239 (1823) فذهب إليه خاله الغزلات وجاء به إلى الإسكندرية مع عائلته . وينقل عبد الحميد عن محمد عاقل أن أحمد المسيرى اعتكف بعد وصوله إلى الإسكندرية « على التحصيل والتلقين ، وبذل الجهد فى الفنون والتفنين ، إلى أن بلغ مناه ، وكاد أن يكاتف فى العلم أباه » . وأخذ العلم على خاله المذكور ، ومحمد بن سليمان العلاف ، وحسين الإدكاوى .

ثم دارت به أيدى الزمن وسافر إلى القاهرة واحتمى بالمفتى محمد أمين المهدى ومكث عنده مدة ، ودرس بالأزهر على

---

(1) ص 41 –66 من المخطوط .

(2) أطال عبد الحميد فى ترجمة الغزلات . وكانت بين بعض علماء تونس والغزلات مراسلات وأشعار انظر شعر محمد بن سلامة التونسى فى حليل الغزلات فى كناش رقم 16511 المكتبة الوطنية – تونس . وفى هذا الكناش بعض أخبار محمد بن سلامة عندما ختم كتاب (الشفاء) للقاضى عياض .

حسن القويسى ، ومحمد الأمير الصغير ، ومصطفى البولاقى وأجازوه ، وصار « فى العلوم خزانة . وفى الأدب ريحانة » واختص بالشعر والحطابة ، وملك أعنة النثر والكتابة ، واشتغل مصححًا للكتب فى المطبعة البولاقية .

ثم دارت به الأيام مرة أخرى . فخرج إلى الصعيد ، وانضم إلى العسكر فسير إلى الحجاز ، « يتاظى حرق الجوى ، ويتأوه من النوى » ، ثم رجع إلى مصر وتوظف فى الدواوين ، ولكنه سرعان ما ترك الوظيفة « واشتغل بالعلم والآداب والمسامرة ». وكان سريع الفهم ، حاضر البديهة « طالما نظم المائة بيت محاضرة بلا محابرة » . ولذلك ضاع أكثر شعره ، وقد جمع حبران المخلع بعض أقواله من أوراق ممزقة فى (مجموع) جاء نحو عشرين كراسة .

وقد اشتهر المسيرى بالخلاعة والفكاهة بين الناس وابتلى بداء الإفرنجى (؟) فكان يشرب الخمر ثم أقلع عنها ، « واختلى بنفسه ، وتخلى عن مجالس أنسه » ، ثم رجع إليه المرض وحكم الطبيب بأن لا نجاة له من الموت إلّا بالشرب . ولكنه « اختار الموت مع التوبة على الحياة ، والأوبة » وقد مات فى الإسكندرية — عام 1268 (1851) عن 43 سنة وقد توسع عبد الحميد فى أخبار المسيرى كما رواها له محمد عاقل . سيما أخبار المسيرى فى الحجاز مع حاكمه أمين باشا وعلاقته السيئة بأهل عسير واستنجاده بالمسيرى ليعمل له زايرجة فى ذلك . وروايات خاله الغزلات عنه .

ثم أضاف عبد الحميد معلومات أخرى عن المسيرى حول أدبه بالذات فقال إنه كان « من نوادر الدهر » علمًا وأدبًا ، وأن عددًا من الأدباء انتفعوا به ، وجاء بجملة « من غرر نظمه ونثره » فأورد قطعة فى مدح بطرس كرامة التزم لفظة (الخال) على اختلاف معانيها :

لبطرس إبراهيم آل كرامة
رسائل مدح فى طلائعها الخال
فتى العلم والأفضال والمجد والعلا
على أنه من أصل عنصره الحال
له من رقيق النظم كل محرر
على تاجه بين الورى عقد الخال

وروى له قطعة أخرى التزم فيها لفظة (سلامه) :

سلا القلب عن ظبي لا يبيح سلامه
فقال لعزول قال عني سلامه
لئن كنت راودت السلو فلا وفت
حشاشة قلبي في هواه سلامه

٣ – على الصيرفي :

على الصيرفي بن أحمد الرشيدى ، من الأشراف . ولد برشيد سنة 1170 (1756) ونشأ بها ، ثم توجه إلى الأزهر ، وتخرج منه في المعقول والرياضيات . ورجع إلى رشيد بعد المائتين للإقامة والتدريس . وقد اشتهر شهرة واسعة بالعلم والغنى والجاه لدى الحكام .

قال الصيرفي الشعر ومارس الإنشاء ، وتعاطى العلوم الرياضية ، واشتهر في ذلك حتى في الشام . ولما سمع به أحمد الجزار استقدمه إلى عكا ، سنة 1220 (1805) واستفاد منه الميقات والرمل ، والحروف ، وأقام لديه خمس عشرة سنة . ثم رجع إلى رشيد وتولى بها نقابة الأشراف وقد ظل بها يدرس ويفيد إلى وفاته سنة 1238 (1822) .

ولعلى الصيرفي ديوان شعر أخذه مفتي اسطانبول عارف حكمت ، أثناء مروره بمصر للحج ، أخذه من ابنه محمد الصيرفي « وله الشعر الدقيق والإنشاء الرقيق » . يتناقل الناس شعره ، وقد شطر البردة وسمى التشطير (المواكب البدرية في الكواكب الدرية) . ومن شعره :

ألقى يديه على صدرى فقلت له
أبرأت منى مكانًا أنت موجعه

وله في الغزل :

غزال جعلت الروح رهن وصاله
فلا الوصل أعطانى ولا رد لى رهنى
غدا مالكى لكن نعمان خده
قضى في دمى سفكًا ولا شافعى يغنى
يظن بأنى في الهوى غير ثابت
فيقطع في قلبى ويحكم بالظن

ومن تشطيره للبردة :

أمن تذكر جيران بذى سلم
أطلت سهدك في حزن وفى ألم
أمن تباعد أحباب وفرقتهم
مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

فهيجت نار وجد زائد الضرم

وله قصيدة طويلة طرز فى أوائل أبياتها

اسم (الشيخ عبد الرحمن إبراهيم

الخضرى) ، ومنها قوله :

لا زلت أخفى الهوى والدمع يظهره

وهل رأيت كئيبًا قط يخفيه

شأنى عجيب فجمر الشوق متقد

على الدوام وماء دمعى يطفيه

* * *

هذا الكتاب الذى يتلى فيعجز من

يأتى بمثل له أو من يضاهيه

يا كاسى الحظ حظًا أنت لابسه

وكل فضل بفضل أنت كاسيه

مالى جواب سوى عجزى ومعذرتى

إليك فاقبل فعجز العبد كافيه

ألفاظه سحرت إعقالا لقارئه

ما روت من سحر هذا لا يماريه

وللصبير فى ابنان : على ومحمد . والأول شاعر أيضا . غير أن شهرة أبيه طغت عليه حتى إن شعره ينسب إلى أبيه أحيانًا .

4 — **محمد امين الزللى :**

محمد أمين بن حبيب بن أبى بكر بن خضر الزللى ، المشتهر بأمين أفندى الزللى . ولد بالمدينة المنورة ونشأ بها وأخذ بها العلم عن الواردين عليها من علماء الأطراف . وتكون هناك فى المعقول والمنقول والرياضيات « وغلب عليه الأدب فنظم ونثر وتفرد فيهما » .

طاف الزللى العراق والشام ومصر والروم واشتهر هناك . وله مراسلات ومحاورات مع أدباء الآفاق . وقد جمع حولهم كتابًا سماه (المجموع الأدبى) لم يخرجه من مودته . وله كتاب آخر فى تراجم المتقدمين ، والمتأخرين من العلماء والأدباء والأعيان ، مات قبل أن يرتبه « نقلت منه جملة من تراجم أعيان القرن الثانى عشر فى تاريخى الذى رتبته فيه ، والثالث عشر هذا » .

وجاء الزللى إلى مصر مرارًا . واجتمع بأعيانها وعلمائها ، وحصلت بينه وبين

الأديبين أمين أفندي الجندي الحمصي وبطرس كرامة محاورات أدبية وآخر وروده على مصر متشكيا (ترك المؤلف هنا فراغا أكثر من نصف صفحة)

جاء ذكر الزللي في (حديقة الأفراح) لأحمد اليمني الشرواني إذ قال عنه . صاحبنا الذي اجتمعت به عام 1222 (1807) في جدة وقد أشاد به . وذكر له قصيدة طويلة في الغزل مطلعها :

لاح الصباح براية بيضاء
وسطا فمزق عسكر الظلماء
والروضة الغناء قام هزارها
يشدو فأشجانا بطيب غناء

وله من قصيدة أرسل بها إلى أحمد اليمني الشرواني :

حزت المحاسن جمعا والمعادن في
الآداب فردا فما أبقيت للشعرا
ما شام مثلك في بدو وفي حضر
من طاف طول الزمان البدو والحضرا
دعواى فيك عليها حجة ظهرت
من نظمك العذب يا من نظم الدررا
شرفتني ببيان دون صنعته
نظم البديع ومعنى يخجل الزهرا
وإني لو نظمت الزهر في كلمي
ما كنت مثلك بالإتقان مشتهرا

وتمتد ترجمة الزللي من صفحة 126 إلى 131 . وفيها قطع وقصائد معظمها في الغزل

5 ـ محمد كاشف البخاري :

محمد بن محمد عبد الودود بن محمد عبد الغفور بن محمد فاروق . أخبر المؤلف أنه بلغه أن فاروق هذا قد أوصى بتسمية عقبه إلى ما شاء الله بمحمد . فوصل العقب إلى محمد عاقل (صديق المؤلف) وهو الرابع من عقبه بهذه التسمية .

ولد محمد كاشف (المشتهر بكاشف أفندي) في خوجند من أعمال القوقاز سنة 1192 (1778) ، قرأ هناك القرآن ثم أرسله والده إلى بخارى كعادة أهل تلك الناحية مع أولادهم . وقد أخذ العلم على ميرزا عبد الغفار ، والطريقة النقشبندية على ميرزا رجب بابا إيشان المتوفى بمصر سنة 1232 (1816) .

وبقي محمد كاشف في بخارى إلى وفاة والده سنة 1220 (1805) ، ثم اختلف

مع عمه حول تركة والده فحج عن طريق مصر سنة 1221 ، وبعد الحج رجع إلى مصر ، والتقى فيها بالشيخ عبد الحكيم ترابى بابا (وهو الشيخ الذى أقرأ أيضًا والد المؤلف) ، وكان شيخًا على تكايا البخاريين بوقف البسطامى ، فتنازل له عن مشيخة التكايا . فتولاها واشتغل (محمد كاشف) بالمطالعة . وفى سنة 1229 (1813) اختاره محمد لاظاعلى - خوجة له . ليعلمه الفارسية إلى سنة 1232 (1816) . ثم عينه الوالى محمد على رئيساً على خوجات علمانه فى إسنا إلى 1239 (1821) . وبعد سنة واحدة رزق بابنه محمد عاقل .

وعين محمد كاشف مصححًا للكتب الفارسية والتركية بمطبعة بولاق إلى - سنة 1241 (1825) . وفى هذه السنة أرسله محمد على إلى إيران ليتجسس له على أحوال دولتها هناك بإشارة من الباب العالى ، فتوجه محمد كاشف إلى إيران مارا بسورية . وبعد سنة رجع إلى مصر ، وعينه الوالى محمد على على مدرسة قصر العينى وغيرها من المناصب إلى أن وصل إلى نظارة المدرسة البحرية بالإسكندرية . وقد توفى سنة 1268 (1851) عن 68 سنة . وترك بالإسكندرية أملاكًا وعقارًا .

كان محمد كاشف شاعرًا ماهرًا بالفارسية والتركية والعربية . كما حذق الإنشاء . ومن شعره :

دع كثرة الفكر فى أمر تهم به
وخل سبيل القضا يجرى على قدر
ونم خليا من الأفكار منشرحًا
فكثرة الفكر تبدى شدة الخطر

ومن إنشائه تقريظ لترجمة (كلستان) لسعدى[1] . التى قام بها جبران المحلع من الفارسية إلى العربية . ومن ذلك قوله : « أزهار حمد تزهو فى رياض الجنان على مدى الأزمان ، وثمار شكر يقتطفها بنان البيان والأركان ، وجداول ثناء متسلسلة لاينقطع مددها من ينابيع - الأذهان ...

أما بعد ، فإن كتاب كلستان روضة منتقاة من شوك الشوائب وورده ، مدبجة

(1) من الذين قرظوا هذه الترجمة أيضاً محمد ابن العنابى الجزائرى ، كما ذكر عبدالحميد فى ترجمته له.

بألوان اللطائف خدودها .. جمعت بين أخلاق الفقراء وسير الملوك . وأبدعت شمائل البلاغة . بما أودعت من أصائل البراعة ... إلخ » . وهو تقريظ طويل كتبه سنة 1259 (1843) .

وقد علق المؤلف (عبد الحميد) على ذلك بقوله : إن المقرظ كان يقدح فى المترجم بعبارات أوردها ، فيها تعريض ، ولكنه مع ذلك عذره فى قدحه ، لأن الفرع فى نظر عبد الحميد ، لا يمكن أن يرق إلى الأصل ؛ وقال : إن من اطلع على الفرع والأصل (النص الفارسي والترجمة العربية) يظهر له « التضاد بينهما » . ومن هذا التعليق ربما يظهر الدارس أن عبد الحميد كان يتقن الفارسية ، كما أشرنا .

6 ـ محمد نـوار الاسكندرى :

محمود بن عبد الله نوار ، أصله من الحجاز ، ولد بالإسكندرية سنة 1248 (1832) . ونشأ بها وحفظ القرآن ، ودرس العلوم العقلية والنقلية على والده وعلى المعاصرين له من العلماء بالإسكندرية وكذلك بالأزهر حيث كان والده محاورًا به ، فكان من مشائخ محمود الشيخ حسن العطار ، وإبراهيم الرياحى التونى أثناء مروره للحج وفى سنة 1264 (1847) حج مع والده ، ورجع إلى الإسكندرية فأقام فيها واشتهر بالشعر ، وجرت بينه وبين أدبائها محاورات . ولكن المنية وافته فى ريعان شبابه سنة 1274 (1857) عن 25 سنة وتسعة أشهر ، فكان ذلك نكبة كبرى على والده .

ويخبر عنه عبد الحميد أنه كان «حاذقا ذكيًّا متكلمًا » . ولم يذكر له وظيفة تولاها ، وجاء له بشعر غزير . فمنه فى مدح أحمد بك صادق :

دم فى زمانك أنت وحدك صادق
حامى الدثار ودون مجدك طارق

وكتب إلى أبيه أثناء غيبه عنه رسالة صدرها ببيتين :

ولو لم يكن عندى بقايا تجلّدِ
لجبت إليكم فدفدًا بعد فدفد
وسابقت أفراس الرياح بهمّتى
وحدثت نفسى أن أمد لكم يدى

وبعث إليه برسالة أخرى وصدرها أيضًا ببيتين ،ولكن نثر الرسالتين غير مذكور

وله قصيدة طويلة فى العتاب بعث بها إلى الشيخ حسن اللقانى :

أعيدى على الكأس مشمولة خمرا
فألحاظك الوسنى تعلمنى السكرا

وجاء فيها قوله :

سلوا من قوام البان جرح فؤادهم
مقدمة كبرى اذا سلموا الصغرى

كما يجرح المولى بمبضع ضده
شرايين ودى ثم لايحسن الجبرا

بروحى من يعفو ويهزم تارة
على مثله يجنى ويحتسب الأسرا

كبير أناس يستخف بأنفس
لتكبر لكن نفسها تكره الكبرا

وما شأن مثلى موسر من جفائه
سوى أنه لله يجتنب العسرا

وله قصيدة أخرى أرسلها إلى نفس الشيخ جاء فيها :

إذا جن ليل العاشقين فأقبلى
إلى مستهام عند دار ابن مقبل

تواضعت أحيانًا فلم يجد نفعه
ورحت بأعباء الصبابة مبتلى

وعربدت أيامًا فضل بى الهوى
وأدت بأعجاز وعدت بكلكل

* * *

همام له مجـد يلوح وهمة
تفوح بنشر من شذا طيب همدل

وفهامة صاغ القريض بفطنـة
وعلامة يزهو على خير أمثل

وتُعْزَى له ذات العـلوم وتنتهى
ويعنو له المعلوم فى أى محفل

لعمرك إنى ما كذبت وإنمـا
ذكرت لكم قدرًا ولم أتوغل

إليه انتهى فى الشعر كل بديعة
تروق وتجلو ضغن أزمة معول

فخـذها مسجاة بأحسن حلة
فأنت لها كفء تكر بمغزل

وشد عليها بالنبـال وقل لها
إذا جن ليل العاشقين فأقبلى

٧ ــ مصطفى ابو الفضل :

ينتهى نسبه إلى السادة الوفائية . ولد بالهواتر بولاية الدقهلية سنة 1228 (1813) وجاء إلى الإسكندرية مراهقًا . وهناك كفله على بك جنينة ، قاضى الإسكندرية ورباه وأقرأه القرآن وعلمه الكتابة ثم ألحق

بكتبة المحكمة إلى أن صار هو رئيسهم . وأكثر من مخالطة شعراء الإسكندرية حتى أصبح من أبرز الشعراء .

وانهمك فى الملذات والخلاعة مع صديقه أحمد المسيرى حتى بدد ما عنده من أملاك ومقتنيات .. وخاف افتضاح أمره بين الناس فسافر إلى القاهرة . واشتد به الفقر فأشفق عليه بعض إخوانه هناك . ففتح له دكانًا يبيع فيه الأقمشة . ثم تعرف على بعض الأعيان فعينه قاضيًا فى مدينة رشيد . فتحسنت حالته المادية . ولكنه عزل من القضاء سنة 1270 (1853) فرجع إلى الإسكندرية وإلى ملاذه وخلاعته فيها إلى أن ضاع منه كل ما جمعه أثناء ولايته القضاء . ولما ضاق به الحال افتتح دكانًا يرتزق منه بالنساخة . وقد قال عنه :

يسائلنى عن حالتى من بعد ما
قد كنت من أهل الفتوة والهمم

من حال عن منزو بمكانة
يستحلب الأرزاق من شق القلم

وفى سنة 1271 توفى بالسل أثناء رجوعه من مولد السيد البدوى . عن 43 سنة .

كان « أديبًا . شاعرًا منشئًا . وكان فى أوقات فاقته واحتياجه حريصًا على اقتناء كتب الآداب وممارسة الظرفاء والأدباء » . وقد وجد عنده بعد وفاته ما يزيد عن 160 مجلدًا فى الأدب . وله شعر فى مدح آل البيت ، وفى التوسل بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وفى التحسر على ما فات . وفى الغزل والوصف وقد قال فى التحسر :

العين قرحى ونار القلب تتقد
والوجد قام ولا صبر ولا جلد

يا ليت شعرى وهل للوصل من أمل
وهل تعـود ليال عيشها رغد

تلك الليالى التى ما كان أجملها
مرت كأضغاث حلم ليتها تعـد

وقال فى الربيع :

إذا اخضر روض فيا حبذا
ثغور أقاحيه تبدى ابتسام

يلذ لقلب الشجى عندها
سماع الأغانى وشرب المـدام

ويا حبـذا الوقت من سـاعة
جميع محاسنه فى انتظام

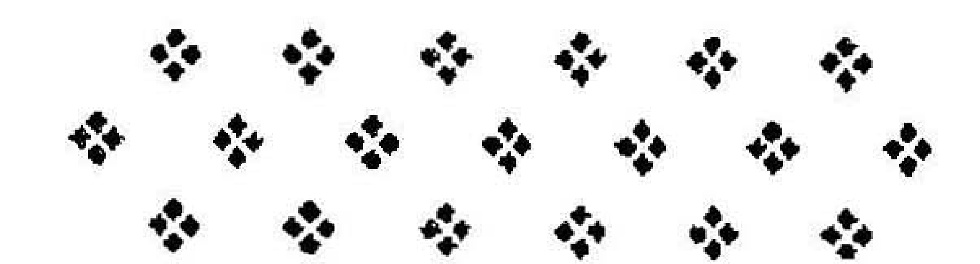
وذكر له عبد الحميد نموذجين فى الإنشاء الأدبى ، أحدهما استدعاء بعث به إلى صديقه أحمد المسيرى إلى حان بروص والآخر رسالة بعث بها من رشيد إلى الشيخ محمد عاقل ، أثناء ولايته القضاء بها ؛ وكلا النموذجين فى غاية الرقة والسلاسة بأسلوب ذلك الوقت . وأضاف عبد الحميد قوله عنه : « وشعره وإنشاؤه كثير تناقله أهل الإسكندرية » . وقال : إن له (ديوانًا) وجد بتركته وكان « أكثره مجونًا — وخمريات » . ولمّا اطلع عليه أخوه ، وكان متصوفًا ، مزق الديوان ولم يترك منه « إلا ما فى المجاميع وصدور بعض الناس » .

خاتمة :

هذا هو مخطوط عبد الحميد بك الذى قد يصدق عليه عنوان (أعيان من المشرق والمغرب فى القرن الثالث عشر) . وهذه بعض التراجم الأدبية أو المتصلة بالأدب الواردة فيه . ونحن عاملون على تحقيق هذا المخطوط الخصب فى معلوماته المتنوع فى شخصياته ، رغم عدم استيعابه وإحاطته لوفاة صاحبه فى شبابه وقبل إتمامه . ونحن نحسب أن المخطوط ما يزال بكرًا . فإن سبقنا الغير إليه بالتحقيق أو بالتعريف فحسبنا منه الجهد الذى بذلناه فى استجلائه وتصويره ، والعلم الذى استقيناه من صفحاته وسطوره .

وفوق كل ذى علم عليم .

ابو القاسم سعد الله
عضو المجمع المراسل (من الجزائر)



آراء ابن جنّى
فى تضاعيف كتب الشريف الرضىّ *

للدكتور حسين على محفوظ

كان الرضى تلميذ ابن جنى وصديقه ، وكانت بينهما مودة أكيدة ، وخلطة متقادمة ، وأسباب جامعة . وقد قرأ عليه طويلا ، واستفاد منه كثيرًا . وكان هو متولى الصلاة عليه قبل دفنه » .

قرأ الرضى على ابن جنى ، وتعلم منه ، ونقل آراءه فى كتبه . وقد أطراه وأثنى عليه فى كتاب تلخيص البيان . ووصفه باستنباط الخبايا ، واستطلاع الخفايا . قال : « كان – عفا الله عنه – كثير الاستنباط للخبايا ، والاستطلاع للخفايا » .

وقال فى كتاب حقائق التأويل : « وكان [ابن جنى] يعلو به التغلغل فى استنباط معنى ، والتولُّج إلى غامضاتها ، والغوص على قراراتها ، إلى أن يورد مثل هذا الذى ربما خدش به فصله الذى لا مغمز فيه ، ولا مطعن عليه . ومع ذلك فهو فى هذا العلم السابق المسوّم ، والأول المقدّم ، والبحر الحموم ، والدليل المأموم » .

ووصف أقواله واستنباطاته ، فقال : « وهذا – أيضًا – من الأقوال الغريبة ، والاستنباطات اللطيفة » .

وقد قال ابن جى فى كتاب الرضى (حقائق التأويل) هذا : « صنف الرضى كتابًا فى معانى القرآن الكريم يتعذر وجود مثله » .

عبّر الرضىّ عن ابن جنى بلفظ شيخنا فى كل المواطن ولقبه « شيخنا وصديقنا » مرة فى الكلام على إراغة القلوب .

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر المنعقد يوم الأحد ٧ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

وقد فسّر (الأستاذ) ابن جنى قصيدة الرضى الرائية التى رثى بها أبا طاهر إبراهيم ابن ناصر الدولة الحمدانى. وقتله أبو الدواد العقيلى، فى المحرم سنة ٣٨٢ هـ «وهذه القصيدة فصيحة الألفاظ، كثيرة المعانى. ،فسرها ابن جنى فى حياة رسى ممدحه لأجل ذلك»، ومطلع القصيدة :

ألقى السلاح ربيعة بن نزار
أودى الردى بقريعك المغوار

وهى فى (٥٩) بيتًا.

وقصيدة الرضى فى مدح الأستاذ ابن جنى أولها :

أراقب من طيف الحبيب وصالًا
ويأبى خيال أن يزور خيالا

وهى فى (٣٥) بيتًا، قال فيها :

وأكبر همى أن ألاقى فاضلا
أصادف منه للغليل بلالا

ولابن جنى تفسير العلويات، وهى أربع قصائد للشريف الرضى، كل واحدة فى مجلد. وهى القصيدة التى رثى بها أبا طاهر ابن ناصر الدولة، والقصيدة التى رثى بها الصاحب بن عباد، والقصيدة التى رثى بها الصابى. وقد سماه ابن النديم كتاب تفسير المراثى الثلاث. والقصيدة الرائية، ولا ندرى ما هى!

وقد رثى الرضى أستاذه ابن جنى — وقد توفى ببغداد، ليلة الجمعة، لليلتين بقيين من شهر صفر، سنة ٣٩٢ هـ، بقافية أولها :

ألا يا لقومى للخطوب الطوارق
وللعظم يُرمى كل يوم بعارق

وهى فى (٥٩) بيتًا. قال فيها، مما يوضح أعماق الصداقة والمودة بين الرجلين :

شقيقى إذا التاث الشوق وأعرضت
خلائق قومى جانبًا عن خلائقى

* * *

وفارقنى عن خلة غير طرقة
تضمنها صدر امرئ غير ماذق
(تروق ماء الودّ بينى وبينه
وطاح القذى عن سلسل الطعم رائق)

أشار الرضى إلى ابن جنى فى بعض كتبه. فقد ذكره مرارًا فى المجازات النبوية، وفى تلخيص البيان، وفى حقائق التأويل.

ونقل بعض أقواله وآرائه ، وروى عنه بعض الشواهد . ذكره فى المجازات النبوية (٦) مرات .

قال فى الحديث الثانى عشر . فى الكلام على الفصاحة العجيبة فى قوله عليه الصلاة والسلام – وقد تذاكر الناس عنده أمر الطاعون وانتشاره فى الأمصار والأرياف – « إنى أرجو ألا يطلع إلينا نقابها » . يعنى نقاب المدينة .

وكان شيخنا أبو الفتح النحوى – رحمه الله – يسمى هذا الجنس «شجاعة الفصاحة» لأن الفصيح لايكاد يستعمل إلَّا وفصاحته جريئة الجنان ، غزيرة المواد .

وقال فى الحديث (٣٩) فى قوله عليه الصلاة والسلام لأزواجه : « أسرعكن لحاقًا بى أطولكن يدًا » .

وقد جاء – أيضًا – فى جمعها (أى جمع اليد التى هى العطية) يُدِىّ . أنشدنا شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى . وأظنه من أبيات الكتاب :

ولا أذكر النعمـــى إلا بصالح

فإن له عنـــدى يديًا وأنعما

وقال فى الحديث (٩٤) فى قوله عليه الصلاة والسلام

للرجل الذى قال لبعض الصحابة : « إن فتح الله عليكم الطائف » . فقال عليه الصلاة والسلام : «لقد غلغلت النظر يا عدو الله . . » .

روى لنا أبو على .. الفارسى ، فى كتابه الموسوم بـ (الإيضاح) إجازةً ، وأنشدناه الشيخان أبو الفتح وأبو الحسن النحوى ملافظة قول الشاعر :

طاين يكديون وأشعرن كرة

فهن إضـــاء صافيات الغلائل

وقال فى الحديث (٢٠٠) فى قوله عليه الصلاة والسلام : « ما نزل من القرآن آية إلَّا ولها ظهر وبطن ... الحديث » وأنشدنا أبو الفتح النحوى – رحمه الله – قول الشاعر :

أما ترانى قالبا مجنى

أقلب أمرى ظهره للبطن

قد قتل الله زيادًا عنى

وكان [ابن جنى] رحمه الله يقول : فى قوله : (قد قتل الله زيادًا عنى) سر لطيف وهو أنه أقام قتله مقام عزله فكأنه قال قد عزل الله زيادًا عنى ، لأنه إذا قتل فقد زال سلطانه ، وأمنت سطواته

وقال فى الحديث (٢١٦) فى قوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم إنا نعوذ بك من الأيهمين » ، ومثل تسميتهم الشىء أيهم إذا كان على الصفة التى ذكرناها (أى للشىء لايملك دفعه ، ولايستطاع رده) ما أنشدناه شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى رحمه الله . وأظنه من أبيات الكتاب (أى كتاب سيبويه) :

ودامية يتقيهـا الرجـا
ل مرهوبة الحد لا فالهـا

قال : والمراد بقوله : (لا فالها) أى ليس لها جهة واحدة تتقى منها ، كما يتقى الحيوان العادى من جهة أنيابه ، أو ناحية أظفاره بل كل جهاتها محذور ، وكل نواحيها مخوف .

وقال فى الحديث (٣٥٤) فى قوله عليه الصلاة والسلام : « من قعد فى مصلاه ، حين يصلى الصبح حتى يسبح الضحى ... فى حديث طويل » . ومن الشاهد على ذلك قول ذى الرمة ... وأبين من هذا قول الآخر وأنشدناه شيخنا أبو الفتح النحوى رحمه الله :

قالت له وارتفعت ألافقى
يسوق بالقوم غزالات الضحا

وذكره فى تلخيص البيان خمس مرات .

قال فى الآية (٨٧) من السورة التى تذكر فيها التوبة ، فى الكلام على الخوالف أن يكون الخوالف ههنا جمع فرقة خالفة وكنت أسمع شيخنا أبا الفتح عثمان بن جنى النحوى رحمه الله يقول ذلك . ويذهب إلى مثله أيضا فى قوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » . ويقول : هى جمع فرقة كافرة إلا أن الكلام يكون على القول الأول استعارة ويكون على هذا القول حقيقة

وقال فى الآية (٢) من السورة التى يذكر فيها النحل ، وكان شيخنا أبو الفتح عثمان ابن جنى – رحمه الله – يقول : معنى قولهم فى القسم (لعمرو الله ما فعلت ذلك) أو (لأفعلن ذلك) إنما يريدون به القسم بحياة يُحْيِيها الله ، لابحياة يحيا بها تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ، فكأن المقسم إذا أقسم بهذه الحياة دخل مايخصه منها فى جملة قسمه . وجرى ذلك مجرى قوله : لعمرى . فيعبر مقسمًا بحياته التى أحياه الله بها والعمر ههنا هو العمر ، ومعناه الحياة . فكنت أستحسن هذا القول منه جدًّا . وله نظائر كنت أسمعها عند قراءتى

عليه . وكان - عفا الله عنه - كثير الاستنباط للخبايا ، والاستطلاع للخفايا .

وقال فى الآية (١٥) من السورة التى يذكر فيها طه عليه الصلاة والسلام ، قال لى ، وأنشدنى أبو على منذ أيام بيتاً هو من أنطق الشواهد على الغرض الذى رمينا إليه . وكان سماعى ذلك من أبى الفتح رحمه الله وأبو على الفارسى معنا فى الزمان حينئذ باقٍ لم يمت .
والبيت ، وهو قول الشاعر :

لقد علم الأيقاظ أخفية الكرى
تزججها من حالك واكتحالها

وهذا البيت أنشدنيه أبو الفتح النحوى عن أبى على الفارسى على قوله : (تزججها من حالك واكتحالها) .

وقال فى الآية (١٨) من السورة التى يذكر فيها لقمان ؛ وقال شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى أنشدنا أبو على الفارسى هذا البيت ، أى :

تراهم إذا ما جئتهم فكأنما
يشيمون أعلى عارض متراكب

وقال : يصلح أن يجعل فى مقابلة قوله تعالى : « وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ » .

البيت فى صفة المتكبرين بالغيرة . والآية فى صفة الخاشعين بالذلة . وهما فى طرفين وسببين مختلفين .

والبيت المتقدم ذكره ، أنشدناه أبو الفتح عن أبى على على ما ذكرته .

وذكر الشريف الرضى شيخه وصديقه ابن جنى مراراً فى (حقائق التأويل فى متشابه التنزيل) . وقد بقيت قطعة من بعض مجلداته .

قال فى الآية (٨) من السورة التى يذكر فيها آل عمران ، وكان شيخنا وصديقنا أبو الفتح النحوى يقول : أما قولهم عور وحول فالأصل فيه أعرر وأحول لأن جميع نظائره كذلك . ولأن العور والحول أدخل فى باب الخلقة من الألوان . وليس يقال فى الألوان حمر ولا سود . فدل ذلك على أن أصل حور وحول التشديد ، والأصل أولى بهذه الأشياء .

* * *

وقال فى تزيين حب الشهوات فى الآية (١٤) من السورة التى يذكر فيها آل عمران :

ومما يجرى هذا المجرى ما فسره لنا شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى – عند القراءة عليه – وقد مضى قول الشاعر (وهو الأفضل) فى تشبيه الناقة بالحمار الوحشى :

كأنها واضح الأقراب فى لقح
أسمى بهن وعزته الأناصيل

قال : أراد بقوله : (أسمى بهن) ، أى ركب بهن السماوة وهو يعنى بهن الحمار وأتنه . وهذا مثل قولهم : أعبر وأتهم .

وقال فى أخذ ميثاق النبيين فى الآية (٨١) من السورة ، وقال لى شيخنا أبو الفتح عثمان ابن جنى ، عند بلوغى عليه فى القراءة من كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى إلى باب المصادر – وقد مضى فى أثنائه ذكر هذا البيت – أى قول الشاعر :

أمن رسم دار مربع ومصيف
لعينيك من ماء الشئون وكيف

فقال : كأن الشاعر قال : أمن إن رسم دار مربع ومصيف بكيت لها . فالمربع والمصيف فاعلان فى المعنى .

وقال فى معنى رجوع الأمور إلى الله – وهى غير خارجة عن سلطانه وقدرته ، وتقلب العباد جميعًا فى قبضته وملكته – : وقد تقدم ما حكيناه عن شيخنا أبى الفتح النحوى من كلام فى قوله تعالى : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ » الآية ٥٩ فى البقرة ، وهو قوله : إنما كرر تعالى ذكر الذين ظلموا ولم يقل وأنزلنا عليهم . لأن ذلك أشد مبالغة فى ذمهم ، وأدخل فى باب التفحيش لذكرهم ولأن إظهار اسم المستحق للعقاب مع الإخبار بوقوعه به أبلغ من إضماره ، وأجدر بخوف الخائف من مشاركته فى وجه استحقاقه .

وقال فى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّة » فى الآية (١١٠) وأنشدنا شيخنا أبو الفتح النحوى فى مثل ذلك :

سراة بنى أبى بكر تسامى
على كان المسومة العراب

وقال فى فصل النظر عندنا غير الرؤية : فى رؤية الموت . فى الآية (١٤٣) من السورة ، وأنشدنا شيخنا أبو الفتح :

فيامى هل يجرى بكائى بمثله
مرارًا وأنفاسى إليك الزوافر

وإنى متى أشرف من الجانب الذى
به أنت . من بين الجوانب ناظر

قال : وكان يستشهد بهذا الشعر على أن الروية غير النظر . ويقول : لو كان النظر بمعنى الرؤية لم يطلب الشاعر عليه الجزاء ، لأن المحب لا يستثيب على النظر إلى محبوبه ثوابًا ، ولا يستجرى عليه جراء .

وقال فى معنى قوله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » فى الآية (٣) من السورة التى يذكر فيها النساء . وفى أن من شعب الكلام على هذه المسألة تبيين الفرق بين قولهم (اللائى) بالياء ، و (اللاتى) بالتاء . وكان شيخنا أبو الفتح النحوى — رحمه الله — يقول : إن اللاتى واللائى جميعًا جمعان للتى ، إلَّا أن اللاتى بالتاء المعجمة من فوقها للجمع القليل ، واللائى بالياء المعجمة من تحتها للجمع الكثير . قال : ومن الدليل على ذلك أن كل جمع يضارع واحدة من جهة من جهات المضارعة فهو أدل على ما قرب من واحدة فى باب العدد

وقال فى معنى قوله . « إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا » ؛ وقد ذكر لنا شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى فى ذلك وجهًا آخر . قال : (إن العادة قد جرت إذا مدح الإنسان أو تمدح أن يذكر أسلافه وقديمه وبيته ، وأوليته ، أو يذكر له ذلك . » .

وقال فى معنى قوله تعالى . « وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا » فى الآية (٤٢) من السورة : وعلى ذكرنا قول الله سبحانه : « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » . فقد كان شيخنا أبو الفتح النحوى عمل فى آخر عمره كتابًا يشتمل على الاحتجاج بقراءة الشواذ ناحيًا به نحو أبى على الفارسى فى عمل كتاب الحجة ، وهو الاحتجاج للقراء السبعة . فقال فيه محتجًّا لقراءة من قرأ فى الزخرف : « ونادوا يا مال ليقض علينا ربك ... » بالترخيم ، بعد ذكره وجوهًا فى ذلك : يجوز أن يكون اتخاذ ذلك على وجه الحكاية لكلام الكفار . وهم فى أطوار العذاب لأنهم لشدة آلامهم ، وإطباق العذاب عليهم قد ضعفت قواهم ، وخفيت أصواتهم ، وضعفوا عن تتميم اسم مالك عند ندائهم له ضعف أنفاس وخفوت أصوات فحكى سبحانه قولهم ذلك على وجهه

حسين على محفوظ
عضو المجمع المراسل (من العراق)

بين العلم والأدب
عندنا: بــــرزخ لايبغيان
للدكتور أحمد سليم سعيدان

سادتي الكرام !

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قدري أن يكون أول حديث لي إليكم شكوى . ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع ولكن شكواى لا للمواساة والتوجع ، بل هى دعوة لتأمل وتفكر يفضى إلى عمل جازم . إنها الشكوى مما أراه عندنا من قطيعة بين العلم والأدب تفضى إلى ما نعانى منه من أزمة فكرية ، وجمود ذهنى فى عالم متطور متفجر يطلع كل ساعة بجديد ، فى كل من مجالات الفن والأدب والعلم والتكنولوجيا فى جميع دروب الحياة . والعلم والأدب ، ابنان توأمان للفكر الإنسانى ، طبيعتهما وطبعهما أن يكونا متضامنين متكافلين ، يسند كل منهما أخاه ويغذيه ، سلاحهما الكلمة المكتوبة أو المسموعة ، وهدفهما العمل من أجل مستقبل أفضل ، لنا ، وللإنسانية جمعاء .

وقبل أن أشرع بعرض ما أشكو منه أستأذنكم أيها السادة بأن أعرض أمامكم صورة من تضافر العلم والأدب فى العالم المتقدم :

غنى عن القول إن علوم اليوم هى صناعة غربية . أجل إن جذورها عربية وإغريقية وبابلية وفرعونية ، ولكن جذوعها وفروعها وأغصانها وأوراقها وثمارها — كلها غربية — وهى متطورة آخذة بالعلو والنماء ، ومفاتيح تطورها كلها بيد الغرب . وهى كلما ازدادت نموًا ، زادت بعدًا عن جذورها ، كشجرة تفاح تركب على فروعها شتى أنواع الفواكه ، فتؤتى ثمارًا غير تفاحها الأصيل .

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الأحد ٧ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٤ من مارس سنة ١٩٩٠ م

وعندما كان الغرب يتلقى علومه من الكتب العربية ، كانت لغة الكتابة عنده لاتينية ، وكان المتعلمون فيه هم القلة التى تتقنها ، وكان أكثرهم ، بل كلهم ، رجال دين . ثم تنبه الغرب إلى ضرورة إحياء لغاته ، البيئية ، وجعلها لغات كتابة .. وفى غضون ذلك كان إبداعه الفكرى الذاتى قد بدأت بواكيره ، فقامت نهضته الفكرية ، ثقافية كانت أم اجتماعية أم سياسية ، أم أدبية — والعلم ركن هام من أركانها ، فكان إن نمت لغته المكتوبة فى تطورها مع تطور العلم . حتى جاءت الآداب الغربية مجبولة بالعلم ، وهو الركن الأساسى من أركانها ، والملهم الأكبر فى تسريع إنتاجها وتطويره ، شعرًا كان أم قصة ، أم فن رسم أم موسيقى . العلم فى الغرب طابع الحياة اليومية ، يرضعه الطفل مع حليب أمه ، ويتلقاه فى البيت والشارع والملعب والملهى ، والصحافة اليومية بل المدرسة . فى الغرب نجد رجال القلم ، والأدب ، والصحافة والسياسة ، والتاجر فى متجره ، والصانع فى مصنعه ، والفلاح فى مزرعته ، ونجد سائق التاكسى وربة البيت — نجد كلاً من هؤلاء ، له من العلم المعاصر نصيب ، يجاريه فى تطوره وتفجره ، يتلقاه فى الكتب المبسطة ، والصحف والنشرات . وفى الإذاعة والتلفزة بعبارات خبراء عارفين يفهمون ما يقولون . حتى أحدث الابتكارات العلمية والتكنولوجية نجد الحديث عنها ، وعنا يتقاطر من أثر لها . على لسان الخاص والعام . إن من قيم الحياة فى العالم المعاصر أن المرء المثقف ينبغى أن يكون ملمًا بما يجرى فى حقول العلوم من مستحدثات نظرية وتطبيقية . أضف إلى ذلك أن العالم المتقدم يعيش عصر صراع هو حرب حياة أو موت ، أداته النافذة صاحبة الغلبة المطلقة هى العلم .

منذ الأربعينيات من هذا القرن . صرنا نعيش عصر تفجر علمى رهيب . الخفى فيه أشد هولاً من الظاهر المرئى ، ولكن العيون اليقظة والأذهان المتفتحة لا تلبث أن تكشف كل خفى . وتجاربه بما هو أكثر خفاء ليس علم اليوم كماليًا من الكماليات ، وإنما هو ، كالماء والهواء ،

والغذاء ، ضرورة من ضرورات الحياة . والسلاح الأقوى من أسلحة الصراع . لا يغير من الصورة ما صار يبدو اليوم من انفراج بين أكبر قوتين فى العالم .

والدول المتقدمة همها أن تقيم تفاعلاً قوياً مستديماً بين العلم والناس والعلم والأدب والأدب والعلم الإنسانيات .

فعلى الصعيد الشعبى :

ما إن يتم إنجاز علمى ذو شأن . مما قد يكون له أثر فى حياة الناس ، مثل كشف طبى أو صناعى أو زراعى ، حتى تنبرى وسائل الإعلام لنشره ، بأقلام خبراء علميين تربويين ، فى الإذاعة والصحافة والتلفاز ، ثم تصدر الكتب العلمية المبسطة تزيد البحث فيه تفصيلاً ، بطبعات شعبية رخيصة الثمن .

وإذا ظهر كتاب قيم بلغة أجنبية : مما قد يفيد الجماهير ، فلا يلبث أن يترجم ، وينشر بطبعات رخيصة . وقد يكون النشر سلاحاً ذا حدين ، فتظهر النشرات المفيدة إلى جانب كتب اللهو والمجون . ولكن النشر فى العالم المتقدم حر ، والقارىء هو الذى يختار ما يرضيه . والمربون يعرفون أن بعض الكتب تضر ولا تنفع . ولكنهم يتركون الخيار للقارىء كى يبقى الكتاب ذا جاذبية خاصة ، وكيلا يؤدى حجب بعض الكتب إلى البحث عنها خلسة .

وعلى صعيد الإنتاج الأدبى :

نجد الأديب ذا رؤية علمية ، يدرك اتجاهات علوم عصره ، وله فى قرارة نفسه فلسفة علمية تقيّم الحاضر وتشارف المستقبل ، فهو فيما يبدع من أدب مكتوب أو مسموع يحلق بخياله فيستطلع ما هو جار وما قد يجرى فى المستقبل القريب أو البعيد . وبذلك يوحى إلى زميله العلمى بأفكار جديدة ، ويدفعه إلى مزيد من البحث والاستقصاء ، حتى ليجعل من خيال الأديب بالأمس وأوهامه بعضاً من حقائق اليوم وعلومه ، فيدفع الجديد من حقائق اليوم أديب الغد إلى جديد من الخيال ، وجديد من الرؤى والتطلعات .

هكذا يتضافر الأديب والعالم فى العالم المتقدم ، كل منهما يسند الآخر ويرفده . ومع تطور العلم والتكنولوجيا يتطور الأدب والفن ، حتى لتقام بين حين وحين معارض لآداب الخمسينيات والستينيات وفنونها ، فتقارن بما كان قبلها وما جد من بعدها ، وما أبعد ما بين هذا وذاك .

حتى اللغة يعتريها ما يعترى العلم والأدب من تطور . إن اللغة أداة العلم والأدب ، تتسع إذا اتسعت آفاقهما وتضيق إذا ضاقت . إنها لغة الأمة ، ولها من ثم كرامتها وقداستها . ولكنها أيضًا لغة حية فهى من ثم مقطورة قابلة للاتساع والنماء . إنها بحق مرآة حياة الأمة ، تعزّ إذا عزت الأمة ، وتهون إذا هانت .

إن العلم المتجدد يلهم الأدباء بقدر ما يلهم العلماء فينوعون إنجازهم ويزيدونه جاذبية ، مستندين إلى خلفية علمية صلبة . وهو قد يلهم غير المتخصصين بأكثر ممّا يلهم المتخصصين . فمن قبل أن يبتكر العلم سفن الفضاء وينزل العلماء أرض القمر ، وضع الأدب قصصاً تصف مثل هذه السفن وتتكلم عن رجال الفضاء . خيال أدباء اليوم يجعله علم الغد حقيقة ، وخيال الأدباء فى العالم المتقدم يسبق إنجاز العلماء ويلهمهم .

والمواطن فى العالم المتقدم يعتز بحاضره لأنه يمده بالثقة بالنفس ، ويدفعه إلى صدق الانتماء ، فيعمل على تحقيق أمجاد تضاف إلى ما حقق آباؤه وما يحقق زملاؤه . أما ماضيه فينظر إليه باعتباره صفحات مطوية فى سجل حياته . إن يكن فيها بدائية قائمة ، وسطور معتمة : فتلك مراحل تجاوزها ، وبقى الماضى . بخيره وشره ، تراثًا يحافظ عليه ويصونه لأن فيه جدوره ومسببات حاضره وأمجاده . إن الفرق الحضارى بين ماضيه وحاضره يزيده ثقة بالنفس ، وأملًا بمستقبل أفضل وتطلعًا إلى تحقيق أمجاد تضيف اسمه إلى قائمة الخالدين ، ما أكبر الفرق بين فكر المواطن فى العالم المتقدم ، وفكر نظيره فى العالم الثالث ! ذاك يتطلع إلى مستقبل أكثر إشراقًا ، وهذا يحنّ إلى الماضى ، ويتبرم بالحاضر ، ويخشى المستقبل المجهول . كم أتمنى لو يتضافر العلم والأدب عندنا تضافرهما فى الغرب .

وقد يحسن ، قبل أن ننتقل إلى وصف حال العلم والأدب فى العالم العربى أن نلقى نظرة سريعة على العلم الغربى التخصصى على الصعيد العالمى ، المعروض منه للعيان ، ناهيك عن الخفى تحت ستار المجهودات العسكرية .

ففي المستويات الجامعية نجد في كل قسم من أقسام الكليات العلمية مختبر بحث يختص كل ركن من أركانه لفرع من فروع البحث . ويشغل كل ركن أستاذ أو فريق من الأساتذة أصحاب التخصص الواحد ، أو التخصصات المتقاربة فيعملون بعد الفراغ من المحاضرات اليومية في بحوث يأملون من ورائها تحقيق إنجازات تحقق لهم ولجامعاتهم شيئًا من المجد أو بعضًا من الدخل ، أو يعملون في إيجاد حلول لمشكلات محددة تعرضها المؤسسات الصناعية أو الزراعية أو التجارية القائمة من حولهم . وهذه المؤسسات تعتمد لهم ولكلياتهم مبالغ سخية يتقاضون منها أجورهم ، ويشترون بها ما يلزم من معدات ويشغلون بها من يحتاجون إليهم من عمال ومساعدي بحث .

ومن المتخصصين الذين لا يعملون في الجامعات من يعملون خبراء أو مستشارين في الفعاليات الخاصة أو العامة ، يساعدون في التخطيط أو التصحيح أو التطوير .

ومن المتخصصين من يهوون البحث والاستكشاف . فيعملون أفرادًا أو جماعات بجهودهم . لا لمطمع ، ولكن بغية تأدية رسالة ما ، قومية أو إنسانية . وقد يقصون العمر كله ، لا يحققون جديدًا سوى إرضاء نزعاتهم الخاصة . أو قد يصلون إلى اكتشاف أو ابتكار أو تطوير يدر عليهم ما يرضيهم من سمعة محترمة . وقد يدر عليهم أو لا يدر ما يرضيهم من مال . هؤلاء هم الذين يتحقق على أيديهم مجد البلد وتقدم الحضارة الإنسانية . ولكن على أيديهم أيضًا يتحقق صنع السلاح المدمر الذي قد يقضي في لحظة جنون على أكثر ما صنعه الفكر الإنساني في قرون طويلة . تلك هي الأسس التي بني عليها العلم المعاصر المتفجر

وعليها بني أيضًا صرح الآداب والفنون المعاصرة . وما فيها من تنوع وإبداع ، يغمرها جميعًا منهجية علمية تعلم الفرد أنه سيد نفسه ، قادر على أن يبتكر ، مدعو إلى أن يخطط وينفذ ، واثقًا من نفسه . مؤمنًا بربه ، يعمل بموضوعية وأمانة علمية يظلله تحكيم العقل ومقاييس المنهج العلمي المستند إلى برهان تجريبي عقلي — عالمًا كان أو أديبًا أو فنانًا . طبيبًا كان ،

أو مهندسا أو تاجرًا أو صانعًا أو زارعًا كلهم فى النهج العلمى والأدبى سواء .

فإذا جئنا إلى وضع العلم والأدب فى العالم العربى ، فإنى أخشى إذا أمعنت فى وصف صورتهما الهزيلة أن أشعر بالإحباط. تلك الفئة القليلة من الأُدباء المبدعين ، والعلماء ممن حققوا إنجازات ذات قيمة عالمية فى مجال الابتكار أو الاكتشاف . أو التطوير . ولكن مهما يكن عدد هؤلاء القلة ، فإن عالماً عدد أبنائه يربو على مائة مليون ، لا يكون حاله مرضيًا أن يقل كل من الأُدباء والعلماء فيه عن مليون ، منهم ألف على الأقل يعملون على مستوى عالمى ويساهمون فى صنع الحضارة الإنسانية ، ويمدون الجسور جسورًا فكرية مع العالم المتقدم .

غنى عن البيان أن تربتنا وأجواءنا الفكرية والثقافية والإقليمية والطائفية تحتاج إلى تطوير كبير كى تصبح صالحة لنمو الإنتاج الأدبى والإنجاز العلمى على مستوى عالمى ، أى صالحة للسير مع التيار الفكرى العالمى

لقد قامت النهضة الغربية ، فى أواخر القرون الوسطى ، فى نور الفكر العربى الإسلامى الذى أقامه أجدادنا فى رحاب الحضارة الإسلامية ولكن كان قدرنا أن تقوم الحضارة العربية المعاصرة ونحن نغط فى سبات عميق وعندما شرعنا ننهض من سباتنا ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، ألفينا أننا غرباء فى العالم المعاصر ، فلا علم ساهمنا فى صنعه . ولا أحوالنا الحاضرة تصلح له . ولا تربتنا الذهنية تلائمه ، حتى ولا لغتنا الموروثة تتسع لاستيعابه .

سيصدم عولى هذا أدباء يتغنون بلغتنا الجميلة ، وعاميين يتباهون بما أنجز الآباء وماذا يجدى التغنى والتباهى إن لم يعمد إلى تطوير مناهج حياتنا وتفكيرنا ، حتى لغتنا ، إلى أن تتلاءم مع طابع حياة اليوم المتطورة السريعة التطور ، الخاضعة للتطوير. إليكم مثلاً واحداً يبين كيف وقفنا جامدين فى عالم سريع الحركة ؛ التوقف فيه كالهبوط من شاهق . وعندما ابتكر الغرب الطباعة بحروف متحركة . كان ما يزال يتلقى علومه من كتب عربية . وقام الغرب بطباعة هذه الكتب العربية . أما نحن فقد مكثنا بعدها فى الشرق ثلاثمائة سنة

ننسخ باليد، وكانت أول مطبعة وردت إلى مصر تلك التى جاء بها نابليون فى أواخر القرن الثامن عشر عندما شرعنا نطبع كتبًا طبعها الغرب من قبلنا بثلاثة قرون .

فى العصور الإسلامية الأولى أعلى المسلمون صرح المنهج العلمى ، بأن جعلوا الاختبار والمشاهدة ركنًا من أركانه . لقد أدركوا أن التفكير جهد إنسانى متطور يتغير بتغير الزمان والمكان ، فنادوا بألّا رأى لميت ، لأن الماجنين مهما أبدعوا فإن تفكيرهم وإبداعهم لزمان غير زماننا وأحوال غير أحوالنا قالوا هم رجال ونحن رجال ونحن أدرى منهم بمايتلاءم بينها وبين أيامنا لقد أوصوا بأن يقوم على رأس كل مئة سنة مجتهد يجدد ويطور ، حسب مقتضيات العصر ؛ فإن لم يقم مجتهد ، وجب على المجتمعات الإسلامية أن تعمل على إيجاده بالرعاية الحكيمة والتربية الهادفة .

ولو امتثل اللاحقون لهذه التوصيات لتغير مسار التاريخ الإسلامى . بل تاريخ العالم بأسره . ولكن تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن . ولقد جرت الرياح وماتزال تجرى بما لا يشتهى دعاة تطوير الحياة الفكرية فى عالمنا العربى ، من أجل معالجة ما نعانى من سطحية وأزمة فكرية ، تحت ربقة ستار حديدى اسمه المحافظة .

باسم المحافظة على القديم ، وبدعوى أن آخر الأمر لا يصلح إلّا بما صلح به أوله ، تفكر أجدادنا للعلم باسم الدين . والدين مما يصنعون براء ، واكتفى الأدباء بالتبارى فى المدح والهجاء ، نفاقًا وبهتانًا . والأدب والفن مما يفعلون براء وباسم الدين تقيدت الحرية الفكرية ، وأعلن الفقهاء الحرب على العلم . وقد كان الإسلام أقوى دعوة إليه . وكما أحرق الغلو الأوربى علماء فى ظل محاكم التفتيش ، أحرق الغلو العربى كتب الفلسفة وأعدم أصحاب الرأى الحر ، بدعاوى ظاهرها الحفاظ على الدين وباطنها التنافس على موائد الولاة .

هذا ماجرى فى أواخر العصور الإسلامية قبيل انتقال القيادة الفكرية والسياسية إلى العالم الغربى . وفى غضون القرن التاسع عشر ، شرعنا نضيق وقد مثلت فى أذهاننا ذكريات عصور ماجدة مضت ، فأخذنا

نتغنى بأمجاد مضت ، من غير أن تحقق أمجادًا مستجدة ،[٣] وليس من السهل تحقيقها فى عالم يتطور بسرعة خاطفة ، ويتفجر فيه العلم تفجرًا فوق كل تصور ، فى حين أننا ما زلنا نمضى بنا الزمان ، وعيوننا إلى وراء ، تحن إلى الماضى ، وتتبرم بالحاضر ، وتخشى المستقبل ، ما زلنا ننظر إلى الغرب نظرة ريبة وخوف ، نتحاشى أن نفيد من تجربته ، وأن نتعمق أسباب ضعفنا وقوته .

إننى يا سادتى أعتز وارفع رأسى عاليًا بالشعر العربى ، الوجدانى منه والقومى والإنسانى ، وأعتز وأرفع رأسى عاليًا ، بآدابنا الحديثة ذات النزعة القومية ، والنزعة الإنسانية ، وأعتز أيضًا وأرفع رأسى عاليًا أتباهى بكل عربى أنجز فى البلاد المتقدمة إنجازاً متميزًا . ولكنى أتألم حسرة عليه إذا لم يجد فى بلده ما يمكنه من مثل هذا الإنجاز . إن ما أشكو لكم يا سادتى منه أن أجواءنا الفكرية هنا محافظة إلى حد يجعلها لا تتواءم مع تيار الحياة المتطور . إنها تقيم برزخاً بين الأدب والعلم يعرقل مسار كل منهما ، ويجعلنا نجمد فى وجه تيار فكرى دافق لا يلوى على شىء .

ما نحتاج إليه كى نخرج من جمودنا الفكرى منهجية علمية تضم تحت جناحيها أدباءنا وعلماءنا وكل مفكرينا على السواء منهجية تدفعهم إلى التخطيط والتطوير ، مؤمنين بالله ، واثقين بقدرتهم العقلية ، متطلعين إلى المساهمة مع المساهمين فى بناء مستقبل أفضل يأخذ فيه العرب والعروبة مكانة قومية وإنسانية تليق بتاريخنا الحضارى المجيد .

غنى عن البيان أننى ، رغم تبرمى بالحاضر وما فيه من سطحية وأزمة فكرية ، لأعتز كل الاعتزاز بما حققت أقطار عربية من انتصارات عسكرية وسياسية واقتصادية ومن خطوات موفقة نحو الوحدة العربية ، أمل كل مواطن شريف . فى تقديرى ، وحكمى الموضوعى أننا ، أدباءً ومتأدبين ما تزال أفكارنا وخيالاتنا ، تهيم فى الماضى القريب ، يوم انقلب الفكر والأدب مجرد شكليات جوفاء ومحسنات لفظية يحليها سجع وجرس ، ولا يدعمها فكر ، وصار

الشعر المديح بعاق وارتزاق . وهجاء سخف وبهتان . أما العلم عندنا فمن مآسيه أن منهج التعليم ماتزال هي هي التي رسمها الاستعمار . وما طرأ عليها من تغيير إنما هو سطحي لا يمس الجذور . ولا يصل إلى حد الاجتهاد الحر والابتكار

إن الجو والتربة بقيا في العالم الإسلامي ، والعالم العربي بخاصة . على مثل ما كانا عليه في أواخر العصور الوسطى تفكير تقليدي مكرر معاد . وتعلم تلقيني يعتمد على الحفظ ويتنكر للاجتهاد . وأقوال وشعارات لا يسندها واقع ولا دليل . وتربة تتقبل الكلام المزوق الأجوف . ولا تعنى بالمضمون وترفض المنهج العلمي الموضوعي والمنطق العلمي الحر .

وما العمل ؟ أقول : إن علينا بالإضافة في تيسير نشر العلم بين العلميين والإنسانيين على السواء . خلق الجو المناسب والتربة المناسبة لأن ينمو العلم ويشيع ويصبح طابع حياتنا والموجه الفعال لتفكيرنا . وتصوراتنا . وأن ينمو الأدب الحر المنبعث عن أصالة في التفكير ورؤية نافذة وعلم غزير .

ثمة مبادئ وحقائق وأفكار ينبغي أن تشيع بيننا وتجري في حياتنا كما يجري الدم في عروقنا . كي نحقق الجو والتربة اللازمين لتضافر العلم والأدب عندنا . كي نساير تيار الحياة المعاصرة ونمضي مع الركب بعزة وكرامة فاعلين لا منفعلين . خلاقين لا مقلدين ولا متطفلين من هذه المبادئ والحقائق والأفكار

١ – إن العلم هو باني الحياة المعاصرة :

يمدها بسلاح السلم والحرب والجد واللهو . وهو ملهم الشعراء والكتاب والأدباء . يمدهم بالغذاء الفكري ويدفعهم إلى الابتكار والإبداع . مع إدراك للحاضر ومشارفة للمستقبل . ومع تخطيط سليم لتحقيق ما يبغون وإدراك ما يأملون بل إن العلم هو الذي يعلمنا كيف نعبد الله حق عبادته ، في عالم يتراوح كالمجنون بين تقى الزاهد المتصوف ، وضلال الأحمق المفتون .

٢ – إن التطور هو سنة الله في الكون :

كي تمضي الحياة دائماً إلى الأفضل ، ويشارك الفكر ما هو أرقى وأشرف . من أجل ذلك وهبنا الله العقل ، الأفراد يولدون

ويكبرون ويموتون . وقد ينتاب الفرد ، أو المجموعة أو الأمة بأسرها ما ينتاب الأفراد من عجز وهرم . ولكن الحياة بعامة في هذا الكون الرهيب ، سائرة أبدًا بفضل الله إلى الأحسن . والتطور قائم منذ الأزل ، وماض إلى الأبد . كان في الماضي يجري بطيئًا وهو اليوم يغذ السير بفضل العلم ، ويقضي إلى التطوير أي عمل العقل في تسريع التطور . والتطوير إنما هو عمل بإرادة الله ، ونجاحه يفضي إلى مزيد من الثقة بالنفس ومزيد من شكر الله

وليس التطوير شغل العلماء والأدباء وحدهم ، فكل مواطن مكلف بتطوير عمله إلى الأفضل : المزارع في حقله يطور سنابل القمح كي تجود بعطاء أغزر وأجود ، والصانع في مصنعه يطور إنتاجه ليصير أفضل وأكثر ، والأديب والكاتب والشاعر والناقد والمؤرخ يجددون ويبتكرون ، وينوعون . إن كل نجاح هو خطوة نحو نجاح أكبر .

٣ ـ تطوير العلوم والمعارف :

قدرنا أننا نعيش في عصر تتفجر فيه العلوم والمعارف بسرعة مذهلة . فما إن تبتدع عملية جديدة أو تعرض فكرة جديدة حتى يهرع التكنولوجيون إلى استغلالها بابتكار جديد ، وليس هذا التفجر ، والتجديد مقصوراً على مستويات التخصص بل هو يمتد إلى الحياة اليومية ويدهم الناس في بيوتهم ومطابخهم ومجالي جدهم ولهوهم. الحاسوب الذي كان في أوائل الستينيات حديث الجامعيين صار اليوم الشغل الشاغل في المصانع والمتاجر والمصارف والدوائر العامة والخاصة وماذا نقول عن وسائل الطباعة والتصوير والاتصالات والطائرات ؟ وماذا نقول عن عالمنا الواسع الذي غدا صغيراً نرى فيه على شاشة التلفاز فتيان الشرق والغرب في تعاملهم وجدهم ولهوهم. الأقمار الاصطناعية تعمل على توحيد العالم سلوكًا وعادات ، شئنا أو أبينا .

هذا يضعنا أمام تحد لابد من مواجهته . ومواجهته لاتتم بالتنكر للعلم والتكنولوجيا ، بل بالتكيف معهما لأنهما أمر محتوم . وهذا التكيف يقتضي تغييراً جذريًا في مفاهيم التعلم والتعليم وواجبات المعلم . فالتعلم عملية تمتد مدى الحياة . في الماضي قال فيلسوف : إنا أفكر ، إذن أنا موجود .

واليوم يقول كل فرد . أنا أتعلم . إذن أنا موجود والتعليم لم يعد يقتصر على إنهاء مقرر محدد . إنما هو يعلم المرء كيف يتعلم وكيف يبقى على صلة بالمستجدات فى مهنته وميدان عمله . كى يبقى مواكبا لتيار الحياة المتدفق . والمعلم لم يعد الموظف الذى تخرج وقد شدا من العلم شيئًا فهو يعطيه للمتعلمين جيلًا وراء جيل . إنما هو متعلم تتزايد معلوماته يومًا بعد يوم . وتتسع خبراته - هو صاحب مهنة وصاحب رسالة حياته مكرسة لتبليغها

أيها السادة : إذا كنا نحطط بحدّ لنكون فى صفوف الأمم المتقدمة . فينبغى أن نتدارك ما فاتنا من عناصر الحياة المعاصرة أدباء وعلماء . إن تفجر المعرفة قد جعل أكثر المعارف التقليدية معلومات بدائية تجاوزها التطور العلمى . أو معلوطة ثبت أنها ليست على صواب . ومن ثم فمبادئ العلوم الأساسية التى تعلمناها قد جعلها التبحر العلمى غير ذات موضوع . وما لم نبادر للتعلم سنبقى أكثر جهلًا ممَّا يقدر المقدرون . إن من المعلومات المحدثة ما لابد لكل مثقف أن يلم به ، علميا كان أو أديبًا أو لغويًّا .

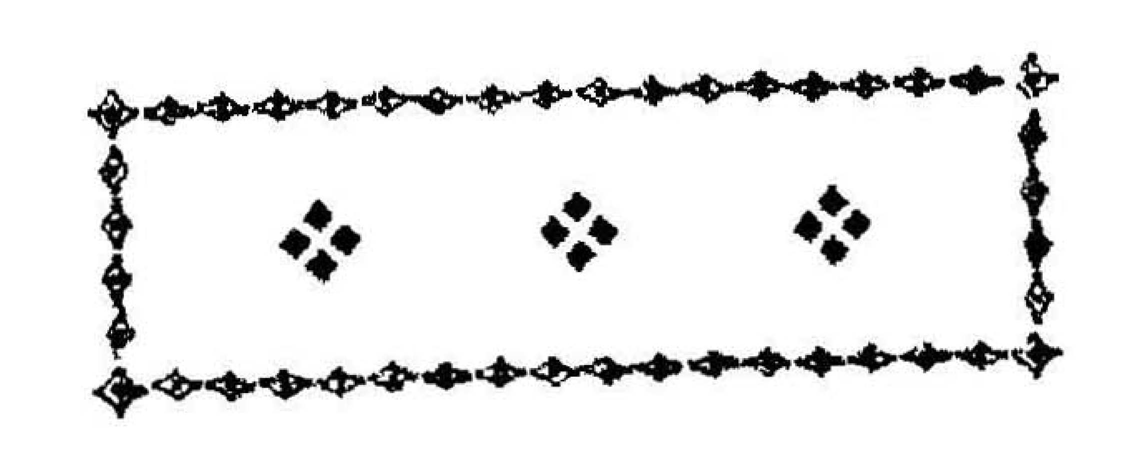
إن لم نسهم فى تطوير الحياة المعاصرة فلا أقل من أن نتفاعل معها على نحو يحفظ بقاءنا ، وإن لم نفعل فأغلب ظنى أن الحياة المعاصرة ستخلفنا وراءها وتمضى قدمًا لاتنتظر .

أظننى أطلت عليكم أيها السادة . شكرًا لإصغائكم وسعة صدوركم .

والسلام عليكم

احمد سعيدان

عضو المجمع المراسل (من الأردن)



عود لابن النفيس

للدكتور حسن علي إبراهيم

في المؤتمر الماضي تكلمت عن ابن النفيس فأثار قولي ما يشبه الثورة بين أعضاء المؤتمر ويبدو أن ابن النفيس كانت له في نفوسهم مكانةٌ عظيمة، بل أقول ما يشبه التأليه هذا مع أني كنت أقول كلامًا علميًا بحتًا ولم أقصد الإساءة إليه فقد كان عالمًا كبيرا في زمانه، وهو الذي تنبه إلى وجود دورة رئوية دموية وعرف أن الهواء يختلط بالدم في الرئة، وأن ذلك لازم للحياة منذ أن قال جالينوس إن الروح تدخل إلى الجسم مع كل شهيق، والناس تعرف أن التنفس لازم لاستمرار الحياة، ولكن ابن النفيس أراد أن يفسر كيف يحدث ذلك داخل الصدر وهنا وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه كثير من الأطباء العرب وهو إعمال الخيال بدون تشريح أو تجربة هذا باستثناء أبي بكر الرازي، وحنين بن إسحاق، وأبي القاسم الزهراوي وابن زُهر.

فمن الواضح أن ابن النفيس لم يُشَرِّح القلبَ ولم يفتح حجراتِه وإلَّا لما قال إن البطين الأيسر يخرج منه شريانان لا شريان واحد وكلنا نعلم الآن أن هناك شريانًا واحداً يخرج من البطين الأيسر وهو الأورطى كما أنه جعل الشريان الرئوى يخرج من البطين الأيسر وقد أهمل تمامًا ناحية كبرى وهو أن الدم الفاسد يأتي من شتى أنحاء الجسم ويصب من خلال الوريد الأجوف السفلى والوريد الأجوف العلوى في الأذين الأيمن ومنه إلى البطين الأيمن ومن هذا يخرج الشريان الرئوى حاملًا الدم الفاسد إلى الرئة ليتحد بالأكسجين ويتخلص من ثاني أكسيد الكربون ثم يعود دمًا أحمر نقيًا من الرئة إلى الأذين الأيسر ومنه إلى البطين الأيسر ويخرج من خلال الأورطى ليغذى سائر الجسم بالدم النقى. وابن النفيس

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة السادسة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م.

معذور لأنه نظر إلى القلب فرأى أن الشريان الرئوى ظاهرياً يميل ناحية البطين الأيسر فيخيل للرائى أنه خارج من البطين الأيسر ثم إنه قال إن هناك جرماً بين البطينين يتلطف فيه الدم قبل أن يدخل البطين الأيسر وهذا الجرم لاوجود له . والذى أثار المؤتمر أكثر ما أثار هو أنى قلت إنه كان يتخبط وقد عدلت هذه العبارة فى مقالى إلى « أن ما قاله ابن نفيس لم يكن صحيحاً بمقاييسنا الحالية » وربما كنت واقعاً تحت تأثير سيء ، فقد كنت أقرأ قبلها بقليل أن الإدريسى هو أول من رسم خريطة للكرة الأرضية وكل من عنده أطلس جغرافى كبير يرى فى مقدمته صوراً لخرائط للأرض منذ أيام اليونان وبطليموس بل فى الواقع أن الخريطة التى رسمها بطليموس للأرض أضبط من خريطة الإدريسى ثم إن الإدريسى رسم أكثر من خمسين جزيرة كبيرة بين أفريقيا والهند فأين هى هذه الجزر ؟ كذلك كنت أقرأ أن أحمد بن ماجد المعروف بأسد البحار هو الذى علم فاسكودى جاما كيف يدور حول رأس الرجاء الصالح وهذا غير صحيح

كما أنه هو الذى علم ماجلان بعد ذلك كيف يدور حول الكرة الأرضية وقد قرأت كتاباً كبيراً عن رحلة ماجلان وهو ما كان يكتب كاتب السفينة يوماً بيوم منذ تحضير السفن حتى إبحارها . ثم ما جرى يوماً بيوم حتى عودة سفينة واحدة فقط إلى إسبانيا بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات فلم أقرأ إشارة واحدة إلى ابن ماجد . وكان كاتب السفينة التى يدون الوقائع دقيقاً جداً فكان يكتب يوم الثلاثاء كذا فى شهر كذا فى عام كذا حدث هذا ثم يوم الأربعاء وهكذا . وقد قتل ماجلان كما تعلمون فى جزر الفلبين وعادت سفينة واحدة فقط من الثلاث بدون ماجلان . ولكن الطريف فى هذه الرحلة أن يوم وصول السفينة كان يوم الثلاثاء كما تدون وقائع السفينة ، ولكنهم وجدوا أنه يوم الأربعاء فى إسبانيا هذا مع عدم الخطأ إطلاقاً فى التدوين وقد شغلت هذه الظاهرة عقول العلماء مدة طويلة فلم يكونوا يعلمون فى ذلك الوقت أن هناك خطاً اسمه خط الزمن الدولى وهو يعبر المحيط الهادى من الشمال إلى الجنوب وهو خط ١٨٠ درجة طولى والذى يعبر هذا

الخط من الغرب إلى الشرق إلى الغرب يكسب يومًا والذى يعبره كما فعل ماجلان من الشرق إلى الغرب يفقد يومًا من عمره .

اعذرونى لخروجى عن الموضوع ، والآن أعود إلى ابن النفيس ونحن كعرب كان عندنا علماء كبار لنا أن نفخر بهم ومنهم ابن النفيس طبعًا ولكن أرجو أن يكون ذلك الفخر فى حدود العلم والمعقول . والآن لأُرضيكم سأعود إلى كتاب شرح تشريح القانون لابن النفيس ، فقد أصاب الرجل فى نواحٍ عدة أذكر منها بعض الأمثلة .

يقول تعليقًا على كلام ابن سينا : « كل عضو فلابد وأن يكون فى جُرمه خلل ينفُذ فيه الغذاء إلى عمقه وهذا الخلل إن لم يكن محسوسًا سمى مسامًا ويسمى ما كان خلله من العظام كذلك مُصْمتا لأنه مُصْمت فى الحس وإن كان ذلك الخلل محسوسًا . فإما أن يكون متفرقًا فى جرم العضو كما فى عظم الفك الأسفل فيسمى ما كان كذلك من العظام هشا ومُتَخَلْخِلًا أو لا يكون متفرقًا فى جرمه ، بل مجتمعًا فى موضع واحد فيسمى ما كان العظم كذلك محوفًا

وكل عظم فإما أن يكون صغيرًا جدًا ، كالأغلة ، بل كالعظام السمسمانية Sesamoid Bones فلا يحتاج فيه إلى تجويف محسوس لأن هذا لصغره يتمكن الغذاء من النفوذ إلى قعره بسهولة لقصر المسافة .

هذا الكلام فى جملته صحيح ولو أن لى – كطبيب يعيش فى القرن العشرين – تعليقاً وهو أن عظم الفك الأسفل من أقوى العظام وأن التجويف الذى فيه يسير بطوله تحت كل الأسنان والغذاء لا يأتى إليه من وسطه كما يقول ابن النفيس ، بل يأتى إليه من زاويته الخلفية على الناحيتين ومن الغشاء المُحَاطِى الذى يغطيه والتجويف الذى فيه لم يوجد لكى يكون خفيفا فعضلات الفك من أقوى عضلات الجسم وهى تستطيع أن تحمل أضعاف أضعاف وزن الفك . فالتجويف الذى يوجد بداخل الفك بطوله يسير فيه الشريان الفكى ، والأوردة الفكية وهو المصدر الرئيسى لتغذية الفك والأسنان والقناة التى يسير فيها اسمها القناة الفكية Mandibular Canal

كذلك أعجبنى فى كلام ابن النفيس وجود العظام السمسمانية التى قال ابن سينا

أنها موجودة بين الأصابع وفى أوتار الأصابع أو بين السُّلاميات ، ولو أن إنكاره لها لم يكن مبنيًّا على تشريح إذ قال إنه يعتقد أنها غيرُ موجودة وفى الواقع توجد عظمة سمسمانية واحدة فى يد الإنسان داخل الوتر للعضلة القابضة للإبهام وهذا الكلام لن يتغير لأنه مبنى على التشريح الدقيق لآلاف الأيدى إلَّا إذا ظهرت فصيلة جديدة من البشر .

كما أحسن ابن النفيس عند كلامه عن العظم اللامى فى الرقبة Hyoid Bome فوصفه بأنه علاقة وهذا صحيح لأن كثيرا من عضلات الفك والرقبة تنشأُ منه . وهناك عضلات خاصة لتثبيت العظم اللامى فمثلًا أهم عضلة لفتح الفم هى الذقنية اللامية Geno Hyoid Muscle فعند فتح الفم للأكل أو للتثاؤب مثلًا تعمل هذه العضلة وقد وجب عند هذا الشد من أسفل على العظم اللامى وإلَّا ارتفع إلى أعالى ولم ينزل الفك فتتقلص العضلات المرتبطة بالعظم اللامى من أسفل وتحفظه فى مكانه كما يعجبنى قوله التالى فى العظام وأنقله حرفيًّا :

والتجويف يقل إذا كانت الحاجة إلى الرقاية أكثر ويكثر إذا كانت الحاجة إلى الخفة أكثر هذا يُعْتبر بحسب الأُمور .

أحدها : اختلاف نوع عظام البدن الواحد فإن عظم الساق يحتاج إلى الخفة أكثر من عظم الفخذ لأن حاجته إلى الحركة أكثر من حاجة عظم الفخذ

ثانيها : اختلاف الأبدان فى القوة فإن البدن الذى عضله ضعيف الحلقة يحتاج أن تكون عظامه أخف لِتُمَكِّن القوة الضعيفة ولا كذلك البدن القوى .

ثالثها . اختلاف الأبدان فى السن فإن الشيخ تضعف قوته عن تحريك الثقل ، فتحتاج أن تكون عظامه أخف وذلك يحصل بسبب تخلخل عظامه لقلة اغتدائها (هذه الظاهرة نسميها الآن تخلخل العظام فى الشيوخ Senile osteoporosis ولو أن سببها ليس قلة التغذى كما قال) .

رابعها : اختلاف نوع الحيوان ، فإن الحيوان الشديد البطش كالأسد يحتاج أن تكون عظامه شديدة القوة ، إنما يكون كذلك إذا لم يكن تجويفها كبيرًا . هذا

الكلام فى جماته صحيح وليس من المنتظر بالطبع أن يعرف ابن النفيس الهرمونات المسئولة عن هذا .

أما عند كلامه عن عظام الجمجمة يقول مصححا ما قاله ابن سينا « الجواب . أما ما قيل عن الأمر الأول فإننا وإن سلمنا أن الأجزاء التى يجب تخلخلها من عظم الرأس يَقِل قبولها للآفات الخارجية بما قلتم لكنها لا محالة شديدة القبول لمثل العفونة ونحوها وهذا كلام صحيح .

ويقول : « وأما الذى رأسه من عظم واحد قد كان فاسد الذهن ردئ الأخلاق لأجل احتباس الأبخرة الكثيرة فى دماغه » وهذا كلام غير صحيح لأن هذه الحالة تعرف الآن بتضيق الجمجمة Craniostenosis ولا توجد أبخرة تتصاعد من الدماغ لتحتبس ولكن فساد الذهن يأتى من نقص نمو المخ فى هذه الحالات

سادتى .. لن أطيل فالكتاب طويل جداً وهكذا يمضى ابن النفيس يصيب مرة ، ويخطئ مرة ، ولكنه مفكر عظيم بلا شك ويكفيه فخراً أنه أصاب تماماً فى كثير من المواضع ،

وقبل أن أختم كلامى أذكركم بما قلته عن ابن سينا فى أول مرة تكلمت عنه وعددت أخطاءه فقد قلت ترى ماذا يقول الأطباء بعد ألف سنة إذا قرأوا كتبنا التى نتداولها وندرسها الآن ؟ إنهم فى الغالب لن يفهموها وإذا فهموها فسوف يضحكون من جهلنا هذا إذا لم يقض الإنسان على نفسه بأطماعه وغبائه قبل ألف سنة بكثير .

إن عيب الأطباء القدامى أنهم لجأوا إلى التفكير البحت دون تشريح جيد ، أو تجربة والطب الحديث قام على التشريح الدقيق والتجارب والعلم الكامل بالكيمياء الحيوية ووظائف الأعضاء وهى أسس الطب الآن .

أيها السادة . أشكركم مرة أخرى لحسن استماعكم لهذا الموضوع الجاف وإنى عندما أتكلم عن الطب فإنما أقول كلاماً موضوعياً حيادياً فأنا لا أحارب أحداً أو أحابى الآخر وشكراً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسن على ابراهيم
عضو المجمع

القرآن وتعريب الإنسان

للأستاذ علي رجب المدني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الأمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وعلى آله وأصحابه ومن تبعه إلى يوم الدين

من السهل على الباحث المتعمق فى أهداف القرآن وتوجهاته أن يدرك حقيقة أن القرآن قد أرسى أول ما أرسى مجموعة من التعاليم التى أوجب اعتبارها من المسلمات ومن أهمها ما يلى :

١ - أنه آخر كتب الله المنزلة ، الجامع لخلاصة تعاليمه إلى الإنسانية جمعاء لا إلى قوم بعينهم .

٢ - أنه خاطب الناس (كل الناس) بقوله : « يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وجعلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » ، وقوله : « يٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » .

٣ - أنه انطلق من مبدأ استنكار كل ما من شأنه أن يفرق بين إنسان وإنسان من عرق ولون أو انتماء عصبى أيًّا كان مأتاه .

٤ - أنه تجنب مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بنسبته إلى العرب ، ولم يورد للعرب ذكرًا إلا فيما تحدث به عن الأعراب فى بضع آيات ، ولكنه تحدث عن القرآن ذاته بقوله : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ،

(٭) ألقى هذا البحث فى الجلسة السادسة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م

على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » وفى آية أخرى : « وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا » ، « قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ »

٥ ـ أن حكمة الله شاءت أن يختار صاحب رسالة القرآن من العرب المستعربة التى تنحدر من صلب إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وتتصل بالدم العربى من طريق زوج إسماعيل الجرهمية القحطانية « دعاة بنت مضاض » التى أنجب منها اثنى عشر ولداً من بينهم عدنان الذى ينتهى إليه نسب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ووصله بالدم المصرى عن طريق الأميرة المصرية الجدة هاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل عليهما السلام وبذلك وصل خاتم رسله بعدد من الأعراق ليكون مؤهلا للرسالة العظمى الجامعة التى تخاطب جميع الناس دون نظر إلى الإعراق والانتماءات ومهد بكل ذلك لفكرة الدمج المستهدف برسالة محمد تحت لواء قومية واسعة مشتركة هى قومية العقيدة الإيمانية التى تنحدر عن تعاليم القرآن المنزل بلسان عربى مبين .

وبذلك يتحقق ما استهدفه الله بقوله عز من قائل : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ » فتحدث فى الآيتين عن ذكر واحد هو آدم وأنثى واحدة هى حواء ، والمنحدرون عادة من أب واحد وأم واحدة يعدون إخوة لا يستقيم القول بأن فارقاً من لون أو عنصر أو غيرهما من شأنه أن يفرق بينهم أو يحول دون تعارفهم ، وامتزاجهم والتقائهم على صعيد الأسرة الواحدة .

٦ ـ أن القرآن يقوم على شقى التعاليم والإعجاز وإذا جاز أن يقال إن التعاليم قابلة للترجمة إلى لغات غير العربية فإن إعجازه المتمثل فى صياغته المتميزة وما تنطوى عليه من إيماءات وإشارات وصور لا يتسنى لأقدر المترجمين أن ينقلوا شيئاً منها إلى لغة أخرى ، هذا الإعجاز الذى يشكل الركن الركين فى تأثيره وهدايته وأخذه

بمجامع القلوب والعقول معًا . لابد للإحاطة به من الإحاطة باللغة العربية الفصحى وإجادتها إجادة تتيح للناطق بها أن يستوعب تلك الدقائق المعجزة التى تطرد عنه كافة الشبهات والشكوك التى تضعف الإيمان القلبى وتنزل به إلى الدرجة التى لا تؤهل صاحبها لأن يسلك فى عداد المؤمنين الصادقين الذين التزم الله لهم بالنصر والدفاع عنهم وبأن لا يجعل للكافرين عليهم سبيلًا .

ولقد أكدت أحداث التاريخ فى صدر الإسلام أن تعميم التعليم والتعلم للغة العرب كان يواكب حركة الانتشار للدعوة الإسلامية فى مختلف الأمصار مما أهل تلك الأمصار لأن يستوعبوها ويتكلموا بها على نحو جيد مكنهم من تلاوة القرآن بلغته وفهم مكنونات إعجازه حتى برز منهم جهابذة من أمثال سلمان الفارسى والأئمة أبى حنيفة النعمان والبخارى وسيبويه ، وابن جنى وابن العميد والصاحب بن عباد وأبى بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى وبشار بن برد وعبد الحميد الكاتب ، وأبى نواس وابن الرومى والطغرائى وابن سينا والإمام الغزالى وابن الحاجب الذين كانوا من الأعاجم (عدا ابن جنى فكان يونانيًّا) وغيرهم ممن عدوا بالآلاف حذقوا اللغة العربية وتبحروا فى علومها وألفوا بها العديد من المؤلفات القيمة التى ساهمت فى نشر حضارة الإسلام وأمجاده وفتوحاته وحفظ تراثه .

٧- يتبين من الأرقام المتقدمة أن اللغة العربية قد رشحها الله ضمنًا (باعتبارها لغة كتابه المنزل للإنسانية كافة) أن تكون هى أيضًا لغة الإنسانية كافة ، وارتفع بالانتماء العربى عن مفهوم الانتماء القومى الضيق القائم على التميز العرقى أو القبلى أو العنصرى إلى مستوى القومية الإنسانية العامة التى تنادى بأن كل إنسان أخ للآخرين دون أية فروق ، وأن ما بين الشعوب من فروق موروثة مرشح بنزول القرآن وانتشار دعوته للاضمحلال التدريجى الذى من شأنه أن يجعل الرباط بين المسلمين لا يختلف عمَّا كان يربط أبا حنيفة والبخارى وسيبويه وابن جنى بالمجتمع العربى المسلم . ويؤكد القاعدة التى أرساها محمد صلى الله عليه وسلم فى

حديثه المشهور تلك القاعدة التى تقضى بأن العربى من يتكلم لغة العرب وذلك فيما أورده ابن عساكر من قوله صلى الله عليه وسلم . « ليست العربية فى أحدكم من أب أو أم وإنما هى لسان فمن تكلم العربية فهو عربى » .

والمؤمن بالقرآن عندما يستوعب هذا التحليل لا يتردد فى التخلى عن كل ما يفرقه عن المجتمع العربى أو يجعله فى موضع الغريب عنه ، وبذلك يتحقق الهدف الأسمى للرسالة العامة التى اتخذت شعارًا لها قول الله تعالى فى القرآن : « إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » .

٨ – والحق أن الله رشح البشرية للتآخى فى ظل الأمة الواحدة من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ، وذلك بأن جعل الإسلام دينًا أوحد لكافة الرسل وهو ما ورد صريحًا فى سياق العديد من آيات القرآن الكريم فمن قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ .. » إلى قوله عز من قائل : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . . » إلى قوله عز من قائل على لسان رسوله نوح عليه الصلاة والسلام : « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ »

إلى قوله جل شأنه فيما يحكيه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ، وقوله عز وجل . « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » ، ثم قوله على لسان رسوله يوسف عليه الصلاة والسلام : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى

بِالصَّالِحِينَ » ، وقوله عز وجل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام : « يَا قَوْمِ إِنْ كُنتُم آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُم مُسْلِمِينَ » ، وقوله عز وجل على لسان سليمان في رسالته إلى بلقيس ملكة سبأ : « إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » ، وقوله على لسان سليمان عليه السلام أيضًا في حديث النملة : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا من قَوْلِهَا وقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

وقوله عز وجل على لسان بلقيس : « وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ ربِّ الْعَالَمِين » وقوله سبحانه وتعالى على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام : « فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » إلى قوله عز شأنه : « وَمَن يبتغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنهُ وَهُوَ فِي الآخِرةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

وعلى هذا يمكن القول بعدم جواز الادعاء بوجود أديان سماوية أخرى بغير الإسلام لأن في مثل هذا القول منافاة صريحة للنصوص القرآنية المتقدمة .

ولقد اتفق المفسرون على أن ما ورد في خاتمة سورة (الكافرون) من قوله تعالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » يقوم على نفي الاعتراف من الله بدين غير الإسلام ، وأن هذا النص إما أنه ورد في سياق الجدل والتهكم أو أنه «وهو الأقرب إلى الصواب» يريد بالدين الجزاء فكأنه يقول : « لكم جزاؤكم ولى جزائى » إذ أن كلمة دين تطلق ويراد بها الجزاء ومنه قوله تعالى : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » ، أى يوم الجزاء وهذا التحليل من شأنه أن يجرنا إلى القول بخطأ كل أولئك الذين درجوا على التحدث عمّا يسمونه الأديان السماوية ، إذ لا يليق أن يرد مثل هذا التعبير مع علمنا بأن الدين عند الله الإسلام وأنه دين جميع الرسل .

وإذا تلونا قوله تعالى في القرآن المجيد : « يأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وإِنَّ هٰذِهِ

أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُونِ »
فإننا نوقن بأن الله استهدف وحدة الشعوب الإنسانية وجعلها أُمة واحدة منذ أن بعث أبانا آدم عليه السلام بدعوة الإسلام ، وفقًا لِمَا ورد بقوله تعالى : « وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » سورة يونس الآية ١٩ وقد ذكر المفسرون أن الناس كانوا أُمة واحدة على دين الإسلام منذ آدم عليه السلام إلى عهد نوح عليه السلام ، ثم من عهد إبراهيم عليه السلام إلى عهد عمرو ابن لحيّ الذى أورد الكلبى فى كتابه (الأصنام) أنه أول من أدخل فى العرب عبادة الأصنام بعد أن كانوا على دين إسماعيل عليه السلام ، وكان عمرو هذا يتولى الحجاجة على الكعبة وقد استورد عبادة الأصنام من وادى الأردن عندما ذهب إليه فى زيارة .

وفى قوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » إشارة إلى أنه وإن كانت الأديان السماوية لا تتعدد وإنما تنحصر فى دين واحد هو الإسلام بالنسبة لكافة الرسل إلا أن لكل من أُولئك الرسل شريعته . فالشرائع تعددت أما الأديان فلا وليس ثمة من دين سماوى غير دين الإسلام .

ولئن لم يكن الله قد أوجب عالمية اللغات التى نزلت بها الكتب والصحف على الرسل السابقين لانتفاء عالمية دعوتهم وقصرها على شعوبهم تمهيدًا للرسالة العامة العظمى التى اختار الله لها محمدًا صلى الله عليه وسلم ، ولأن هؤلاء الرسل كانوا قد زودوا بمعجزات مادية حسية كتلك التى زود بها إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومن قبلهم نوح وهود وصالح ويونس ، وغيرهم ، فإن الأمر مختلف بالنسبة لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم العامة لجميع البشر فإن الله اقتضت حكمته أن يقصر معجزة محمد على ما أودع القرآن من إعجاز يتفق مع ما انتهى إليه أمر البشرية من تطور عقلى وتهيؤ لاستيعاب المعجزة التى تخاطب العقل المستكمل لنضجه ، حتى تكون ملتقى وملاذًا لكل شعوب الأرض التى تتحد فى ميزة العقل الذى أراد الله أن تقوم وحدة المجتمع الإنسانى وحضارته على أساس منه .

وعلى ذلك فإن تعلم لغة القرآن حق من حقوق الإنسان أينما كان يتحد مع التزامه باستيعاب تعاليم القرآن وإعجازه ويجعل تعميم وتعليم هذه اللغة واجبًا قدسيًا على جميع المؤمنين بالقرآن وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولو تحقق للإنسانية هذا الحلم لسلمت من جميع الشرور التى حاقت بها وأسباب التطاحن التى هيمنت على حياتها طوال القرون الماضية التى تلت نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، ولوقوف الإخاء على مجتمع إنسانى واحد لا يحمل فى داخله شيئًا من أسباب التناحر والتصادم ويتمتع من الإيمان بالله بالقدر الذى يؤهله لنصرته ودفع الأذى عنه وفق ما تعاهد به فى العديد من آيات كتابه كقوله سبحانه :

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »

وقوله : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ » ، وقوله : « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا » ، وقوله : « وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا » ، وقوله عز شأنه : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » صدق الله العظيم . إلى غير هذا من الآيات العديدة التى وردت فى هذا المعنى .

وخلاصة القول أن الإيمان هو سبيلنا الأوحد لاكتساب مرضاة الله وحمايته وأمنه ونصرته ، ولا سبيل إلى نمط الإيمان الذى يؤهل الإنسان لذلك إلا بالاقتناع العقلى والانصياع الوجدانى اللذين لن يتحققا لأحد بدون قراءة القرآن بلغته والتضلع فيها يؤهل القارئ لإدراك مكامن إعجازه وأبعاد ما ترمى إليه آياته .

فإذا تسابق الناس إلى تعلم العربية وتحرى الدقة فى النطق بها والقدرة على الغوص إلى مكنوناتها فإن ذلك من شأنه أن يحقق هدفًا مزدوجًا يتمثل فى سهولة الوصول إلى منبع الهداية الذى تلتقى حوله العقول والمشاعر بالقدر الذى يرتقى بمطامح الإنسان ويسمو به إلى مرتبة من الصفاء والروحانية يتخلص بها من نوازع الشر فيه ويتأهل بها لمفهوم المحبة والمؤاخاة ،

والبحث عن السلام واجتناب أسباب العداوة والبغضاء والتناحر . وهو الهدف الذى تتركز فيه أنظار الفلاسفة ودعاة الفضيلة والإصلاح فى كل زمان ومكان.

وهنا أرى أن أعرض خلاصة (مشروع الصندوق العالمى لتعميم لغة القرآن)

إنه مشروع يقوم على الاستفادة من مستحدثات العلم والتقنية فى تيسير إيصال فرص الإلمام باللغة العربية إلى كل الناس دون استثناء ، بدءا بفئتى العرب والمسلمين اللتين يتحتم أن تنهدم بينهما الأسوار ، والحواجز وتنصهرا فى بوتقة العروبة كأنموذج متحضر ومتمكن من قيم الأخلاق والمروءة والمسالمة والتحضر، والبحث عن المحبة بالقدر الذى يستهوى كل فئات المجتمع الإنسانى المتعطشة لكل ذلك ويستميلها إلى نفس السبيل ، ويجعلها تتعشق من تلقاء نفسها تعلم لغة القرآن حتى تدرك معنى الإخاء ووحدة الأسرة اللذين يدعو إليهما القرآن فيما مر من آيات وفى غيرها مما لم يرد ذكره .

الصندوق الدولى
لتعميم اللغة العربية الفصحى

إن مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذى يضم النخبة الممتازة من أعلام العربية المتمكنين فيها والمتمتع بالشهرة العالمية التاريخية التى ترتفع به إلى مصاف أعلى الأكاديميات العلمية المتخصصة فى العالم المعاصر هو الهيئة المؤهلة لتبنى الدعوة ، والعمل على تحقيق فكرة هذا الصندوق الذى سيتكفل بتوفير الموارد اللازمة للاتفاق على برنامج يبدأ بإعداد أحدث الوسائل التعليمية المتمثلة فيما يتسنى استخدامه من وسائل تقنية وتجنيد العلماء المتخصصين فى حقل اللغة العربية الذين يتكفلون بما يتاح تقديمه لهم من تلك الوسائل بإيصال معلوماتهم إلى كل مستمع أو مشاهد فى أطراف الأرض كلها ، مستخدمين أحدث وأيسر ما وصلت إليه الأجهزة النظيرة فى مضمار تعليم اللغات فى الدول المتقدمة التى دأبت على تبسيط برامج تعليم لغاتها على النحو الذى نسمعه كل يوم من محطات إذاعة تلك الدول ، وما نشاهده فى الأشرطة المسموعة والمرئية التى دأبت على تعميمها ووضعها تحت تصرف كل من يطلبها فى

جميع أرجاء المعمورة . ولسنا فى هذا الصدد بأقل استعدادًا وقدرة من غيرنا .

وإذا كان المجمع يتحرج من أن يكون له دور ذو طبيعة مادية فإنه لا أقل من أن يصدر مباركته لهذا المشروع والتوصية لتنفيذه بالاستعانة بهيئتى اليونسكو الدولى والعربى واقتراح تشكيل هيئة خاصة به تعمل تحت إشراف كل من المجمع ، واليونسكو مكونة من شخصيات تشتهر بكفاءتها ونزاهتها وإيمانها بأهداف هذا المشروع .

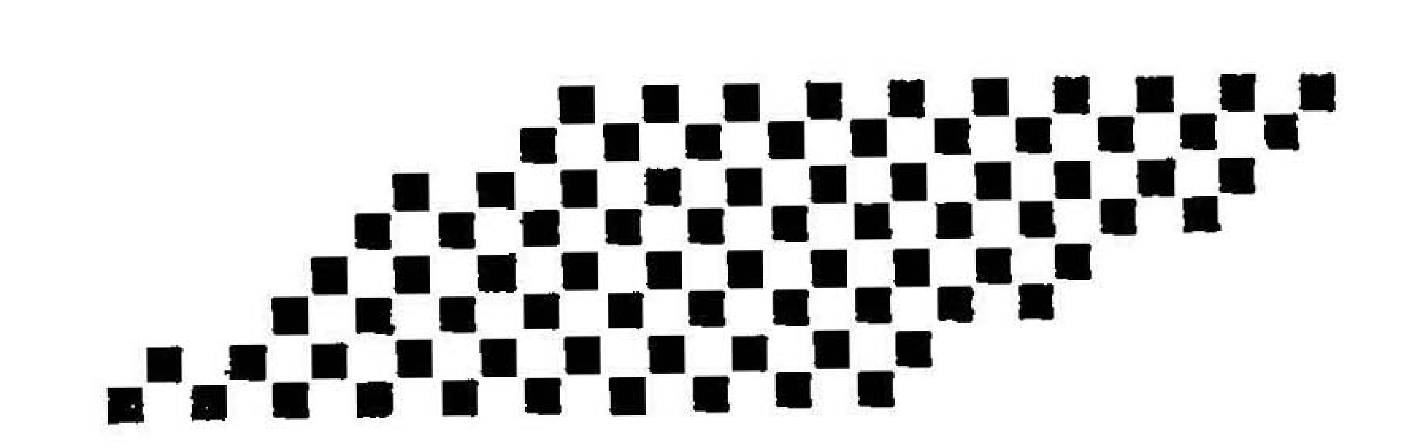
وواضح أن هذا المشروع إنما يقوى على الوقوف على قدميه إذا ما اتجهت إليه الحكومات العربية والإسلامية باهتمامها وأولته من إيجابيتها القدر الذى يستحقه .

لذلك

أرجو أن يتفضل مؤتمر المجمع السادس والخمسون الموقر بأن يصدر توصيته بتأييد المشروع على النحو المتقدم .

وشكرًا ،

على رجب المدنى
عضو المجمع (من الجماهيرية الليبية).



منهج طه حسين في الدراسات الأدبية

للدكتور شوقي ضيف

يعد طه حسين الرائد الفذ للدراسات الأدبية العربية فى القرن العشرين ، وعوامل مختلفة تضافرت فى إحلاله هذه المنزلة الرفيعة ، ولكى تتضح لنا ينبغى العودة إلى تكوينه الأدبى فى نشأته الأولى حين كان طالبًا بالأزهر منذ السادسة عشرة من عمره وكان يختلف إلى دروس الشيخ (*) سيد المرصفى ، وفيها كان يدرس لطلابه نصوصًا فى ديوان الحماسة لأبى تمام وكتابى الكامل للمبرد والأمالى لأبى على القالى ، وكان يملى عليهم شروحًا لما يقرأ ونظرات لغوية ونقدية ، من شأنها أن تكوّن فى الطلاب ملكةَ الكتابة وتذوقَ الأدب والفقه باللغة وجودة اللفظ ورصانة الأسلوب.

وافتُتحت الجامعة المصرية الأهلية سنة ١٩٠٨ فانتسب إليها ، وكانت قد دعت إليها طائفة من المستشرقين فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا ليحاضروا بها فى قسم الآداب ، وكان بينهم جويدى الذى عنى بعرض الأدب الجغرافى والتاريخى ، ونالينو الذى عنى بعرض تاريخ علم الفلك عند العرب ثم بدراسة تاريخ الأدب العربى فى العصرين الجاهلى والأموى ، وسانتلانا الذى عنى بدراسة الفلسفة الإسلامية ، واليونانية ، وليتمان أستاذ اللغات السامية ، وعنى بدراسة تاريخ الفلسفة . وظل طه حسين يستمع إلى محاضرات أستاذه المرصفى فى الصباح ، كما ظل يذهب فى المساء لاستماع هؤلاء المستشرقين .

واستقر فى نفس طه حسين مبكرا أنه ينبغى فى دراسة الأدب العربى الانتفاعُ بطريقة شيخه المرصفى التى تعين على تكوين

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة السابعة من جلسات المؤتمر (جلسة علنية مسائية) المعقدة مساء يوم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م.

الملكة الأدبية عند الطلاب وتصقل أذواقهم بما تعرض من النقد اللغوى وبيان الدقائق والأسرار البلاغية ، والانتفاعُ مع ذلك بطرق المستشرقين فى دراسة تاريخ هذا الأدب فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والفكر. لابد إذن فى دراسة الأدب من الأخذ بطريقة المرصفى التى تساعد على فهم النصوص الأدبية وتذوقها تذوقًا حسنًا والأخذ بطرق المستشرقين لاستنباط التاريخ الأدبى لهذه النصوص ومَنْ أنتجها من الشعراء والكتاب

وما توافى سنة ١٩١٤ حتى يضع طه حسين رسالة يحصل بها على درجة العالمية من الجامعة المصرية الأهلية ،اتخذ موضوعها دراسة أبى العلاء المعرى مفيدًا فيها من طريقة شيخه المرصفى فى فهم الشعر وتذوقه ومن طرق المستشرقين فى دراسة تاريخ الأدب دراسة تعين على فهم المؤثرات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية فى العصر كله . ويوضح تأثره العميق بطرق المستشرقين فى دراسته لحكيم المعرة ودرتها الفريدة قوله فى فواتحها :

«ليس الغرض فى هذا الكتاب أن نصف حياة أبى العلاء وحده ، وإنما نريد أن ندرس حياة النفس الإسلامية فى عصره ، فلم يكن لحكيم المعرة أن ينفرد بإظهار آثاره المادية والمعنوية وإنما الرجل وماله من آثار ، وأطوار نتيجة لازمة وثمرة ناضجة لطائفة من العلل اشتركت فى تأليف مزاجه ، وتصوير نفسه من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان . من هذه العلل المادى والمعنوى وإذا صح هذا كله فأبو العلاء ثمرة من ثمرات عصره ، قد عمل فى إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية » .

وما يلبث أن يعلن فى التمهيد أن مورخ الأدب الذى لا يؤمن بالمذاهب الحديثة ولا يصطنع فى البحث طرائقه الطريفة . ولا يطمئن إلى أن الحركة التاريخية جبرية ليس للاختيار فيها مكان لا يستطيع أن يوفّى دراسة أبى العلاء حقها فى رأيه . والمهمّ إعلانُه جبريةَ التاريخ الأدبى وأنه ثمرة علل ينبغى تبينُها فى دراسته ، وحار بعض الباحثين فى استشعار طه حسين لهذه الجبرية وتساءلوا هل اطلع على آراء تين

الناقد الفرنسى وما ذهب إليه من جبرية التاريخ الأدبى وجبرية علله المؤثرة فى سماته وخصائصه ولا موضع لهذا التساؤل ، فقد أعفانا هو نفسه من تعليل ذلك بما ذكر من أنه يتبع فيه فلاسفة أوربا والمسلمين ، أما فلاسفة أوربا فَمَنْ ذكره له منهم أساتذته المستشرقون ولا نعرف هل كان بينهم تين أو لم يكن ، وأما فلاسفة المسلمين فلعله يقصد ابن خلدون وما ذهب إليه من الجبرية التاريخية فى فلسفته الاجتماعية بمقدمته المشهورة .

وبذلك يرسم طه حسين منهجه فى دراسة تاريخ الأدب العربى ، فهو ليس سردًا لأخبار من هنا وهناك عن العصر وأدبائه ، بل هو دراسة جادة للأدب وأدبائه وللعوامل والمؤثرات الحتمية التى تتحكم فيه وفى منتجيه وما ينتجون من آثار أدبية ، حتى ليقول : « إن الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة يُجيدها الخطيب والرسالة ينمّقها الكاتب الأديب ، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء » . وقد يكون طه حسين مسرفًا فى تصور هذه الجبرية التى تشمل جميع الأدباء فى العصر دون أى تفريق بين أديب وأديب ودون أى مراعاة لفردية الأديب ومواهبه الذاتية ، غير أنه كان من الضرورى وهو يضع - لأول مرة - قواعد التاريخ للأدب العربى وأدبائه أن يقرع أسماع من يحاولون التصدى لدراسة هذا التاريخ بأن واجبهم أن يعكفوا على دراسة المؤثرات البيئية والسياسية والاجتماعية والعقلية والحضارية فى العصر وفى أدبائه وما أنتجوا من شعر ونثر ، ويوضحوها توضيحًا تامًا ، ومن الخير أن لا يعطوها صبغة الحتم والجبر والإلزام ، ولكن لابد من استقصائها حتى تستبين سمات الأدب فى العصر والعوامل التى تفاعل معها استبانة كاملة .

وجعل طه حسين الرسالة فى تمهيد وخمس مقالات ، وتحدث فى التمهيد عن مصادر الدراسة العربية القديمة والحديثة ومصادرها الإنجليزية والفرنسية ، وفى المقالة الأولى عرض زمان أبى العلاء ومكانه وشعبه ،

وموضع عصره من العصور العباسية ملاحظًا أن ربط مؤرخي الأدب العربي بين السياسة والأدب يجر إلى حيف شديد ، لأن الدولة قد تضعف ويظل الأدب مزدهرًا ولا يزال هناك من يردد هذا الرأي ، غير أنه من الصعب وضعُ بديل سوى السياسة للعصور الأدبية ، وهي في واقعها رمز ، لأن العصور الأدبية لا تنشأُ فجأة ولا هي تنشأُ بمراسيم سياسية ، إنما تنشأ تدريجًا وتتخذ حادثة سياسية كبيرة رمزًا لنشأتها على نحو ما صنعنا باتخاذ سنة ١٣٢ للهجرة بدءًا للعصر العباسي ، وكانت مقدماتُه بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات غير قليلة — ويعرض طه حسين في المقالة الأُولى أيضًا الحياة الاقتصادية والدينية والاجتماعية والعقلية والفلسفية والأدب في العصر والعلوم الأدبية واللغة .

وفي المقالة الثانية يتحدث عن حياة أبي العلاء فيعرض قبيلته وأسرته ومولده واسمه ولقبه وكنيته وتربيته وتعليمه ، ومراحل حياته وأحداثها مفصَّلةً غاية التفصيل . ويتناول في المقالة الثالثة أدبه وشعره في سقط الزند واللزوميات والدرعيات ونَثْرَه وأطواره وخصائصه . وفي المقالة الرابعة يعرض علمه وكتبه . ويتحدث في المقالة الخامسة عن فلسفته الطبيعية ، والإلهية والعملية وخصائصه الفلسفية .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه الرسالة تعد بدءَ التاريخ الدقيقِ لوضع الأُسس القويمة لتاريخ الأدب العربي ، بحيث يدرس دراسة علمية سديدة كما يدرس أعلامه دراسة تحليلية تتبين فيها روح العصر بكل مشخصاته الزمانية والبيئية ، وبعبارة أُخرى بكل مؤثراته — أو كما يقول بكل علله البيئية والسياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعقلية ، وقد جليَّ شخصية أبي العلاء جلاءً تامًّا وصور منزلته الأدبية والعلمية والفلسفية تصويرًا بالغ الدقة ، ومهما اختلفنا معه — أو اختلف بعض المعاصرين — إزاء بعض أحكامه عليه وخاصة على فلسفته وآرائه العقلية فإن هذه الرسالة تؤرخ — كما أسلفت — البدء الحقيقي لدراسات الأدب العربي وتاريخه في القرن العشرين إذ وُضعت على منهج سديد يستصفي مما اتخذه الغربيون في دراسات

الأدب وتاريخه من مناهج محكمة قويمة مع الانتفاع فيها بمنهج شيخه المرصفي وعنايته فيه باللغة والنقد وصقل الذوق الأدبي .

ولما أظهر في رسالته من الاستعداد العلمي في دراسة الأدب وتاريخه قررت الجامعة الأهلية إرساله في بعثة إلى فرنسا سنة ١٩١٤ ورأى نهضة الفكر الأوربي تعتمد على الأصول الكلاسيكية اليونانية واللاتينية . فأقبل على التزود من تلك الأصول بتعلم الإغريقية واللاتينية ، وأخذ يختلف إلى محاضرات دور كايم في علم الاجتماع ، وأعجبته دراساته الاجتماعية وأعد بإشرافه رسالته للحصول على الدكتوراه في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية كما توضحها مقدمته المعروفة وكان يختلف إلى محاضرات دييل عن الحضارة البيزنطية وليفي برول عن فلسفة ديكارت ولانسون عن تاريخ الأدب الفرنسي ، وكان يروع من شأن الذوق وما يثيره في الناقد الأدبي من انطباعاته وإحساسات وتأثرات بحيث يستهوى قارئه ويجذبه إلى ما يقوله ، وأعجبه منهجه التأثري الذاتي في دراسة الأدب ، واختلف إلى محاضرات كازانوفا في تفسير القرآن الكريم وهو في أثناء ذلك كله ظل يعنى بتاريخ اليونان والرومان عناية أتاحت له الحصول على دبلوم الدراسة العليا في القانون المدني الروماني .

وعاد إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩١٩ فعين بالجامعة المصرية أستاذاً للتاريخ القديم اليوناني والروماني . ويظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٥ وينشر خلال هذه السنوات طائفة من الكتب والمقالات تأليفاً وترجمة حول التراث اليوناني . ويصدر حزب الأحرار الدستوريين صحيفة السياسة في أواخر سنة ١٩٢٢ لتكون اللسان المعبر عن الحزب ومبادئه وأهدافه . ويصبح طه حسين كاتبها الأدبي . وينشر فيها يوم الأحد قصة ملخصة عن الأدب الفرنسي وكل يوم أربعاء ينشر فصولاً عن الشعر والشعراء في أواخر العصر الأموي والعصر العباسي الأول : بدأها في ديسمبر سنة ١٩٢٢ واستمر حتى فبراير سنة ١٩٢٤ وفيها عرض أبا نواس وشعراء الخمر واللهو من الوليد بن يزيد إلى مروان بن أبي حفصة ماراً بمطيع بن إياس وحماد عجرد وبشار ووالبة وغيرهم من المجان . وثار عليه كثيرون وعدوه مشوهاً لتاريخ العرب في حقبة باهرة من حقب تاريخهم زمن المنصور والمهدي والرشيد . ورد بأن العلم ينكر تقديس السلف ولا يعرف الهوى ولا العواطف واستشهد بعصور في تاريخ

اليونان القديم وتاريخ فرنسا الحديث كانت من أزهى العصور ومن أكثرها لهوًا ومجونًا وأضاف إلى هذه الفصول فصولًا عن شعراء الغزل فى العصر الأموى ، وجميع هذه الفصول منشورة فى الجزء الثانى من حديث الأربعاء ، وفى تضاعيفها نظرات وآراء فى الشعر العربى وتاريخه مما أفاده فى دراسة الأدب من أساتذته الفرنسيين ونراه فى المقالة السابعة من الجزء يتحدث عن الغاية من نقد الشاعر ويرجعها إلى محاولة فهم شخصيته ، وعصره وبيئته ، وما يحدثه شعره فى نفس الناقد من لذة فنية ، ويعرض فى إجمال منهج سانت بيف Sainte Beine فى نقد الشعراء وتحليل لشخصياتهم ومنهج تين Taine فى عدم عنايته بشخصياتهم وإنما بعصورهم وبيئاتهم والأمم التى ينتمون إليها ومنهج جول ليمتر Jules Lemaitre فى عنايته بتأثير الشعراء فى النفوس وما يبعثون فيها من العواطف ، ويرى الانتفاع بكل هذه المناهج فى دراسة الشعراء ، وانتفع أيضًا بمنهج أستاذه لانسون فى نقد الشعراء وأنه ينبغى أن يصور ما خلفوه من انطباعات فى نفوس النقاد عن طريق التذوق الشخصى لأشعارهم . وسيعود طه حسين إلى ذكر مناهج النقاد الفرنسيين فى دراسة الأدب عمّا قليل بصورة أكثر سعة وتفصيلًا .

وتتحول الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة حكومية منذ ١٩٢٥ ويصبح طه حسين أستاذًا فيها للأدب العربى وتاريخه ، وأخذ فى محاضراته طوال هذا العام يعنى بدراسة العصر الجاهلى أقدم عصور الأدب العربى ، وما أن استدار العام حتى نشر كتابه : « فى الشعر الجاهلى » مستعينًا فيه بمناهج الغربيين فى دراسة الشعر اليونانى القديم ، وأحدث الكتاب ضجة هائلة فى الأوساط الدينية والعلمية والسياسية والرأى العام بشكّه الواسع فى الشعر الجاهلى وتعرضه فيه لبعض مسائل تمس الدين ، فصودر الكتاب . وفى السنة التالية أعاد نشر الكتاب فى صورة معدلة وبعنوان جديد هو : « فى الأدب الجاهلى » وفيه رسم منهجه فى دراسة تاريخه ، وكانت بعض أسس هذا المنهج قد نشرها مفرقة فى رسالته عن أبى العلاء وفى المقالات التى نشرها فى السياسة والتى تحدثنا عنها آنفًا

فضم شوارد تلك الأسس وألف منها نسقًا واضح المعالم لمنهجه .

ويتحدث فى فواتح الكتاب عن دراسة الأدب العربى وتاريخه بمصر فى معاهده المختلفة ويقول إنها عقيمة أشد العقم مجدبة أشد الإجداب إذ لا تنشئ ملكة أدبية . ولا قدرة على النقد والتحليل ولا تصورًا سليمًا لتاريخ الأدب ودراسة شخصيات الأدباء وما ينتحون من شعر ونثر ، ويقول إن مؤرخ الأدب العربى لابد له من أن يكون واسع الثقافة باللغة وعلومها والعلوم الدينية والتاريخ وتقويم البلدان والفلسفة والآداب الأجنبية القديمة والحديثة ، ويعرف الأدب بأنه مأثور الكلام شعرًا ونثرًا ، ويقسمه إلى أدب إنشائى وهو ما ينتجه الأديب من آثار فنية شعرية ونثرية وأدب وصفى وهو الذى يدرس الأدب الإنشائى مفسرًا أو مؤرخًا ومحللًا ونافدًا ، ويقول . إن الأدب الوصفى هو ما سماه المحدثون باسم تاريخ الأدب

ويأخذ طه حسين فى بيان مقاييس التاريخ الأدبى ، ويبدؤها بالمقياس السياسى وما يترتب عليه من تقسيم الأدب العربى إلى عصور ، ويرفضه كما رفضه فى مقدمات رسالته عن أبى العلاء لما يجر إليه من الربط بين قوة الأدب وضعفه وقوة الدولة من الناحية السياسية وضعفها ، فهو راق خصب إذا ارتقت الحياة السياسية . وهو جدب منحط إذا انحطت الحياة السياسية ومعروف أن الحياة السياسية العربية انحطت فى القرن الرابع الهجرى وارتقى الأدب وازدهر ، فالسياسة لا تصلح مطلقاً – كما يقول – أن تكون مقياسًا دقيقًا للحياة الأدبية .

ويعرض المقياس الثانى لدراسة تاريخ الأدب ويسميه المقياس العلمى ، وهو مقياس اشترك فى وضع مناهجه ثلاثة من مؤرخى الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر أرادوا – بتأثير النهضة العظيمة للعلوم الطبيعية فى عصرهم وسيطرة مناهجها وقواعدها فى دراسة الفلسفة وظهور ما سمى فيها بالفلسفة الوضعية – أن يخضعوا الأدب وتاريخه لقوانين ثابتة كقوانين العلوم الطبيعية المطردة الثابتة ، ونهض بذلك ثلاثة من أفذاذ مؤرخى الأدب

الفرنسيين هم : سانت بيف Sainte Beune وتين Taine وبرونتيير Brunetiire أما الأول فرأى أن يرجع هذه القوانين إلى دراسة شخصيات الشعراء والكتاب دراسة نفسية عضوية تشمل عصورهم وأوطانهم وأسرهم وتربيتهم وتعلمهم ، وثقافتهم وتكويناتهم الجسمية والعقلية النفسية وصلاتهم الاجتماعية وجوانب ضعفهم وكل ما اضطربوا فيه من آراء ومن نجاح وإخفاق حتى إذا اتضحت فى شخصية الأديب كل هذه الجوانب استطاع مؤرخ الأدب أن يعرف ما يميز شخصيته ، وما يشترك فيه مع شخصيات أخرى بحيث يكوّن معها فصيلة أدبية فى الأمة على نحو ما يصنع علماء النبات فى تبين الفصائل النباتية المختلفة إذ يُسْتَخْلَصُ للفصيلة الأدبية قانونها العلمى الأدبى كما يَسْتَخْلِصُ هولاء العلماء لفصائل النبات قوانينهم العلمية الصرفة .

ومضى تين إلى نهج أبعد ، إذ لم يعتد فيه بشخصية الأديب الفردية ، إنما اعتد بقوانين حتمية جبرية تطبق على جميع أفراد الأمة . دون أى استثناء ، كقوانين الطبيعة التى تخضع فيها جميع الجزئيات لكل قانون خضوعاً مطلقاً دون أى شذوذ ، ورد هذه القوانين إلى ثلاثة ، وهى الجنس والبيئة أو المكان ، والعصر أو الزمان — أما الجنس فيُمثل فى الفطرة الموروثة لكل أمة تنتمى إلى أصل واحد ، وأما البيئة فيقصد بها الوسط المكانى الذى ينشأ ويضطرب فيه جميع الأفراد فى الأمة بحيث يشتركون فى صورة واحدة من الروح الاجتماعية ومن الأخلاق والعادات وأما العصر فيقصد به الظروف السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية ، فالشاعر والكاتب إنما هو أثر من آثار الجنس والبيئة والعصر ، والغرض القويم من دراسة تاريخ الأدب إنما هو بيان هذه المؤثرات أو بعبارة أدق القوانين التى أحدثت الكاتب أو الشاعر وأرغمته على أن ينتج ما أنتج من نثر أو شعر .

وأما برونتيير فقاده الأخذ بمناهج العلوم الطبيعية وقوانينها الجبرية فى دراسة الأدب إلى تطبيق ما ذهب إليه داروين فى علم الأحياء من نظرية التطور أو نظرية النشوء والارتقاء فوضع فى ذلك كتابه :

« تطور الأنواع الأدبية » محاولاً تقسيمها في الشعر والنثر إلى فصائل كفصائل الكائنات الحيوانية فهي مثلها يتولد بعضها من بعض ، وقد تتلاشى كما تلاشت بعض فصائل الحيوان ، وأخذ يطبق ذلك على المسرح والنقد الأدبي والشعر الغنائي ، واتخذ من ازدهار النوع الأخير بفرنسا في القرن التاسع عشر دليلاً على أن نوعاً أدبياً تلاشى في نوع آخر ، إذ ذهب إلى أن هذا النوع أو الشعر لم يتطور عن أصل من نوعه ، إنما تطور عن الوعظ الديني الذى ازدهر بفرنسا في القرن السابع عشر ثم ضعف وعاد يحيى من جديد في هذا الشعر الغنائي للقرن الماضي .

ويعقب طه حسين على هذا المقياس العلمي عند مؤرخي الأدب الفرنسيين الثلاثة بأنهم كانوا غير موفقين فيما حاولوا من وضع قوانين علمية للأدب وتاريخه كقوانين العلوم الطبيعية لأن تاريخ الأدب لا يمكن أن يكون علماً خالصاً ، إذ لا يمكن لمؤرخ الأدب أن يبرأ من شخصيته وذوقه على نحو ما يبرأ عالم الطبيعة في وضع قوانينها العلمية وهداه التفكير إلى مقياس ثالث لتاريخ الأدب سماه المقياس الأدبي . وهو فيه يفسح مجالاً واسعاً للتذوق وتعبير مؤرخ الأدب عن انطباعاته إزاء الأثر الأدبي وصاحبه ، حتى يمتع عقول قرائه وقلوبهم بتأثراته الذاتية . وهو في ذلك يستضيء بآراء أستاذه لانسون ، مؤرخ الأدب الفرنسي وما كان يذهب إليه من الحملة على أصحاب المنهج العلمي السالف لما يؤدى إليه من مسخ تاريخ الأدب في رأيه ، إذ يخليه من شخصية المؤرخ الأدبي وتذوقه الشخصي ، ويجعله جافاً مجدباً لا يحبب الأدب إلى القراء

ولم يجر مع أستاذه إلى نهاية الشوط ، فقد رأى أن يفيد مؤرخ الأدب من المناهج العلمية السالفة وأن يضم إليها تأثره وتذوقه للآثار الأدبية ، بحيث لا يطغى التذوق والتأثر أو بعبارة أخرى لا تطغى شخصية المؤرخ الأدبي على تاريخ الأدب وتتحكم فيه ، وإلا أصبح فناً ولم يعد تاريخاً أدبياً وكما أنه ينبغي أن لا يصبح علماً خالصاً كذلك ينبغي أن لا يصبح عملاً فنياً خالصاً ، ومنهجه الذى ارتضاه بذلك لدراسة تاريخ الأدب أن يتخذ فيه سبيلاً

وسط بين المناهج العلمية الصارمة السالفة وبين منهج لانسون التأثرى الذاتى ، وتأثر بلانسون أيضًا فيما ذكره من أن مؤرخ الأدب ينبغى أن يستعين بمعارف متنوعة من التاريخ الحضارى للأمة وتراجم الأدباء وتواريخ العلوم والفلسفة والعلوم اللغوية ، مما جعله يذهب إلى أن دراسة الأدب ينبغى أن تمر بمرحلتين : مرحلة إعداد يتقن فيها مؤرخ الأدب علومَ النحو وفقه اللغة ، والصرف والبيان والتاريخ ومعرفةَ مناهج البحث الأدبى ، حتى يستكشف النص الأدبى ويحققه ويضبطه ، ومرحلة ثانية تلى مرحلة الإعداد ، وفيها يتبين مواضع الجمال فى الأثر الأدبى معتمدًا فى ذلك على الذوق الشخصى وبيان انطباعاته إزاءه مع ما ينبغى له من الحرية الفكرية فى البحث والنقد والتحليل .

ويدرس طه حسين بعد بيان منهجه وتفصيله الأدب الجاهلى محتكمًا فى دراسته إلى مذهب الشك الذى أوجب استخدامه الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى البحث ، وهو يتلخص فى أن الباحث ينبغى أن يدرس موضوعه خالى الذهن مما قيل فيه دون استشعار أى شىء من عواطفه الدينية والقومية وقد مضى على هدى هذا المنهج لا يقبل حكمًا ولا رأيًا مما قاله القدماء إلَّا بعد تمحيص دقيق له ، ولا يلبث أن يعلن أنه درس الأدب الجاهلى دراسة علمية انتهت به إلى نظرية عامة هى أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًّا ليست من الجاهلية فى شىء وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، ولا ينبغى الاعتماد عليها فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة للعصر الجاهلى ، وتحدث عن أسباب الوضع والانتحال فى الشعر الجاهلى وردها إلى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة ، ثم درس الشعراء الجاهليين دراسة تطبيقية ، وبدأ بشعراء اليمن وربيعة وشك فى حقيقة امرئ القيس ، وانتهى إلى رفض شعره وأشعار اليمنيين ورفض – أو كاد يرفض – أشعار شعراء ربيعة ، إذ جمهورها – فى رأيه منتحل مصنوع ، وذهب إلى أنه لم يسلم من أشعار مضر من الانتحال إلَّا القليل ، ومن هذا القليل مدرسة زهير وعنى بدراسة شعرها وخصائصه ، وأنكر النثر الجاهلى جملة ، وقال إننا لانستطيع أن نخلِّص

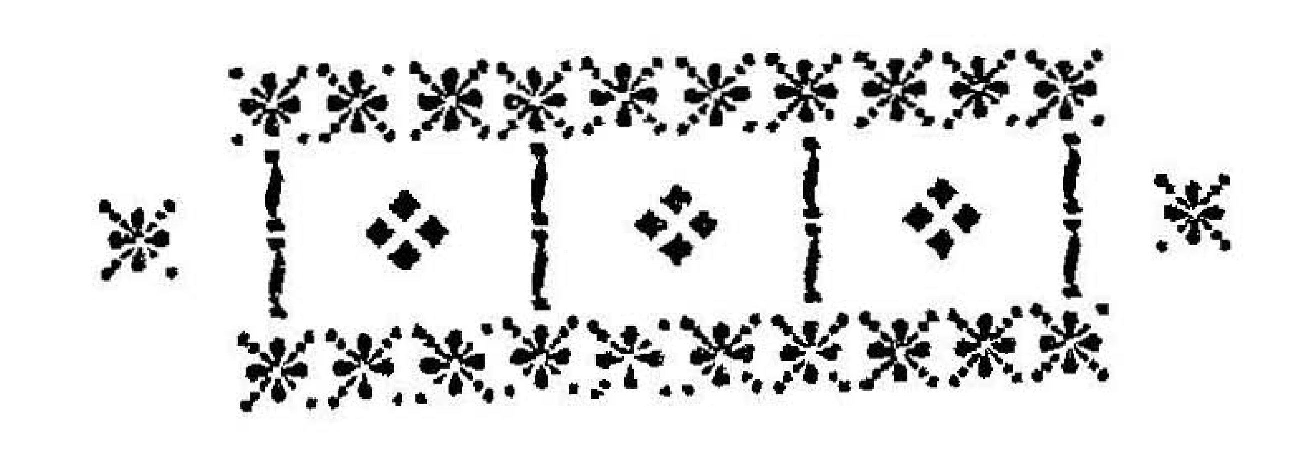
الأمثال الجاهلية من الأمثال الإسلامية ، فقد اختلط النوعان من الأمثال اختلاطًا واسعًا . وكتبت عشرات المقالات فى الصحف وألفت طائفة من الكتب تعارض نظرية الكتاب فى أن الكثرة من الشِّعر الجاهلى منحولة موضوعة ، غير أن النظرية أدت دورًا مهمًا فى دراسة هذا الشِّعر إذ أصبح شعراوه لا يدرسون إلّا بعد مراجعة دقيقة لروايات أشعارهم ونفى الزائف منها والاعتماد على الوثيق منها الذى لا تداخله الشبهة والارتياب .

ونمضى مع طه حسين إلى سنة ١٩٣٣ وفيها ينشر كتابًا عن حافظ وشوقى وهو فى مجموعة نقد للشاعرين الكبيرين . وينشر طائفة من المقالات فى بعض الصحف اليومية عن شعراء جاهليين ومخضرمين ، اختار فيها لكل منهم قصيدة مصورًا فيها انطباعات له بديعة ممتعة ، وجمعها فى الجزء الثانى من حديث الأربعاء – وألقى مجموعة من المحاضرات تحدث فيها عن منزلة الأدب العربى بين الآداب القديمة الكبرى : اليونانية واللاتينية والفارسية ، ورأى أنه يتقدم الأدبين اللاتينى والفارسى وأخذ فى عرض النثر أثناء القرنين الثانى والثالث للهجرة وأعلامه النابهين : سالم مولى هشام بن عبد الملك كاتب الإنشاء فى دواوينه وخليفته فى الدواوين الأموية . عبد الحميد الكاتب وذهب إلى أنه كان يتأثر فى صياغة كتابته باليونانية الكثرة استخدامه للحال ، وهى لازمة تلاحظ عند أستاذه سالم من قبله وتحدث عن ابن المقفع وشبهه بالمستشرقين الذين يحسنون العربية ويعيبهم أحيانًا الأداء السديد غير آبه بثناء القدماء عليه وعدهم له أحد الأدباء الأفذاذ الذين يتقدمون أدباء العصر العباسى وكُتّابه ، ونوه بالجاحظ وبرسالته البديعة « التربيع والتدوين » . وأضاف إلى هذه المحاضرات محاضرات عن كبار الشعراء فى القرن الثالث الهجرى . أبى تمام ، والبحترى وابن الرومى وابن المعتز . ونشر هذه المحاضرات جميعًا فى كتابه : « من حديث الشِّعر والنثر » وهو يجلو جوانب من الأدب العربى نثرًا وشعرًا فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وفى سنة ١٩٣٧ أصدر كتابه مع المتنبى وهو فيه يدرسه دراسة نفسية تاريخية فنية . تتبعه فيها

منذ مولده ونشأته فى أسرة متواضعة . ورأى أن شعوره بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين كان العنصر الأول المؤثر فى شخصيته وبغضه للناس وما أخذ حياته من الشذوذ ، ويرافقه فى تعلمه وارتحاله إلى البادية وبدء نظمه للشعر وتعرفه على مبادئ القرامطة ومفارقته للكوفة فى السابعة عشرة من عمره وإلمامه ببغداد لمدة قصيرة وتحوله إلى الشام وثورته فيها وسجنه ومديحه للأمراء هناك وإقامته فترة فى بلاط سيف الدولة ، وتحوله إلى كافور بمصر وفراره منها إلى العراق وارتحاله إلى إيران لمديح ابن العميد وعضد الدولة ، ويعود من لديهما ويفتك به القرامطة فى طريقه إلى بغداد . ويدرس طه حسين المتنبى فى كل ذلك محللا نفسيته وشخصيته وشعره ويحمل عليه مراراً ويقول إنه كان متهالكاً على المنافع العاجلة وطلب المال من ممدوحيه الكثيرين ، وصب عنايته فى الكتاب على شخصية المتنبى لا على شعره ، وعلى جوانبه التاريخية لا على جوانب فنه .

ويشمل الجزء الثالث من حديث الاربعاء وهو يضم مقالات متنوعة بعضها نشره فى صحف يومية منذ سنة ١٩٢٣ وبعضه نشره بها فى السنوات الأخيرة ، ويدخل فى القسم الأول ما كتبه من مقالات عن القديم ، والحديث والرافعى وعن أعمال بعض المفكرين والباحثين والأدباء ويدخل فى القسم الثانى ما كتبه من مقالات نقد فيها الإبداع الشعرى عند على محمود طه وإبراهيم ناجى ومحمود أبى الوفا وإيليا أبى ماضى وفوزى المعلوف ويعود إلى أبى العلاء ، فيعرض طائفة من شعره وفكره وفلسفته فى كتابه : « مع أبى العلاء فى سجنه » ثم يعود إليه ثانية فى كتابه « صوت أبى العلاء » ناثراً طرائف من شعره . وطه حسين – بكل ما قدمت – يعد الرائد الموجه الفذ لدراسات الأدب العربى وتاريخه ودراسات شعرائه المبدعين فى القديم والحديث .

شوقى ضيف
الأمين العام للمجمع



التربية المثلى للشباب في ضوء الإسلام

للدكتور حسن الفاتح قريب الله

حرص الإسلام على تربية النشء من الذكور والإناث فهيأ لهم ولما يزالوا فى بطون أمهاتهم الرعاية التامة، وجعل لميلادهم فرحة فى الأسرة فسن لهم النسك[1] أو العقيقة إعلانا له[2]، وأوصى باختيار أحسن الاسماء للأبناء[3]، وشارك النبى عليه الصلاة والسلام فى تسمية بعضهم حيث سمى ابنا لأسماء بنت أبى بكر بعبد الله بن الزبير[4]، كما وضع إطارا عاما لتسمية المولودين فى عصره وبعده، فقال: إن أحب أسمائكم إلى عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة؛ وقال: لا تسمين غلامك يسارا ولا رباحا ولا نجيحا ولا أفلح؛ فإنك تقول: أثمّ هو ؟ فلا يكون، فيقول. لا. أما هن أربع، فلا تريدن عليها[5].

وأوصى رسول الله ﷺ الأبوين بمساعدة أبنائهم على الاستمرار على الفطرة، فلا يهودانهم، ولا يمجسانهم ولا ينصرانهم فقال: كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الثامنة من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الثلاثاء ٩ من شعبان سنة ١٤١٠هـ الموافق ٦ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م.

(١) الغزالى: إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٩٢ فما بعدها.

(٢) الفيروزبادى: سفر السعادة ص ٨٦ والأحياء ج ٢ ص ٦٩.

(٣) الفيروزبادى: سفر السعادة ص ٨٧ والأحياء ج ٢ ص ٦٩.

(٤) أبو نعيم الأصفهانى: حلية الأولياء ج ١ ص ٣٣٣ وسفر السعادة ص ٨٦.

(٥) الفيروزبادى: سفر السعادة ص ٨٧ والأحياء ج ٢ ص ٦٩.

يمجُسانه[1] وأوصاهم عليه الصلاة والسلام كذلك بتلقين أبنائهم الأذان والإقامة ولمَّا يزالوا فى المهد ، وأذَّن هو عليه الصلاة والسلام فى أذن الحسن بن على بالصلاة حيث ولدته فاطمة رضى الله عنها[2] .

وسنَّ لأُمَّته جمعاء التحنيك ، فمضغ تمرة ، ثم وضعها فى فم عبد الله بن الزبير وكانت أُمّه أسماءُ بنت أبى بكر قد جاءت به إليه قبل أن تُرضعه ، وبذلك كان أول شىءٍ دخل بطن ابنها ريقُ رسول الله ﷺ[3] .

مزج الرحمة القلبية عمليًا بالدين ، فقال : ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا[4] .

وجسَّد عليه الصلاة والسلام العطف عمليًا أمام الصحابة حين سعى لعيادة ابن صغير لبعض بناته ، فتناوله وروحُه تقلقل فى صدره ، وبكى قائلا : إنَّما يرحم الله من عباده الرحماء[5] ، وروى أن الحسن رضى الله عنه كان وهو صغير يصير على ظهره عليه الصلاة والسلام وهو ساجد ، فيرفعه رفعًا خفيفًا ، وكان يقعد فى حِجْر رسول الله ﷺ ، ويلمس لحيته ، ورسول الله يفتح فمه ثم يدخل فمه فى فمه ، ويقول : اللهم إنِّى أُحبُّه فأَحبَّه وأحب من يُحبُّه ، يقولها ثلاث مرات[6] وروى أنه مسح على رأس ابن صغير لابن

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) قال ابن رافع رأيت النبى صلى الله عليه وسلم أذن فى أدن الحسن بن على حيث ولدته فاطمة بالصلاة سفر السعادة ص ٨٧ والأحياء ج ٢ ص ٦٩ .

(٣) العرالى : الأحياء ج ٢ ص ٧٠ .

(٤) رواه أبو داود والترمذى .

(٥) عن أسامة بن يزيد قال : كان ابن لبعض بنات رسول الله عليه وسلم يقضى فأرسلت إليه أن يأتيها فأرسل إليها أن لله ما أخذ ، ولله ما أعطى ، وكل شئ عنده إلى أجل مسمى فلتصبر ولتحتسب . فأرسلت إليه فأقسمت عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل ناولوه الصبى وروحه تقلقل فى صدره فبكى فقال له عبادة بن الصامت . ما هذا يارسول لله فقال الرحمة التى جعلها الله فى بنى آدم وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، رواه الشيخان ونقله السيوطى فى كتابه التعالل والإطفاء لنار لا تطفى مخطوط صغير بدار الكتب الوطنية بباريس وهو ضمن مجلد كبير رقمه ٢٨٠٠ الورقة ٢٤٠ هذا وقد طبع المخطوط مع غيره تحت عنوان الفتاوى .

(٦) أبو نعيم الحلية ج ٢ ص ٣٥ .

بنت حميد ودعا له[1] ، وأردف خلفه بعض الغلمان ، وخصّه برعايته ، ووجّه عبره كل الأُمة مُبيِّنًا لهم حقوق الله عليهم وحقوقهم على الله .

يقول معاذ بن جبل رضى الله عنه : بينما أنا رديف النبي ﷺ ، ليس بيني وبينه إلّا آخرة الرّحل ، فقال : معاذ، قلت . لبيك يا رسول الله وسعْديْك . قال : هل تدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ بن جبل ، قلت : لبيك رسول الله وسعديْك . قال : هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ قلت : الله ورسولُه أعلم ، قال : حق العباد على الله أن لا يُعَذّبهم[2] .

وكرّر عليه الصلاة والسلام هذا الأُسلوب التربوى مع آخرين كان من بينهم سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، يقول ابن عباس : كنت رديف النبي ﷺ فقال : يا غلام أو يا غليِّم ألّا أُعلِّمُك كلماتٍ ينفعك الله بهن ، فقلت : بلى . قال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك تعرّف على الله فى الرخاء يعرفك فى الشِّدَّة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جَفَّ القلم بما هو كائن[3] ، ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئًا لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه ، وعلى أن يمنعوك شيئًا كتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه ، فاعمل لله تعالى بالرضى فى اليقين ، واعلم أن فى الصّبر على ما تكرهُ خيرًا كثيرًا ؛ وأن النصر مع الصبر ، وأنّ الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرًا .

وكان من تربيته عليه الصلاة والسلام

---

(١) أخرجه البخارى راجع السمط المجيد ص٥٦ ونص الحديث : حدثنا أبو عقيل عن جده وكان قد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وذهبت به أمه بنت حميد إلى رسول الله (ص) فقالت يارسول الله بايعه : فقال النبي (ص) هو صغير ، فمسح رأسه ودعا له .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه أحمد بإسناد حسن والحلية ج ١ ص ٣١٤ .

الشباب أن أكرمهم ، وعمل على بناء شخصيتهم ، وإبراز دورهم وتجسيد تقديره لهم ، فأفسح لهم المجال لمشاركة كبار الصحابة فى حلقات البحث العلمى ، وفى صلاة الجماعة ، وأعلا من شأنهم فخصصهم بالذكر وجعلهم من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلّا ظله .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : سبعة يُظلهم اللهُ فى ظله يوم لا ظل إلّا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلّق بالمساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب ، وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه[1] .

وأوكل لعتّاب بن أسيد وكان ابن عشرين سنة – أو إحدى وعشرين – إمارة مكة وقضاءها[2] ، وكذلك فعل مع معاذ بن جبل. ومما يذكر أنه أوصى معاذًا حين توليته بقوله : يا معاذ إنّى أُوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، ووفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورحمة اليتيم ، وحفظ الجار ، وكظم الغيظ ، وخفض الجناح ، وبذل السلام ، ولين الكلام ، ولزوم الإيمان والتفقه فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وقصر الأمل ، وحسن العمل ، وأنهاك أن تشتم مسلمًا ، أو تكذب صادقًا ، أو تعصى إمامًا عادلًا .. يا معاذ اذكر الله عند كل حجر وشجر ، وأحدث مع كل ذنب توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية[3]

وكان معاذ هذا على رغم صغر سنّه موضع احترام وتقدير وإكبار صحابة رسول الله

(١) متفق عليه .

(٢) المغنى عن حمل الأسفار هامش ص ١٩٣ ح ١ .

(٣) رواه ابن عمر راجع حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ح ١ ص ٢٤٠ – ٢٤١ وراجع المغنى عن حمل الأسفار ص ١٩٣ ح ١ ، ؛

ﷺ ، حتى أنه ليذكر أنهم كانوا ينظرون إليه إذا تحدث بينهم نظر هيبة له[1]

وتقديرًا من رسول الله ﷺ لدور الشباب أوكل لأسامة – وكان دون العشرين – قيادة جيش المسلمين ، علمًا بأن فى الجيش من هم أسن منه ، وأقدم منه إسلامًا .

وأتاح لهم فرص التعليم ، والتربية والاستقرار الأسرى ، وكان مما قال : ما من أحد يُدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه ، إلا أدخلتاه الجنة[2]

وتولى هو عليه الصلاة والسلام تربية بعض الشباب فى بيته ، فقام بتربية سيدنا على ، والسيدة عائشة رضى الله عنهما ، وكانا صغيرين. كما قام كذلك بتربية نسله الطاهر الشريف من البنين والبنات ، وتبنى بالإضافة إلى هولاء وأولئك عددًا من الشباب كان من أشهرهم زيد بن حارثة ..

وكان لا يفتأ يُسبغ رعايته وعطفه ورحمته وأبوته على اليتامى والمساكين وأبناء المعْسِرين .. ومما يروى فى هذا الصدد أنه اتفق أنه قابل شابًا يائسًا وسط آخرين مبتهجين مسرورين فرحين فاصطفاه عليه الصلاة والسلام وقربه ، وأصلح من حاله وزيه وهيئته .. وقال له وهو يرفع من قدره : أما ترضى أن أكون لك أبًا ، وعائشة أم المومنين لك أمًا ، وفاطمة أختًا[3] ؟

وأناخ عليه الصلاة والسلام ناقته ليحمل معه عليها أسماء بنت أبى بكر الصديق ، حيث رآها مجهدة بالسير ، وبما كانت تحمله على رأسها من نوى ، غير أن حياء السيدة أسماء وغيْرةَ زوجها ، جعلها تُؤثر المشى على الركوب[4] .

وأُثر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال

---

(١) أبو نعيم الأصفهانى : حلية الأولياء ج ١ ص ٢٣١ هذا وقد جعل الفخر الرازى صفة الهيبة من صفات الرئاسة ج ١٤ ص ١٥٠ عند تفسيره لقوله تعالى (قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين) الأعراف آيات ٥٩ – ٦٤ .

(٢) محمد على فياض : التاريخ الإسلامى عصر الخلفاء الراشدين طبع مطبعة المتوكل بمصر سنة ١٩٤٩ ١٩٥٠ م ص ٩٣ – ٩٤ .

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٤) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٧٦ – ٧٧ .

عن صغير كان وَفْدُ بنى سعْد هذيم من قضاعة قد خلّفوه على رحلهم : أصغرُ القوم خادمهم ، بل لقد أمَّر عليه الصلاة والسلام هذا الصغير على كبار الصحابة وزعماء الوفد ، إعلاءً منه عليه الصلاة والسلام لمكانة الخِدْمة الاجتماعية فى الإسلام[1] .

وإدراكًا منه عليه الصلاة والسلام لما للّهو البرئ المتَّسق مع الخلق – من دورٍ نفسى ، وتربوى ، فى تقويم السُّلوك وتهذيب الطباع – أباح للنساء والرجال أصنافًا منه وضروبًا ، فكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تلهو وهى صغيرة فى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام – بما يُدخل عليها المسرَّة ويطرد عنها الملل ، وحيث شبَّت وكبرت أتاح لها رؤية الحبش وهم يرقصون . تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : جاء حبش يزفون فى يوم عيد فى المسجد . فدعانى النبى ﷺ فوضعت رأسى على منكبه ، فجعلت أنظر إلى لعبهم . حتى كنت أنا التى أنصرف عن النظر إليهم

وروى مسلم عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى تغنِّيان وتضربان ورسول الله صلى الله عليه وسلم مُسَجّى بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، وقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد .

وفى رواية أخرى عن السيدة عائشة أنها قالت : دخل علىَّ أبو بكر وعندى جاريتان من جوارى الأنصار تُغَنِّيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث . قالت : وليستا بمغنِّيتين . فقال أبو بكر : أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وذلك فى يوم عيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل قوم عيداً وهذا عيدُنا .

وأورث عليه الصلاة والسلام الشباب مكارم الأخلاق ، إذ ربَّاهم على طاعة الوالدين ، والبر بهما ، ومراعاة شعورهما وإسباغ ثوب الرحمة عليهما . بل لقد آثر

(١) محمد أحمد جاد المولى : محمد المثل الكامل الطبعة الأولى بمصر ١٣٤٩ هـ – ١٩٣١ م ص ١٢٩ .

برهما حتى على الجهاد ، وقال لمن قدم إليه مبايعاً على الهجرة والجهاد : هل من والديك أحد حيّ ؟ فقال الشاب : نعم كلاهما حيّ ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : وهل تبغى الأجر من الله ؟ فأجاب الشاب : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : ارجع إليهما فأحسن صحبتهما .

وأرجع الرسول ﷺ شاباً قدم إليه للجهاد دون إذن والديه ورضاهما عن خروجه ، وبعد أن سمع منه قوله :يا رسول الله جئتُ أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوىَّ يبكيان . قال عليه الصلاة والسلام : ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما .

وحرصًا منه عليه الصلاة والسلام على مراعاة الروابط الاجتماعية أمر الأبناء بأن يوادوا من كان يواد أبويهم ، ويبروه ، ويواصلوه ، ويُحسنوا إليه فقال عليه الصلاة والسلام : إن أبر البر ، صلة الولد أهل ودّ أبيه[1] .

وفى إطار العلاقات الاجتماعية أيضًا دل الإسلام الشباب وغيرهم على ما ينمّى العلاقات الإنسانية بينهم فقال : ألا أدلكم على ما تحبون به أفشوا السلام بينكم ، أفشوا السلام تسلموا ، وقد اعتبر الإسلام السلامَ الذى يُلقيه الفرد لمن عرف ومن لم يعرف ، من أفضل القربات التى يكسب بها رضاء ربه ، ورضاء الناس . فقال عليه الصلاة والسلام : إن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .. ورفع رسول الله ﷺ من قدر السّلام فجعله من أحد شعب الإيمان حيث قال : ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الاقتار . وجعل عليه الصلاة والسلام المصافحة من تمام التحية ، فقال :تمام تحاياكم المصافحة .

أما الرد على السلام فقد عده الرسول ﷺ من موجبات الرحمة فقال : رحمة على القوم المسلمين الذين لا يردون تحية السلام .. وحذّر عليه الصلاة والسلامَ كل المسلمين من أن يُعرضوا عن رد السلام ، فقال : ما من رجل يمر على قوم مسلمين

---

(١) رواه مسلم وأبو دواود والترمذى.

فيسلم عليهم . ولا يردون عليه السلام ؛ إلا نزع عنهم روح القدس ، وردّت عليه الملائكة[1] ».

هذا ومكارم الأخلاق التى بثها رسول الله ﷺ للشباب نظريًا وعمليًا ، وربّى عليها أمته أكثر من أن تحصى فقد علّمهم السّماحة فى المعاملة ، والعفو فى العطاء ، والتضحية بالمال ، وبالنفس والوقت ، وحبّب إليهم عمل الخير ، وحثّهم على صلة الرحم ، وعلى زيارة الأحياء والأموات من المسلمين .

وجعل الصلاة وسيلة لتوثيق الصلة بين العبد وربه ، والحج هجرة إليه ، والزكاة تطهيرًا له ، والصوم إعدادًا له ، وتدريبًا . أضف إلى ذلك أنه حول بالنية كثيرًا من الأفعال العادية إلى عبادة .. فأصبح تبعًا لذلك التّعليم عبادة ، والزواج عبادة ، وإماطة الأذى عن الطريق عبادة ، والتربية البدنية إذا خلت من شوائب الاختلاط ، واللبس الفاضح وغيرها عبادة .. وصارت معاونة الزّمنى والمرضى عبادة ، واحترام الصغير وتوقير الكبير عبادة ، ومشاطرة الجيران أفراحهم وأتراحهم عبادة ، حتى ولو كانوا يهودا أو نصارى أو غيرهم .. ومحبة الصالحين والتأسّى بهم وانتهاج طريقهم والانتظام فى سلكهم عبادة . والدعوة إلى الله بالمقال والمال عبادة .. وصار العمل الدنيوى مكتبيًا ، أو حقليًا ، أو صناعيًا ، أو غيره إذا ما روعى فيه المولى عبادة . وأصبحت نظافة البدن ، والمكان ، والوقاية من الأمراض ، والعلاج منها عبادة .. وتبسّم الفرد فى وجه أخيه ومعاونته له عبادة .

وعمومًا فقد ربط الإسلام بمنهجه التربوى بين القيم الدينية والممارسات العملية ، نسما بالفرد اجتماعيًا ، وحضاريًا ، وعقليًا ، وروحيًا ، وخلق منه شخصيةً متميزةً ، استطاعت أن تبلور شئون الحياة بما يتمشّى والدين ، وتبعًا لذلك أصبحت نعمة فصل الدين عن الحياة أسطورة لا صلة لها بفكر الشاب المسلم ، وعقيدته .

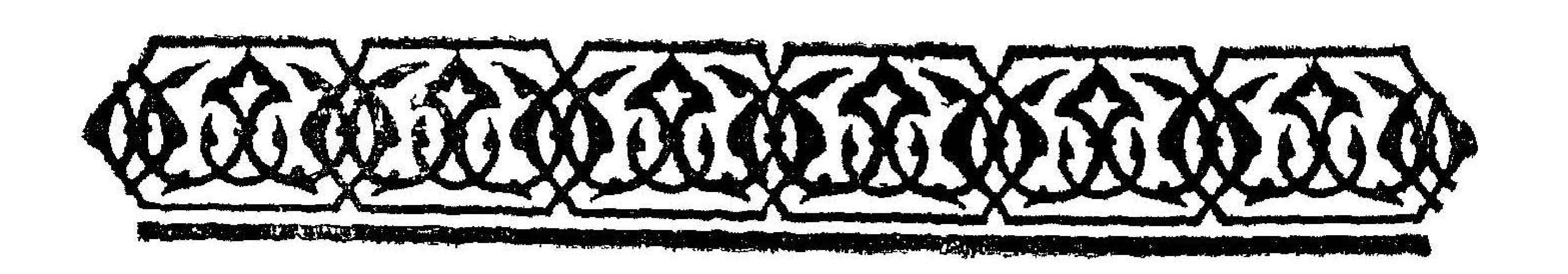
---

(١) نصر على عبد الهادى . التحية فى الإسلام طبع المطبعة الكمالية بعابدين ص ٨ ، ١٢ .

كان الإسلام إذن فتحًا إيجابيًّا على الإنسانية وطاقة دافعة لها نحو الرقى ، والكمال والرفعة . كان وما يزال هو الدين العملى الوحيد الذى يتفاعل إيجابيا مع قضايا الشباب فى كل العصور ، والأزمنة والأمكنة ، هو دين ماضى الأمم ، وهو دين حاضرها ، ومستقبلها .

لقد سمت تشريعاته الإلهية على كل تشريع فاستأصل بحكمته جذور الجرائم ونشر ألوية العدل ، وساوى فى الحقوق والواجبات بين كل الأفراد ، بل لقد هيأ لغير المسلمين من العدل والرحمة والمساواة مالم يكونوا يتصورون حدوثه فى مجتمعهم الدنيوى ، ومن ثم كان حرص غير المسلمين على دولة الإسلام يماثل حرص المسلمين عليها .

حسن الفاتح قريب الله
عضو المجمع المراسل (من السودان)



الفكر العلمي العربي وحضارة الغرب

للدكتور يوسف عز الدين

المقدمة :

حضارة الغرب التي سيطرت على كل معالم الحياة العلمية المعاصرة ، وليدة البحث العلمي الجاد ، وابنة أصول البحث العلمي المنظم لأن العلم هو القاعدة القوية التي قام صرح الحضارة العربية على أساسها . وأصول البحث المنظم طور المعارف العلمية وضبط النظريات الحديثة عندما وضعت لها الضوابط فسيطرت على العالم الحديث باستخدام التقنية الحديدة والتطبيق العلمي الحديث ودخلت العلوم في تجديد المعارف القديمة وتطوير الحضارة المعاصرة وبالتالي تقدمت حياة المجتمع الغربي الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية والفكرية .

ولم يكن الغرب بأقل قدرة وقابلية في التقسية العلمية القائمة على أصول البحث المنظم عندما بنى الحضارة الإنسانية وعندما طور أساليب البحث العلمي وأقامها على أسس قوية ومنهج دقيق في جميع ميادين العلم التطبيقي وسوح العلم النظري . بداية من الطب والزراعة وعلم الحيل (الميكانيكا) ووصولاً إلى الأدب والنقد والشعر .

وبالرغم من الجهود التي تبذل والطاقات العلمية التي تهدر في سبيل تعريف الجيل المعاصر بقيمة حضارتنا وكثرة المؤتمرات التي عقدت والكتب الكثيرة التي نشرت ومراكـز الأبحاث التي انتشرت في العالم وكلها تؤكد أصالة العلم في تراثنا وجذوره العميقة في علوم الغرب وأنه اعتمد عليها في حضارته فما زال هذا الجيل لا يصدق هذه الحقائق بعد أن نشأ في

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة التاسعة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الأربعاء ١٠ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

ظلال الفكر العربي وانبهر بحضارته المؤثرة فى حياتنا فى كل دقيقة . فطلاب العلم لا يرون بغير أصول البحث العلمى عند الغرب بديلا مع أن هذه الأصول ممتدة الجذور فى حضارتنا وأساليب بحث العلماء الأوائل فلو درست كتب التراث دراسة عميقة بوعى وتتبع الدارس الصادر لوجد الكثير مما فى حضارة الغرب تقوم أسسه على حضارتنا .

لا شك فى أن الحضارة الغربية دخلت طورا جديدا بما وصلتها من مخترعات ، واكتشافات وأنها أخذت طريقا جديدا يختلف عن حضارة العرب فى التقنيـة الحديثة لكن الدراسات الكثيرة فى مجالات البيئة وحياة المجتمع والفكر الإنسانى والقواعد الأساسية فى تطبيق العلوم الصرفة عند العرب يمكن أن تمد الباحث بالكثير من التجارب التى كانت تقوم بها المدارس العلمية فى مختبراتها وتجاربها فى حقول المعرفة كلها .

وقد اهتم الغرب بالعلوم العربية والحضارة الإسلامية واعتنى بالحضارة العربية والإسلامية التى أنتجت العلوم والفنون والقوانين المتنوعة التى كتبت باللغـة العربية لأن المسلمين يفضلون اللغة العربية فى بحوثهم على الكتابة بلغتهم المحلية ، تقديسا لهذه اللغة ولأنها كانت لغة العلوم والفنون والآداب[1] .

وفى العصر الحديث كثرت مراكز البحث فى الغرب تدرس أصول حضارتنا وتراثنا ونشطت هذه الحركة العلمية فى هذه المراكز وكثرت أعمالها فى نشر النصوص بالتحقيق تارة أو بنشرها مصورة كما هى وترجمت بعض هذه النصوص إلى اللغات الغربية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها من اللغات فى مراكز البحث فى جامعات فرانكفورت وتوبنكن وباريس وجامعتى أنقرة ، واستانبول ومعهد ولكم فى لندن وغيرها .. إضافة إلى عدة جامعات فى أمريكا مثل

---

(١) يلاحظ نللينو فى كتابه (علم الفلك وتاريخه عند العرب) والدو ميلى فى كتابه (العلم عند العرب ومنهج البحث العلمى) عند العرب لجلال محمد عبد الحميد موسى

هارفرد ولم تتخلف البلاد العربية عن إنشاء مثل هذه المراكز أو المعاهد [1].

ويظهر أن هذه الأعمال التى تقوم بها هذه المراكز ومعاهد البحث العلمى لم يكتب لها أن تكتسب السيطرة الواسعة فى عالم المعرفة المعاصرة ولعلها محدودة الجهود قليلة الإنتاج بالقياس إلى ملايين المخطوطات العربية فى العالم لأنها بحاجة إلى دعم كبير لإسماع البحث العلمى الجاد فى حضارتنا لأكبر قدر ممكن من القراء وألا تقتصر بحوثها على العلماء والمختصين ليتعرف أكبر عدد من المفكرين على أمانة الباحث العربى ودقة الاستنتاج لديه وأساوبه العلمى المنظم والزيادات الكثيرة التى أضافها على العلوم التى سبقت حضارتنا .

أسس البحث العلمى وقواعده :

للبحث العلمى الحديث قواعد عامة وأسس واضحة محددة وأسلوب منظم — لا يمكن أن يتخطاه كل باحث ودارس فى مختلف علوم المعرفة الإنسانية ولعلى أقدر على إيجازها وهى :

أولاً : الإلمام التام بجهود العلماء الذين سبقوا الباحث فى الدراسة والتتبع والاستفادة من النتائج والفرضيات السابقة بما فيها إن خدمت البحث أم لم تخدمه . وتتبع ذلك بالبحث فى الكتب العلمية والدراسات الجامعية والبحوث المتنوعة المشورة فى الموضوع الذى يريد الباحث دراسته ، وإحصاء النتائج والتجارب التى توصل إليها الباحثون مهما كلف الدارس من جهد وصرف من وقت لأن الصبر من ضرورات البحث العلمى الناجح لا سيما إذا كان الباحث محباً لبحثه وعلمه وكان دقيق الملاحظة فلابد له أن يطلع على ما نشر فى اللغات الأجنبية ومتى زادت مصادر البحث زادت أهمية البحث .

ولا يكتفى الباحث الأصيل بما يجد فى أمته من مصادر بحث ومراجع علم كتبها علماء أمته فى أصولها أو علماء الغرب عن هذا التراث إنما يجب أن يكرس جهده لعلمائنا وما وصلت إليه بحوثهم من نظريات

(١) تاريخ العلوم عند العرب عبد الحميد صبرة ص ٦٠ .

وحقائق علمية وتعقب جذورها ودراسة قواعدها فى حضارتنا وتراثنا .

فقد اهتم العرب بقياس دقيق لمحيط الكرة الأرضية على غير طريقة قياس أراطوستانس التى أخذت عن البابليين غالباً والتى كانت درجة صوابها منوطة بالصدفة .

وفى هذه المرحلة تيقن العلماء العرب أن مقياس بطليموس وأرصاده تحتوى على أغلاط وأن من الواجب استعراض صحتها وتصحيحها وإكمال نواقصها أو الاستدراك عليها بإجراء بحوث جديدة[1] .

وامتحنوا النتائج الجغرافية التى وصلت إليهم من الإغريق من جهة وسعوا فى امتحان الشبكة المقيسة للكرة الأرضية من جهة أخرى وفى هذه المرحلة نفسها أسس العرب علم الكيمياء على أساس نظرى وعلمى مستندين إلى النتائج التى وصلت إليها مختلف الأمم قبيل الإسلام[2] .

وقد يقف الباحث العربى محايداً دون أن يصدر حكماً خشية أن تكون أحكامه غير دقيقة وإنما يذكر ما يسمع ويروى ما يراه وبالرغم من أن مثل هذا الأمر يقلق الدارس إلا أنه يدل على تحرج كبير من الباحث العربى على إصدار الأحكام .

إن ذكر كل الروايات الصادقة والمختلفة منهج قد يفيد الذين يأتون فيما بعد لاستخراج الحوادث الضعيفة والمدسوسة كما يرسم صورة للعصر الذى ظهرت فيه الحوادث التاريخية ، فقد روى الطبرى بأنه اعتمد الحوادث المتعددة المتنوعة ، وحددها بقوله . (ما أحضرت ذكره فيه ، مما شرطت أنى راسمه فيه ، إنما هو

---

(١) يكفى ذكر أرصاد يحيى بن أبى منصور ومعاونيه فى بغداد ودمشق فى عصر المأمون وأرصاد حبش الحاسب لمواقع النجوم السيارة وكسوف الشمس والقمر فى بغداد وسامراء ودمشق فى العصر العباسى وأرصاد ابن يونس فى القاهرة فى بداية القرن الحادى عشر وأرصاد أبى الفتح عمر الصوفى فى شيراز بعد منتصف القرن العاشر وأرصاد البيرونى فى خوارزم فى نهاية القرن العاشر وما جرى فيما بعد فى مراغة فى القرن الثالث ودمشق فى الرابع عشر وفى سمرقند فى الخامس عشر .

(٢) فؤاد سزكين ص ٤٨ ، ٤٩ .

ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه ، والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلّا اليسير القليل منه ... فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا وإنما أتى من بعض ناقليه إلينا وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا ...)[1] .

وقد اهتم العلماء بما وصلت إليهم من علوم مختلفة من اليونان والفرس والهنود وتتبعوا فيها مختلف التيارات الفكرية فالذين اهتموا بالفلك لضبط الأمور الدينية من صلاة وصيام وحج لم يقفوا عنه عندما احتاجوا إليه إنما أرادوا الاستفادة الكاملة من علم الفلك والعلوم الأخرى ومعرفة الاختلافات فى النتائج فأوصلهم هذا — التتبع لجهود العلماء إلى محاولة جديدة فى البحث العميق للوصول إلى إزالة الخلاف بين القيم العددية التى وجدها العلماء الإسلاميون فى المؤلفات الهندية والفارسية واليونانية .

ومن هذا أن التتبع السطحى ولد عند علمائنا فكرة المقارنة والامتحان أى الإبداع بامتحان نتائج الأرصاد القديمة عن طريق مقارنتها بنتائج أرصاد جديدة[2] وجدوا من الضرورى القيام بها ليصلوا إلى الحقائق الدقيقة والنتائج السليمة .

إن هذه المقارنة والتأكد من النتائج العلمية تدل على فكر علمى يسعى بكل قوة لمعرفة علوم الآخرين وإن أولى خطوات البحث العلمى الإحاطة بكل ما كتب الباحثون السابقون وبالمقارنة تظهر صدق النتائج وصحة النظريات واضطروا وهم يتابعون جهود علماء الأمم الأخرى إلى امتحانهم .

وكان كتاب المجسطى من الكتب المهمة التى ينظر إليها بكل احترام فنبه البتانى إلى أنه يجوز أن يستدرك عليه فى أرصاده على طول الزمان[3] .

---

(١) الطبرى المقدمة ٧ — ٨ ج ١ .
(٢) تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٣ .
(٣) المصدر نفسه .

إن تمحيص المعلومات والتأكد منها بعد تتبعها فى مظانها من أهم أسس البحث العلمى عند العرب والنظرة إلى علم اليونان كانت محترمة ومقدسة والتأكد من آراء بطليموس تعكس لنا الثقة بالنفس والقدرة على التمحيص والدراسة الحادة إذ لم يأخذ علماؤنا عن الهند وفارس واليونان علومهم كما جاءت دون روية إنما درسوها وقارنوا بينها للوصول إلى نتائج سليمة للوصول إلى أمور جديدة لم تكن معارف العصر قد وصلت إليها ووضعوا أسسًا جديدة بعد تتبع آراء العلماء ودراسة النظريات القديمة التى كانت تسود الجو العلمى ويذكر الدكتور عبد الحميد موقف كارادى فو من فكر العرب وموقفهم من آراء وفروض بطليموس وإعجاب دى فو باتجاه الطوسى النقدى فى التفكير وعدت فى العصر الحديث من الفرضيات العلمية الناجحة بعد أن أهملت ولم يؤخذ بها فى ضوء الهيئة التى افترضها الطوسى . ليصبح (من الممكن لأول مرة تفسير حركات الكواكب السيارة جميعًا دون الخروج على مبدأ الحركة الدائرية المنتظمة ، ولكن الكشف الذى فاجأ المشتغلين بتاريخ الفلك هو الشبه الكبير بين هيئة ابن الشاطر وهيئة كوبر نيكس وبخاصة فيما يتصل بحركات عطارد .. بالإضافة إلى استعمال كوبرنيكس نفس الحيلة الهندسية التى استنبطها الطوسى واستخدمها فى هيئته الجديدة[1] .

ثانيا : دراسة النتائج السابقة وتمحيصها :

بعد أن يطلع العالم على آراء العلماء والباحثين السابقين لا يكتفى بآرائهم ، وما توصلوا إليه من نظريات إنما كان ينقدها ويحاول أن يصلح ما فيها فيقوم هو بالدراسة ولاسيما فى حقل التجارب المعملية والميدانية والتطبيق العلمى وبصورة خاصة فى العلوم الصرفة . وبالرغم من تقدم وسائل البحث العلمى ومساعدة المخترعات والمكتشفات الكثيرة والتقنية المتطورة والآلات المبتكرة فما زالت أساليب الدراسة الأولى عند العلماء قاعدة علمية واضحة الأسلوب .

(١) صبره ٧٠ .

وكان العالم لا يقف عند ظهور نتائج الأبحاث إنما يدرسها دراسة الخبير ويمحص النتائج للاستفادة مما بقى لها من فائدة فى دراسته وبحثه وقد ضرب البيرونى مثلاً واضحاً عندما تحدث عن الجاذبية الأرضية وقال بأن الأرض تجذب الأجسام وهو يناقش حركة الأجرام السماوية وعلى من يقول : (إن الأرض لو هكذا دارت إذن لطارت من فوق سطحها الأحجار واقتلعت الأشجار) ويثبت رأيه بقوة الجاذبية الأرضية فيقول . (هذا لا يقع لأنه لابد من أن ندخل فى الحساب أن الأرض تجذب كل ما عليها نحو مركزها) .

ويؤكد هذا الرأى فى كتابه (القانون المسعودى) فيقول : (والناس على الأرض منتصبو القامات على استقامة أقطار الكرة وعليها أيضاً نزول الأثقال إلى أسفل[1] .

إن رأى البيرونى واضح بمعرفته للجاذبية قبل أن يعرفها نيوتن كما برهن على كروية الأرض[2] وفى مثل هذا التأكد من النتائج نجد ذلك فى ميدان الطب والبصريات فقد كان الرازى يرد على إقليدس وجالينوس قولهما فى كون رؤية الأشياء تتكون بخروج الرؤية من العين إلى الأشياء ويصرح الرازى أن الرؤية تحدث بوصول الضياء من المادة إلى العين كما يرى أن حدقة العين تتغير كبراً وصغراً بمقدار قوة الضياء الذى يدخل فيها[3] .

ثالثا : الاعتماد على التجربة :

من الضرورى أن يعتمد طالب العلم على التجربة الخاصة والدراسة الموضوعية والبعد عن الهوى والابتعاد على الأساطير والخرافات التى لا تثبت أمام البحث المجرد والعقل المخلص والفكر العميق وبخاصة فى العلوم الإنسانية التى يكثر فيها الوضع والحذف ويدخل الخيال والهوى والمصلحة فى حناياها .

وقد قام السلف الصالح بالتأكد من

---

(١) دراسات البيرونى فى الطبيعيات الدكتور جلال شوقى ص ٢٦٣ اعتمد على بواتق وأنابيب الكيمياء تأليف برنارد جافى ترجمة الدكتور أحمد زكى ص ٦٢ (والقانون المسعودى) للبيرونى طبعة ج١ ص ٢٢ .

(٢) منهج البحث العلمى عند العرب ص ٢٦٣ .

(٣) مكانة العرب فى تاريخ العلوم فؤاد سزكين ص ٥٠ .

القضايا المختلفة وبخاصة ما يمس العقيدة بالتمحيص والدراسة ومتابعة السند ومعرفة من القائل ومقدار عقيدته وأخلاقه وكان الباحث والدارس يسافر بعيداً للتحقق من الحقائق والروايات والإسناد والتأكد من أبيات الشعر ناهيك عن الأحاديث النبوية التي كانت مثلاً راقياً في ضبطها وتسجيلها.

أما في العلوم التطبيقية فكانوا يجربون بأنفسهم العمليات للتأكد من صدق – النظرية أو الحقيقة العلمية في الطب، والنبات والفلك والجغرافية وغيرها. وعندما أراد البيروني التأكد من الثقل النوعي لاختلاف وزنه وثقله استعمل وعاءً خاصاً لمعرفة الثقل النوعي للمعادن والأحجار الكريمة وقام أبو الريحان بجهد عظيم في تعيين قيم الثقل النوعي لبعض المعادن والأحجار الكريمة مستعملاً وعاءً مخروطي الشكل ذا مصب بالقرب من فوهته بحيث يتجه هذا المصب إلى أسفل، وكان البيروني يزن المعادن المطلوب قياس وزنها النوعي وزناً دقيقاً جداً، ثم يدخلها في جهازه المخروطي الذي يكون قد ملأه إلى غاية مصبه بالماء فتحل المادة المولجة محل جسم مساوٍ لها من الماء الذي يغيض من المصب عندئذ يقوم البيروني بوزن الماء المزاح ويعني الوزن النوعي للمادة بحساب النسبة بين وزن المادة المختبرة ووزن الماء الذي أزاحته عند إدخاله في الجهاز ويعتبر جهاز البيروني هذا أقدم مقياس لتعيين كثافة المواد[1] وهو القائل في القانون المسعودي[2] : (وعلى هذا اعملوا كما عملنا نحن وإن كان عملنا للتوطيد، حتى يتأكد من تجارب الآخرين)

والطريف : أن نسمع بأن :

المأمون تولى نصب عمود من حديد بدير مران من دمشق وسواه في صدر النهار ثم قاسه بالماء فوجده متغيراً عن نصبته طول شعيرة بتأثير برودة الليل فيه[3] .

إن الاعتماد على التجربة الفردية جاءت بحقائق علمية موكدة وأبعدت كثيراً من

---

(١) الدكتور جلال شوقي المصدر السابق ٢٦٤.

(٢) القانون المسعودي المصدر السابق ٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه جلال شوقي.

الأفكار التى كانت تنتقل من جيل إلى جيل دون تمحيص كما جاءت العلوم من اليونان والسريان والفرس والهنود حتى جاء العرب فأخذوه بالتأكيد وإضافة شيء جديد دون أن ينتقص هؤلاء من العلماء السابقين ومن الأمم الأخرى وتتبع الزلات والهفوات إنما كانت إضافات دون تجريح أو تضليل وفى اعتقاد العلماء العرب أنه ما من عالم مَهْمَا بلغ شأنه معصوم من الخطأ منزه عن الزلل . هذه المبادئ أرست لديهم الأسس الأخلاقية للنقد وأدت بهم إلى جعل النقد عندهم مفيداً[1] .

وبذلك فإصلاح الخطأ كان رائدهم ، واحترام السابقين واضحاً فقد قال البيرونى : « إن ما فعلت هو واجب على كل إنسان أن يعلمه فى صناعته من تقبيل اجتهاد من تقدمه بالمهنة وتصحيح خلل إن عثر عليه بلا حشمة وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنا بالزمان وأتى بعد . . »[2] .

وقد اعتمد البيرونى عندما أراد مقياس محيط الأرض واختار جبلاً من بلاد الهند مشرفاً على البحر وعلى برية مستوية ثم قاس ارتفاع الجبل[3] . .

وقد اعتمد فى قياسه على التجربة الفردية وهو القائل (وإلى التجربة يلتجأ فى مثل هذه الأشياء وعلى الامتحان فيها يقول)[4] .

ويظهر الرازى حبه للتجربة فى مقدمة كتابه « الخواص » حيث برر رأيه فى تأليف هذا الكتاب الذى قرر أن يجمع فيه أقوال الناس فى خواص الأشياء ، ويجوز من قبول هذه الخواص دون التثبت بالتجربة[5] وبذلك فهو لا يثبت إلّا الخواص التى شهدت التجربة والاختبار بجدواها وآثرها .

---

(١) سزكين ص ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣ عن القانون المسعودى ص ١ — ٤ — ٥ .

(٣) منهج البحث العلمى عن العرب جلال محمد عبد الحميد موسى (الكتاب اللبنانى ص ٢٥٩) .

(٤) المصدر نفسه عن علم الفلك عند العرب .

(٥) المصدر السابق ص ١٨١ — ١٨٣ .

رابعا : العرض الجيد والابداع :

إن عرض الفكرة العلمية لابد لها من أسلوب جيد قادر على تقديم المعلومات ضمن الإطار العام للبحث مثل تسلسل الآراء وسبك المعلومات بدقة متناهية فى استخدام الكلمات دون إطالة فى الحديث واستفاضة زائدة للوصول إلى النتائج أو النظريات التى يريد أن يصل إليها العالم الباحث .

إن الأصالة العلمية والإبداع الفكرى وصدق النتائج لا تأتى إلّا بعد دراسة ـ عميقة مستفيضة لجوانب المعرفة ، والإحاطة التامة بالبحث والفهم الدقيق لما قرأ أو درس أو طبق من العلوم ـ والنظريات فى الكتب أو المختبرات أو تجارب الميدان التطبيقى .

فقد أخذ العرب علومهم من أمم شتى ومن مصادر مختلفة منها طريقة التجربة الذاتية والترجمة من اللغات الأخرى .. ولما نشأ جيل يفهم اللغات الأجنبية واستعرب من هذه الأمم بدأ الإحساس بالعلوم أكثر التصاقًا بالمفاهيم العربية كاليونانية والهندية والفارسية واستمر التراث يستفيد من الأمم الأخرى حتى أواسط القرن الثالث الهجرى . وبعد أن هضم التيارات الحضارية للأمم الأخرى وبدأ يعرف جوانب علومها ومعارفها نشطت عنده ملكة الإبداع العلمى فى مختلف ميادين العلوم وتطورها وأصلحوا بعض الأفكار القديمة عند اليونان مثل (مقاييس بطليموس وأرصاده) وأكملوا نواقصها وقاسوا اختلاف منظر القمر واستعمال مناهج حسابية غير معروفة عند الإغريق[1] .

وقد ضرب الدكتور فؤاد سزكين بمرحلة الخلق والإبداع والثقة العلمية بالنفس ـ الذى لدى علمائنا وقدرتهم على التوصل إلى نتائج لم يتوصل إليها علماء اليونان بدراسات (الإخوة الثلاثة المشهورين ببنى موسى ،والذين كانوا يقومون بعمل مشترك

---

(١) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٤٨ .

فى دراساتهم لأرخميدس وأبلونيس .

هؤلاء الإخوة الثلاثة كانوا يحاولون الوصول إلى تحديد الرقم اليونانى ليكون أدق مما وصل إليه القدماء وإلى حل جديد لمسألة تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية وقد كانوا يصححون ما وقع لأبلونيوس فى كتابه (المخروطات) على رأيهم [(١)] .

ولم يختلف علماء الأندلس عن رأى علماء العرب فى المشرق فقد كانوا شديدى الحذر من أخذ علوم اليونان بالرغم من أن هناك جذورًا فكرية تنازع الفكر العربي الإسلامى فى حداثته متصلة باليونان ، لكن الفكر الإسلامى والإبداع عند علمائنا رفض آراء بطليموس فى الفلك وأعادة تكوين علم جديد يلائم ما يريدون مفضلين أرسطو عليه .

انشاء نظرية جديدة فى الفلك :

فقد وقف من نظرية بطليموس ابن طفيل وابن رشد وابن ميمون وجاء فى أثرهم البطروجى بنظرية جديدة معارضة للفلك البطلمى فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ورغم أن محاولة البطروجى لم تكن موفقة من الناحية الرياضية فإنها دليل واضح على قوة التيار الفكرى الجديد فى الأندلس ومداه .

ولا جدال فى أن نزعة التجديد والنقد والتطور صاحبت العلوم الأخرى فالطب والرياضيات والفلك مثل تطور العلوم الأخرى .

خامسا : الأمانة العلمية :

كان تراثنا أمينًا كل الأمانة فى ذكر المصادر والمراجع التى أخذ منها وتسلسل الرواة والرواية والتثبت من كل رأى وفكر فى البحث العلمى لإتمام بحوث الذين سبقوه من العلماء ليكون أمينًا فى النقل والرواية .

ففى البحث العلمى المعاصر الذى أخذنا شكله العام من الغرب لابد أن توجد هوامش فى البحوث ترقم عند أخذ النص فى المتن ويشار إلى الكتاب الذى أخذت منه المعلومة ويذكر اسم المؤلف والصفحة وسنة

---

(١) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٤٨ .

طبع الكتاب ومكان طبعه وغيرها لمعرفة هوية الكاتب واضحة لتوثيق الرأى ، لأن المطبعة أثرت الحياة العامة بالكتب المختلفة فى العلوم المتنوعة .

ولا تختلف أساليب علمائنا عن هذا التوثيق يضاف إليه دراسة صاحب النص ومقدار صدقه وعلمه وخبرته فيما يؤلف فيه برغم أن الكتب كانت مخطوطة وصعوبة الحصول على أدوات التأليف قياسًا بسهولتها اليوم .

وبدأت عملية التوثيق بالحديث النبوى الشريف وظهرت كتب الصحاح وسار العلماء والأدباء على هذا النهج فى التاريخ والجغرافية ورواية الشعر والأخبار والأنباء فى الأغانى والطبرى والمسعودى والبلاذرى وسير الرجال والأسانيد المختلفة خير دليل على غربلة الخبر ونقده وتمحيص الروايات .

ما كان العالم يفكر فى الجنس واللون أو الدين عندما أخذ علومه من الأمم الأخرى كاليونان والهند والسريان والفرس وما أخذ هؤلاء من الآشوريين والبابليين إنما كان فى فكره الممحص وذكائه المغربل ينتقى المعلومات ويقارن بين العلوم ومصادر المعارف بأمانة مطلقة وتدقيق عميق . وكان العالم يذكر رأيه بوضوح وصراحة فهو يمدح الجيد ويؤكد على الصواب ويبتعد عن ما يخالف عقيدته ودينه ورأيه

وللأسف الشديد وجدت بعض علماء الغرب وكثيرًا من المستشرقين والمستعربين يأخذون من علومنا وتجارب علمائنا خلال قرون طويلة دون أن يذكروا مصادر علمهم حتى قيض الله من أبنائهم من أعاد لنا الحق بصراحة واضحة . فمن هؤلاء روجر بيكون الذى (يعد منذ أمد بعيد المؤسس للمنهج العلمى الذى يقوم على أن التجربة هى أساس البحث فى العلوم – الطبيعية)[1] حتى جاء عالم غربى فوقف أمام هذا الرأى وقال : (إن روجر بيكون أخذ كل الاستنتاجات المنسوبة إليه فى العلوم الطبيعية)[2] .

(١ ، ٢) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٥٣ .

وقد أكد مكانة العرب العلمية فيديمان وترام فيما كتباه وأوضحا مكانة العلماء فى بناء قانون التجربة والنظرية وأثرهم فى بيكون ودافنتشى حتى قال فيديمان : إن العرب كانوا سباقين إلى الموضوع ، بل إن ماتوصل إليه بيكون أقل بكثير مما كان موجوداً عند علمائنا[(١)] فالنظرية والتجربة أهم قواعد البحث العلمى وكانت أساليبهم العلمية متوازنة محسوبة الخطوات ، وقد ذكروا خطوات بحوثهم وتطور أعمالهم حتى يصلوا إلى النتائج العلمية بدقة وهدوء وصدق .

وفى الوقت ذاته كان علماء الغرب يسطون على معارفنا وينتحلون الكتب بعد ترجمتها مثل انتحال Mignel Serreit كتاب ابن النفيس[(٢)] .

ومن الأمانة العلمية الاعتماد على التجربة العلمية للتأكيد على صدق النظرية لإرضاء الضمير العلمى الذى يؤكده الدين الذى يمنع الكذب والسرقة والسطو على الآخرين وبذلك وجدنا صدق الرواية والتحرج من الظن والحدس والتخمين بالخطوات — المتسلسلة التى تأخذ حلقاتها واحدة بأخرى، للوصول إلى اطمئنان نفسى من النتائج والنجاح فى الدراسة .

وظهرت تلك الأساليب فى جميع العلوم المختلفة والتجارب المتنوعة فى إنشاء المراصد والتدقيق من الرصد عكس الغرب الذى كان يأخذ من علمائنا ويزعم أنها من اليونان، ويكتب عليها أسماء علمائه وفلاسفته .

انصاف العرب :

إن الاهتمام بالشرق وبالمسلمين كان جزءاً لا يمكن تجاهله من حياة الغرب الذى كان يطمح أن يكون مثل علماء العرب والمسلمين. وقد كانت كلمات الشرق والإسلام والعرب متحدة ومتشابكة لوجود الاختلاف الفكرى والدينى بين أوروبا والشرق. فلا عجب أن نجد العداء النفسى لكل ما هو غير عربى. والتجاهل التام للحضارة الإسلامية والتراث العربى والإرث الشرقى .

ثم بدأ بعض الكتاب والشعراء فى الاستفادة من الأدب العربى بالترجمة التى

(١) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٥٧ .

نشرت منه وكانت هذه الترجمة مقدمة للتعرف على الفكر فى حضارتنا وبداية ألفة لمقاومة روح العداء التى استشرت فى أوروبا ولعل الأدب كان أول طريق مهد للعلوم وأفسح المجال لمحاربة هذا العداء التقليدى لتراثنا .

وما جاء القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر إلّا أخذت حضارتنا تحتل لها جماعة من المستشرقين تتعاطف معها ثم اعترفت بالأثر الحضارى فى حضارة الغرب من هؤلاء كارلايل ونللينو وفيدمان وأخيراً سسكريد هونكه وكبريالى وريزيتانو وشاخت ، وسير هملتن كب واربرى وبوزورث من القرن العشرين .

وممن أخذ شهرة جورج سارتون عندما كتب المدخل إلى تاريخ العلم وأعطى أهمية لعلوم العرب بالمقارنة مع تاريخ العلوم عند الأمم الأخرى وخرج بمنهج أدى إلى إبراز تفوق العلم العربى على غيره فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن الميلادى ونهاية القرن الرابع عشر[1] وأبرز رواد البحث العلمى فى تراثنا وسمى فترات التطور العلمى بأسماء عاش أصحابها فى العالم الإسلامى ودونوا مؤلفاتهم باللغة العربية مثل عصر جابر بن حيان وعصر الخوارزمى وعصر الرازى[2] .

ولا شك أن الحضارات تأخذ من بعضها وتستفيد من تجارب الأمم الأخرى فى مختلف العصور وتباين المعارف وحضارتنا جزء من الحضارة العالمية وما توصل إليه علماؤنا جزء لا يمكن فصله عن تجارب ونتائج البحث عند علماء الأمم وبخاصة اليونان والهند وبلاد فارس بعد أن نقل العرب علوم الحضارات الأخرى إلى العربية ومن ثم أخذت أوروبا ما عندنا وترجم إلى اللغة اللاتينية بمختلف المعارف العلمية والأدبية برغم الموقف السلبى مما فى حضارتنا من إبداع وخلق وإضافات وإصلاح أغلاط ومناقشة للآراء للوصول إلى الحقيقة العلمية المجردة لأن العلماء كانوا صادقى الرغبة فى الاستفادة من الحضارات التى سبقتهم

(١ و٢) تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٠ و٦٥ للدكتور عبد الحميد صبرة .

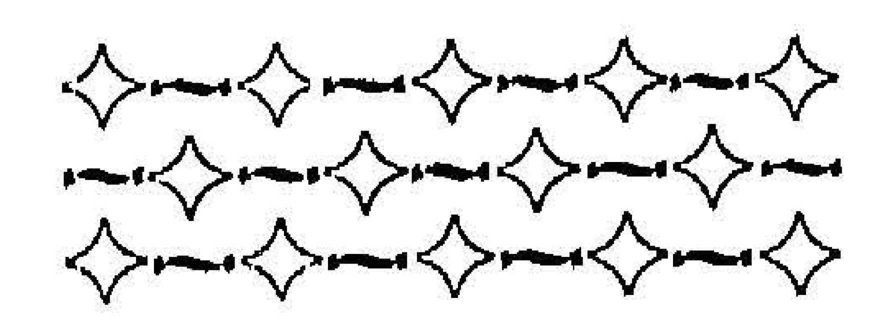
وعاصرتهم بداية من الآشوريين والبابليين الذين أسسوا العلوم وأسجبوا الحضارة العالمية الأُولى وأثروا فى كل من جاء بعدهم كاليونان والسريان والفرس والهند وبلغت الحضارة العربية والإسلامية مرحلة النضج العلمى بعد هضم مراحل التطور العلمى للأُمم الأُخرى ووصلت إلى نتائج علمية ، وفكرية متقدمة فى الفحص والدراسة .

أخذ العرب الحساب عن اليونان ولكنهم أضافوا إليه دون جهل للحساب الستينى البابلى الذى أخذه اليونان منهم بما فيه من خليط من جذور وأُصول قديمة وبخاصة تطبيق النظام العشرى على الأَعداد الصحيحة والكسور على السواء بالإضافة إلى استخدام لأرقام الهندية ، ولا شك أن الكاشانى قد اهتدى فيه إلى حساب الكسور الستينية[1] فقد سبق ظهور هذه الكسور فى أوروبا حوالى مئتى عام[2] ومثلها فى الجبر الذى لا شك فى أنه عربى بأُسلوبه وطريقته واسمه ، ولا يعرف فى اليونان سبق له ، وكتاب الخوارزمى دليل واضح على هذه الأَصالة ، ثم أضاف إليه العلماء المسلمون فيما بعد إضافات أبرزته كالكرجى والخيامى والطوسى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يوسف عز الدين

عضو المجمع المراسل (من العراق)



(١) تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ٦٥ .

العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس
من خلال رسائل الزبيدي صاحب تاج العروس

للأستاذ أبو القاسم محمد كرو

لعل أكثرنا ما زال يذكر ما أتحفنا به شيخنا البحاثة الجليل سيدي محمد الفاسي في الدورة الثالثة والخمسين ، من بحث قيم عن العلاقات العلمية الوطيدة والعميقة بين الشيخ العلامة مرتضى الزبيدي – صاحب تاج العروس – وبين علماء المغرب وخاصة منهم علماء فاس ، وبينهم العلامة ابن مالك عبد الواحد بن محمد الفاسي الذي أجازه الزبيدي فكانت إجازته موضوع البحث المذكور .

وقد تبسط شيخنا الفاسي في ترجمة جده ابن مالك وفي الحديث عن الزبيدي وعلاقاته الواسعة مع علماء المغرب الأقصى مما يؤكد أهمية تلك العلاقات التي هي جانب واحد في جوانب التواصل العلمي بل الوحدة الثقافية واللغوية بين المشرق والمغرب .

ومن حسن الصدف أن اكتشفت في العام الموالي وثيقة أخرى غير تلك الإجازة التي أتحفنا بها الشيخ الفاسي وثيقة من نوع مختلف وتصنيفها مجموع خطي نفيس كان تائهاً ومغموراً في مكتبتي الخاصة . وقد شغلتني عنه الشواغل الكثيرة والغفلة والنسيان .

يتضمن المجموع مختارات عديدة من الرسائل والإجازات والأشعار اختارها ونسخها بقلمه عالم مغربي مغمور [1] . كان مقيماً بتونس عام كتابتها ١٢٤٤هـ وهذا المجموع هو أقرب ما يكون إلى تأليف أدبي ، وإن لم يوضح ذلك جامعه .

على أن أهم قسم في هذا المجموع هو القسم الثاني الذي تضمن عشرات الرسائل الشخصية الخاصة التي كتبها الزبيدي إلى صديق له بتونس عرف في عصره بالعلم والصلاح والتقوى وكان مقعداً ملازماً لسقيفة بيته وهو الشيخ أحمد بن عبد الله

(١) يدعى عبد القادر بن عبد القادر بن الزين المغربي الخالدي الميموني كان حياً عام ١٢٤٨ هـ

السوسى أحد علماء تونس فى القرن الثانى عشر ومطلع الثالث عشر هجرياً

ومعلوم أن الزبيدى قد توفى بالطاعون عام ١٢٠٥ . أما صاحبه التونسى فكانت وفاته بعد الزبيدى بثلاث سنوات ١٢٠٨ هـ

وأن نفاسة هذه الرسائل تتمثل فى

أولًا : أنها صادرة من الشيخ الزبيدى نفسه إلى واحد من علماء تونس فى أيامه .

ثانيًا . أنها تتناول جوانب عديدة من حياة العصر العلمية والسياسية والاقتصادية كما فهمها وناجى بها الزبيدى خليله وصاحبه التونسى .

ثالثًا : أنها توضح جوانب مختلفة من العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس ، وأيضًا بين المغرب والمشرق ، خلال القرن الثانى عشر ، وذلك بما تتحدث عنه من شئون وشجون تتصل بالأدب والكتب وما كان بين العلماء من شواغل واهتمامات علمية وإنسانية .

رابعًا : أنها توضح ، ولأول مرة ، جوانب طريفة وخاصة جدًا من حياة الزبيدى العائلية والشخصية لم يذكرها – فيما نعلم – أقرب تلاميذه المتصلين به وأكثرهم معرفة بخصوصياته وهو المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتى الذى ، وإن حدثنا عن زوجة الزبيدى الأُولى والثانية فإنه أكد أن الزبيدى لم يرزق أولادًا ولكن الزبيدى يتحدث فى رسائله بأن الله قد رزقه ولدًا وأنه سماه « عبد الله » تيمنًا باسم والد صديقه التونسى ، لما كان عليه هذا التونسى من صلاح وتقوى حملت الزبيدى على أن يلتمس منه – فى معظم الرسائل – البركة والدعاء له ولابنه ولزوجته الأُولى – أُم ولده – وأن يستجيزه أيضًا لنفسه ولابنه

وفى هذا الجانب وحده مايبرهن على طرافة هذه الرسائل وأهميتها التاريخية والأدبية .

وخلافا لما تحدثت عنه المصادر المشرقية ، وخاصة تاريخ الجبرتى ، من تهافت المغاربة – علماء وأُمراء وعامة الناس – على الزبيدى طلبًا لبركته والتماسًا لرضاه ودعواته ، حتى زعم الجبرتى بأن الحجاج المغاربة كانوا يعتقدون أن حجهم يظل ناقصًا إذا لم

ـروروا الشيخ الزبيدى ليمنحهم رضاه
وبركته .. إخلافًا لهذا الزعم فإن رسائل
الزبيدى تكشف لنا عن تهافته وخضوعه
دل سد حاجته أحيانًا من هذا العالم
التونسى المغربى الذىلم يكن فى عصره من
العلماء الداررين ، كما لم يترك أثرًا علميًا
واحدًا .

كذلك تكشف لنا رسائل الزبيدى عن
موقف مماثل نحو أمراء تونس البابات ،
وكيف كان الزبيدى يبعث إليهم – من
تلقاء نفسه – الهدايا النفيسة وقصائد
المديح وإجازاته العامية – فى حين يذكر
هو نفسه مواقف معاكسة نحو أمراء مصر
وصدور الخلافة الذين – كما يقول – كان
رفض هداياهم .

مهما يكن من أمر ، فإن عدد هـذه
الرسائل – على اختلاف حجمها – يتجاوز
الخمسين رسالة ، وهى تغطى زهاء العشر
سنوات الأخيرة من حياة الزبيدى ، وهى
فى اتجاه واحد أى من الزبيدى إلى صديقه
التونسى إذ يبدو أن صاحبه التونسى لم
يحتفظ لنفسه بنسخة من رسائله للزبيدى .

ونظرًا لوقتنا المحدود ، ولأننى أقوم
حاليًا بتحقيق مفصل لهذه الرسائل تمهيدًا
لطبعها . فإنى أكتفى هنا بتقديم معلومتين
جديدتين مما تضمنته هذه الرسائل كدليل
على أهميتها مع ماحق به صفحة من رسالة
هامة :

المعلومة الأولى تؤكد أن الزبيدى – كما
تحدث فى رسائله أكثر من مرة – قد رزقه
الله ولدًا بعد طول انتظار ويأس ، وأنه
سماه – كما أشرت سابقًا – عبد الله .
وها هو يتحدث عنه فيقول[1] :

« ... وذكرت لكم فى الكتاب الذى
قبل هذا من قبل ولدى عبد الله ، فقد
تزايد لى فى ليلة سبع وعشرين من شهر
رمضان من شهور سنة ١١٩٤ م وسميته
باسم والدكم المرحوم تبركًا به ومحبة إليه
وكنيته أبا الفضل ، أسأل الله العظيم أن
يجعله بارًا بوالديه عالمًا عاملًا محدثًا ،
صوفيًا . ولقد جاءنى بعد أن يئست
وطرق المشيب المفارق ... فأحببت أن

تشرفوه بالإجارة يسمو بها بين الأنام وتنعيمه بحملها يحفظ من صوارف الأيام . . »[1] .

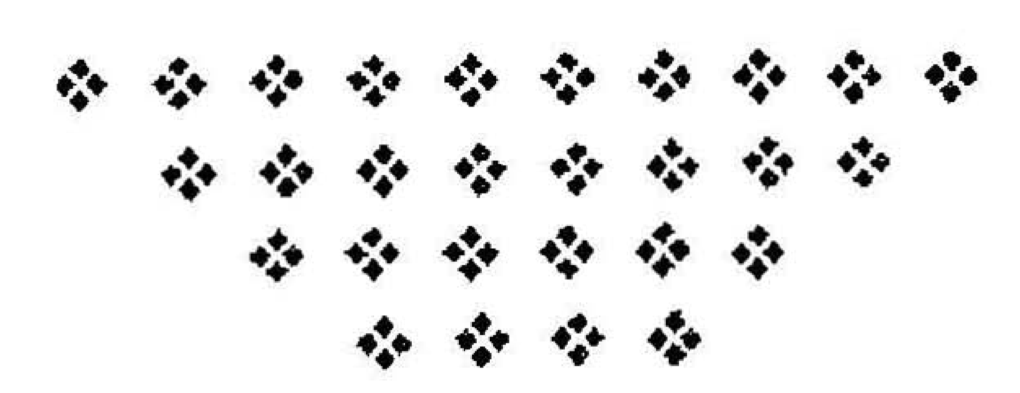
ولكن هذا المولود لم يعش طويلاً ففى إحدى رسائله عام ١١٩٦ هـ يخبر بوفاته وبمكان دفنه وحزنه عليه حزناً شديداً حتى بنى قبرين حول قبره ، واحداً له والآخر لزوجته التى توفيت بالفعل عام ١١٩٨ هـ كما سجل ذلك الجبرتى وأكدته لنا رسائل الزبيدى مع تفاصيل أخرى .

والمعلومة الثانية : أن الزبيدى كان يحب الشكلاطة ويبدو أنها لم تكن معروفة فى القاهرة . فكان صديقه التونسى يرسل له منها باستمرار ، ربما كل شهر ، حيث كان تبادل الرسائل بينهما شهرياً وعلى مدى عشر سنوات ففى رسالة متأخرة شكر الزبيدى صاحبه التونسى على مختلف الهدايا وشكره كذلك على الشكلاطة وعلى الآلة الخاصة بصنعها والتى كانت مع الهدايا .

على أن الزبيدى كان بدوره يهادى صاحبه بنفائس الشرق وبالكتب التى يطلبها . ويتحدث إليه عن كثير من شئونه وعن أبحاثه العلمية وعن كل قسم أو جزء يكمله من شرحه لكتاب إحياء علوم الدين

رحم الله الجميع وأفادنا بعلمهم وتراثهم .

أبو القاسم محمد كرو
عضو المجمع المراسل من تونس



(١) باقى الرسالة فى الملحق .

الإطار التاريخي لسورة براءة

للدكتور حسين مؤنس

يذهب الكثيرون من علماء القرآن الكريم والمفسرين إلى أن سورة براءة أو التوبة ، وهى التاسعة من سور المصحف المتداول هى آخر سورة كاملة أنزلت على رسول الله ﷺ ويقولون : إنه أنزلت على رسول الله بعد براءة آيات كثيرة دخلت فى سور أخرى ، والعامل الرئيسى الذى يجعل العلماء يقولون ذلك هو : ارتباط هذه السورة الشديد بغزوة تبوك التى بدأت السورة تتنزل على رسول الله وهو عائد منها ، واتصال آياتها الوثيق بحوادث تلك الغزوة وما وقع فيها .

وإذا كانت سورة براءة أو التوبة تتميز فى مجموعها بوحدة الموضوع ، فكل آياتها تدور حول أحوال المدينة خلال العام التاسع للهجرة وبيان العيوب التى كانت فى ذلك المجتمع قبل انتقال الرسول إلى الملإ الأعلى بعام هجرى على وجه التقريب ، فهى ترتبط كذلك كل الارتباط بغزوة تبوك التى كانت فى رجب وشعبان سنة ٩ هجرية — (أكتوبر — ديسمبر سنة ٦٣٠ ميلادية) وعندما نقرأ السورة وندرس الظروف التى وقعت فيها غزوة تبوك ندرك تمام الإدراك أن الله سبحانه وتعالى بعث رسوله فى هذه الغزوة اختباراً للمجتمع المدنى وبياناً لأحواله وعيوبه ووجوه التقى فيه لتجىء سورة التوبة بعد ذلك حداً فاصلاً بين العصر الذى كان يباح فيه للعربى أن يبقى على الجاهلية ، والوثنية أو يدخل الكعبة . فإن السورة نفسها تبدأ بوضع الحد الفاصل بين العصرين وذلك فى آياتها الأولى :

« بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ

مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ *
وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ
وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *
إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ
أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ
إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » .

ثم يلى ذلك أمر من الله بالحرب على المشركين وضرورة قتالهم حتى يتوبوا عن الكفر ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا هم فعلوا ذلك توقف المسلمون عن قتالهم .

«فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ
تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

وهذا فى ذاته حادث فاصل فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وإذا نحن تأملناه مليًا تبينا لماذا نزلت هذه السورة بعد غزوة تبوك ، فإن غزوة تبوك آخر الغزوات التى قادها رسول الله ﷺ ، وقد سبق له أن قاد حوالى أربعًا وعشرين غزوة ، أما رقمها بين كل العمليات الحربية التى قادها رسول الله ﷺ فهو تسعة وثمانون ، وتبقى بعد ذلك بالإحصاء الدقيق سبعة أعمال عسكرية سيبعث بها رسول الله ﷺ خلال العام الأخير من حياته .

ولا ينبغى أن يهولنا ذلك العدد من المغازى والسرايا والبعوث فإن رسول الله منذ نزل المدينة سنة ٦٢٢ ميلادية رسم خطته على العمل على تحويل المدينة إلى قاعدة الإسلام ، واستخدام هذه القاعدة فى نشر الإسلام فى جزيرة العرب كلها ، وإعدادها لفتح العالم كله بعد ذلك وسار فى عمله بوحى من الله طبعًا . بنظام دقيق وجهد بالغ .

وفى سياق هذا الجهد تحتل غزوة تبوك مكانًا فاصلًا ، فهى الغزوة التى تعين نهاية الجهود لإدخال الجزيرة العربية كلها فى الإسلام وتلى ذلك أعمال مكملة لفتح الجزيرة العربية وإدخالها كلها فى الإسلام وستبدأ مرحلة نشر الإسلام خارج الجزيرة بعد وفاة الرسول ﷺ وانتهاء أبى بكر من حروب الردة .

وغزوة تبوك تبدو لنا وكأن الله سبحانه أراد بها أن تكون إشعارًا بهذا التطور فى مسيرة الدعوة الإسلامية ، وبعض المراجع تذكر أن رسول الله خرج بها فى وقت عسرة وهو يظن أن الروم أعدوا شيئًا ضد الإسلام فى الجزيرة وهذا غير صحيح ، ولا جائز فى السيرة النبوية ،فإن الروم لم يعدوا شيئًا ، وهذا واضح من كلام الواقدى وهو مرجعنا الأكبر فى كل مايتعلق بالمغازى فقد قال هناج ٣ (ص ٩٩١ - ٩٩٢) والتفاصيل التى لدينا تدل على ذلك فقد ذكر الواقدى بُعَد ذلك بقليل (ص ٩٩٢) كلامًا يدل على أن رسول الله ﷺ مع عظيم استعداده لهذه الغزوة إلّا أنه كان يعرف أن الروم لم يعدوا فى الحقيقة شيئًا لغزو الجزيرة العربية .

ولهذا فهو لم يخف وجهته ، بل أعلنها صراحة لكى تعرف القبائل العربية أنها تسير إلى غزوة خطيرة فيكون ردها على إنذار النبى ﷺ دليلًا على إيمانها أو ضعف إيمانها ، ويكون ذلك كما يتجلى من سورة براءة مناسبة لدرس من الله سبحانه للمسلمين ، وهذه الدروس قائمة على تفاصيل تجربتهم الكبرى فى غزوة تبوك ، وهذا هو الذى نريد أن ننص عليه فى هذا البحث ونزيده وضوحًا بالتفاصيل . وأعتقد أن هذه واحدة من أظهر المناسبات التى تدل على أن السيرة النبوية فى مجموعها كانت درسًا أو دروسًا عظيمة للمسلمين لا فى العصر النبوى فحسب ، بل فى تاريخهم كله بعد ذلك .

وهذا النظر إلى غزوة تبوك وسورة براءة نظر جديد لم يتنبه له السابقون من المفسرين القدماء الذين تعودوا على أن ينظروا إلى الحوادث على أنها مجرد حوادث لا يرتبط بعضها ببعض بروابط تاريخية ودينية وأخلاقية ، وهذا فى ذاته حال بينهم وبين أن يستخرجوا الدروس العظيمة التى تضمنها سورة "التوبة" ، فهم دائمًا مشغولون بالجزئيات والتفاصيل . وعلى هذا الضوء نرى أن غزوة تبوك ذاتها كانت مناسبة أرادها الله سبحانه ليضع أمام المسلمين قواعد واضحة لعصر جديد سيدخل فيه الإسلام والمسلمون بعدها ، وهذا فى ذاته يعيننا - أولًا - على فهم تفاصيل غزوة تبوك ويمكننا - ثانيًا - من فهم آيات سورة التوبة وما تتضمنه من الحكم والتوجيهات التى تتضمنها تلك السورة .

والآن فلننظر إلى غزوة تبوك بإيجاز :

سبقت غزوة تبوك سبع سرايا كلها في سنة ثمانية هجرية وأوائل سنة تسعة هجرية وكلها كانت بعد إرسال رسول الله ﷺ للمصدقين في المحرم سنة تسع هجرية.

والمصدقون هنا لم يكونوا حكاماً كما يظن بعض المورخين وإنما كانوا مشرفين على إسلام الناس وإخراجهم الصدقات ، ولكن المؤرخين جعلوهم حكاماً أو ولاة سياسيين وما كانوا بذلك ، فعباد بن بشر الأشهلي الذي أرسل إلى قبيلتي سليم ومزينة لم يكن حاكماً لهم ، بل لم تكن له أية سلطة على القبائل إنما كان ممثلاً للإسلام في تلك القبائل ومعلماً للناس ومبيناً لأصوله ومشرفاً على إخراج الزكوات

وتفاصيل غزوة تبوك عندنا كاملة بفضل الواقدي الذي أتانا بها في كتاب مغازيه الذي نشر كاملاً منذ سنوات ، وهذه التفاصيل تعطينا - إذا جُمعت ودُرست - تفصيلاً دقيقاً لأحوال المدينة المنورة في السنة التاسعة للهجرة .

والناس عندنا يعتقدون أن المجتمع المدني - بعد تسع سنوات من قيادة الرسول - قد أصبح مجتمعاً مثالياً . ولا عيب فيه . ولكن التفاصيل التي لدينا لا تدل على أن كل أهل المدينة كانوا قد دخلوا الإسلام وآمنوا به ، بل كان هناك الكثيرون من المنافقين والمستهزئين ، وسورة براءة التي نزلت بعد ذلك تؤكد ذلك وترى المسلمين كيف كان تصرف الرسول مع هؤلاء - الأعداء على مستوى رفيع جداً من الإنسانية وبعد النظر .

والقرآن هنا يؤيد ذلك كله ويشرح للمسلمين طريق التصرف مع كل طراز من أولئك الأعداء .

لأن المنافقين مثلاً لم يكن هناك أمل في إصلاح أحوالهم ، ولكن معاملتهم لا تكون بالعنف والقسوة ولكن بالصبر والحكمة كما نرى في مثال الجد بن قيس الذي [كان مرة ظهر نفاقه ، أي إظهاره الإسلام [للمسلمين بالكذب والتظاهر بالإيمان بها [نفاقه هنا - أي أثناء استعدادا تبدو بصورة واضحة جداً يحكيها لنا .

وقال رسول الله ﷺ للجد بن قيس : أبا وهب ، هل لك العام تخرج معنا لعلك

تحتقب [1] من بنات الأصفر ؟ فقال الجدّ : أوَ تأذن لى ولا تفتنّى ؟ فوالله ، لقدعرف قومى ما أحدٌ أشدّ عُجْبًا بالنساء منى ، وإنى لأخشى إن رأيتُ نساءَ بنى الأصفر لا أصبر عنهنّ . فأعرض عنه رسول الله ﷺ فقال : قد أذنتُ لك ! فجاءه ابنه عبد الله بن الجدّ – وكان بَدْريًّا ، وهو أخو مُعاذ بن جَبَل لأمه – فقال لأبيه : لِم تردّ على رسول الله ﷺ مقالته ؟ فوالله ما فى سَلِمَة أكثر مالاً منك ولاتخرج ولاتحمل أحدًا ! قال : يا بُنَىّ ، مالى وللخروج فى الريح والحر والعسرة إلى بنى الأصفر ؟ والله ما آمن خوفا من بنى الأصفر وإنى فى منزلى – بخُرْبَى ، فأذهب إليهم فأغزوهم ، إنى والله يا بُنَىّ عالمٌ بالدوائر ! فأغلظ له ابنه ،فقال :لا والله ،ولكنه النفاق ! والله ، لينزلنّ على رسول الله ﷺ فيك قرآنٌ يقرأونه . قال : فرفع نَعْلَهُ فضرب بها وجهه ، فانصرف ابنه ولم يُكلّمه . وجعل الخبيث يُثبّط قومه ،وقال لجبّار بن صخر ونفر معه من بنى سَلِمَة : يا بنى سَلِمَة ، لا تنفروا فى الحرّ . يقول : لا تخرجوا فى الحرّ زهادةً فى الجهاد ،وشكًّا فى الحقّ وإرجافًا برسول الله ﷺ . فأنزل الله عزّ وجلّ فيه : « وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى الْحَرِّ » إلى قوله : « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » [1] . وفيه نزلت : « وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائذَن لِى وَلَا تَفْتِنِّى .. » [2] الآية ، أى كأنه إنما يخشى الفتنة من نساء بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، إنما تعذّر بالباطل ،فما سقط فيه من الفتنة أكثر ، بتخلّفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه عن نفسه . يقول الله عزّ وجلّ : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » يقول : إنّ جهنّم لَمِن ورائه ، فلمّا نزلت هذه الآية جاء ابنه إلى أبيه فقال : ألم أقل لك إنّه سوف ينزل فيك قرآن يقرأه المسلمون ؟ قال : يقول أبوه : اسكتْ عنى يا لُكَعُ ! والله ، لاأنفعك بنافعة أبدًا ! والله لأنت أشدّ علىّ من محمّد !

وتؤكد ذلك سورة التوبة أو براءة فى الآية ٤٩ ومايليها ، والسورة هنا تفصل أمر هذا المنافق وتوضح دخائل المنافقين بصورة عامة وترى المسلمين أنهم – أى المنافقين – فى الحقيقة أشرار وأشقياء بشرهم ولافائدة فى استعمال القوة معهم ، لأنهم هم أنفسهم يشعرون بحرج مركزهم

فى المجتمع الإسلامى المؤمن ، ولكنهم لايعرفون كيف يتصرفون . بل إن السورة توضح لنا موضوع الصدقات وفيم تصرف فى الآية ٦٠ وهى آية معروفة ومشهورة ، وهى تتضمن كذلك تفاصيل تكشف عن بعض الفضائل الإنسانية التى يتميز بها الإسلام وتلى ذلك (الآية ٦١) صورة للأذى الذى كان رسول الله ﷺ يتحمله من أولئك المنافقين الذين كانت كراهيتهم للإسلام وخوفهم من المسلمين تؤدى بهم إلى الوقوع فى أخطاء جسيمة ، ولكن الله ينصح المسلمين بالصبر عليهم ، ويكفى أن لهم عند الله عذابًا أليمًا : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

(التوبة ٩ / ٦٠)

« وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(التوبة ٩ / ٦١)

وتفاصيل غزوة تبوك كما يرويها هنا الواقدى وغيره تريدنا كيف أظهر المؤمنون الصادقون - وهم غالبية أهل المدينة - من حقائق إيمانهم واستعدادهم الكامل للبذل فى سبيل الإسلام ما يؤكد لنا بأجلى صورة كيف نجح رسول الله حقًا فى إنشاء مجتمع من المؤمنين الذين يتصرفون رجالًا ونساءً على أعلى مستوى من الإيمان والاستعداد للبذل فى سبيل الإسلام ، كما نرى فى قول الواقدى فى ص ٩٩١ : (وحض رسول الله ﷺ المسلمين على القتال والجهاد ، ورغَّبهم فيه ، وأمرهم بالصَّدَقَة ، فحملوا صدقات كثيرة ، فكان أوَّل من حمل أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، جاء بماله كلِّه أربعةِ آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيتَ شيئًا ؟ قال : الله ورسوله أعلم ! وجاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيتَ شيئًا ؟ قال : نعم ، نصفَ ما جئتُ به . وبلغ عمرَ ما جاء به أبو بكر فقال : ما استبقْنا إلى الخير قَطُّ إلا سبقنى إليه . وحمل العبَّاس - ابن عبد المطَّلب عليه السلام إلى رسول الله ﷺ مالًا ؛ وحمل طلحة بن عُبَيد الله

إلى النبيّ ﷺ مالًا ؛ وحمل عبد الرحمن ابن عَوف إليه مالًا ، مائتى أُوقيّة ، وحمل سعد بن عُبادة إليه مالًا ، وحمل محمّد ابن مَسْلَمَة إليه مالًا . وتصدّق عاصم ابن عَديّ بتسعين وَسْقًا تمرًا . وجهّز عُثمان ابن عَفّان رضى الله عنه ثُلُثَ ذلك الجيش فكان من أكثرهم نَفَقَةً ، حتى كفى ذلك الجيش مَؤُونتهم ، حتى إن كان ليقال : ما بقيت لهم حاجة ! حتى كفاهم شُنُقَ[1] أسقيتهم فيقال : إنّ رسول الله ﷺ قال يومئذٍ : ما يضرّ عُثمانَ ما فعل بعد هذا !

ورغب أهل الغنى فى الخير والمعروف ، واحتسبوا فى ذلك الخير ، وقوّوا أُناسًا دون هؤلاء مَن هو أضعف منهم ، حتى إنّ الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلَين فيقول : هذا البعير بينكما تتعاقبانه[2] ويأتى الرجل بالنّفَقَة فيُعطيها بعض من يخرج ، حتى إن كنّ النساءُ لَيُعِنّ بكل ما قدرنَ عليه .

والقرآن الكريم يؤيد ذلك فى الآية ٧١ من سورة التوبة حيث يقول سبحانه وتعالى . « وَالْمُؤمِنُونَ وَالْمُؤمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ويقول سبحانه بعد ذلك فى الآية التالية (٧٢) : « وَعَدَ اللهُ الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

وكلنا نعرف أن القرآن الكريم نزل منجمًا على أساس حوادث من الواقع حتى يكون الواقع مؤيدًا لما يرد فى القرآن .

ويندر فعلًا أن يلتقى الواقع كما كان فى عصر الرسول مع آيات معينة فى القرآن الكريم مما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن غزوة تبوك كانت فى الحقيقة مقدمة من الواقع الذى كان المسلمون يرونه ثم جاءت

---

(١) شنق : جمع شناق ، وهو الخيط أو السير الذى تعلق بـه القربة ، والخيط الذى يشد به فمها . (النهاية ج ١ ، ص ٢٣٩) .

(٢) فى الأصل : « تتعقبانه » .

يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (٩ / ٢٩) .

فقد قال بعد كلام كثير . « وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين (يريد فى جزيرة العرب) ودخل الناس فى دين الله أفواجاً فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى ، وكان ذلك فى سنة تسع ، ولهذا دعا رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم للخروج معه ، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك فى عام جدب ووقت قيظ وخرج عليه السلام يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك ونزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً ثم استخار الله فى الرجوع ، فرجع عامه وذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى[1] » .

وهذا الكلام وإن لم يكن كامل الصحة فى مجموعة يفتح لنا باباً واسعاً للكلام عن غزوة تبوك وعلاقتها بسورة براءة فإن ابن كثير يقول هنا . إنه بعد إسلام أهل الجزيرة جاءه أمر الله سبحانه بقتال المشركين من أهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى ، ولم يقتصر الأمر هنا على قتال الروم وحدهم فقد كان من العرب فى الشمال أقوام دخلوا فى النصرانية أو حالفوا الروم فهم معدودون منهم .

قال الواقدى فى الخبر الذى روى عن أن هرقل استعد لقتال المسلمين . (وهو الخبر الذى تبين بعد ذلك أنه غير صحيح : وإن هرقل قد رزق أصحابه لسنة واجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص . ولم يكن ذلك ، إنما ذلك شئ قيل لهم فقالوه »[2] .

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٧٤ — ٧٥).

(٢) الواقدى ، مغازى ٣ — ٩٩٠ .

وإذن فلم يكن الروم وحدهم هم المقصودون بهذه العزوة ، وإنما قبائل عربية دخلت المسيحية وساروا مع الروم ، وقد ذكر الواقدى هنا لخماً وجذاماً وعاملة فأما الثلاثة الأخيرة من هذه فكانت فيما عرف بعرب الروم أو نصارى العرب ، وهم قبائل عربية فى مداخل الشام من فروع قضاعة ، وكانت قضاعة قد تفككت رضعف أمرها ، ومن أكبر ما تفرق منها جذام وغسان وعاملة وجهينة وباهلة وذات القين وغيرها . وكانت هذه القبائل تتفرق وتمتد حتى تقترب من المدينة المنورة ، وكانت تتعالى على بقية العرب وتحسب نفسها أرفع منها مكاناً ، وكان رسول الله ﷺ قد أدرك ذلك لأول دخوله المدينة

فاتجهت همته إلى غزو جهينة التى كانت بلادها تمتد إلى شمال الجزيرة فسير إليها صاحبه عبد الله بن جحش فى نفر من أصحابه فأخافها ، وأعلنت رغبتها فى محالفة المسلمين فطلبت أن يعطيها الرسول ميثاقاً بالأمان (أوثق لنا موثقاً) فأعطاهم عبد الله بن جحش الأمان الذى سألوا ، وهذه سرية لم يذكرها أصحاب المغازى وإنما جمعنا تفاصيلها من النصوص التى بين أيدينا ، وفيها يقال إن عبد الله بن جحش كان أول من لقب بأمير المؤمنين ، أى أمير المقاتلين من المسلمين المؤمنين وهذه سرية سابقة على سرية سيف البحر التى تعد أول السرايا فى كتب السيرة .

وبقيت من فروع قضاعة التى حالفت الروم قبائل كثيرة تمتد بلادها من شمالى خيبر إلى مداخل البلقاء وأهمها هى الثلاث المذكورة هنا (جذام وغسان وعاملة) وكان لابد من إدخالها فى الإسلام أو فى عهده قبل غزو الروم وقد ورد هنا أيضاً ذكر لخم ، ولخم ، المأثور الشائع عندنا كانت فى حلف الفرس وطاعتهم ومنهم كانت المناذرة ، ولكننا نرى هنا أن فريقاً من لخم كانوا نصارى ، وكانوا مع الروم وهؤلاء كانوا هم المقصودين فى هذه العزوة .

وقد صارح الرسول أصحابه وأهل المدينة جميعاً ومن دخل فى عهده من القبائل حول المدينة بوجهته حتى يعرف الناس أنهم يتوجهون إلى بلد بعيد وقتال شديد ، فلا يزعم أحد منهم بعد ذلك أنه لم يعرف إلى أين كانت الغزوة ولكى يختبر المسلمين بذلك ، فمن الناس من تقعد به الإرادة

عن الحرب البعيدة لأن إيمانهم لم يبلغ المبلغ المطلوب فى الجهاد ، وقد حدث من هذا كثير ، وكانت تبوك من هذه الناحية اختبارًا للمسلمين أولا ثم وسيلة لبيان موقف الإسلام من هؤلاء .

وقد أظهر أغلب المسلمين – كما رأينا – إيماناً عظيماً وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله راضين سعداء .

وقد ذكر الواقدى أمثلة كثيرة من دلائل إيمان هؤلاء ، بل إنه يقف طويلاً عند ما أظهرته المؤمنات من كرم وسماحة وقال : « حتى إن النساء كُنَّ يَجُدْن بكل ما قدرن عليه قالت أم سفيان الأسلمية : قد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدى رسول الله ﷺ فى بيت عائشة رضى الله عنها فيه مسكة (سورة من دبْل [1] أو عاج) ومعاضد وخلاخل وأقرطة وخواتيم وخدمات مما يبعث به النساء يُعِنَّ به المسلمين فى جهازهم والناس فى عسرة شديدة » [2] .

ثم يحدثنا الواقدى بعد ذلك عن اهتمام الرسول ﷺ بتنبيه المسلمين إلى أهمية هذه الغزوة وضرورة بذل أكبر الجهد فيها والإسراع فى ذلك ، ثم رحل وضرب معسكره فى ثنية الوداع (شمالى المدينة) ليلحق به من يريد اللحاق ، وقد لحق به الكثيرون جدا حتى بلغت عدة الجيش ثلاثين ألفًا وكانت هذه أكبر قوة عسكرية عرفتها الجزيرة إلى ذلك الحين .

ولكنّ المنافقين ظلُّوا رغم ذلك كله منافقين ، أى مظهرين للإسلام مخفين العداء له ، وهذا طبيعى فى حالتنا تلك لأن المؤمن الذى فتح الله قلبه للإيمان آمن ، أما الذى امتلأ قلبه بالشكوك فكيف يؤمن ؟

ويبدأ الواقدى هنا فيحدثنا عن الجدّ ابن قيس وكان من كبار المنافقين الذين لم يؤمنوا قط ، وقد زعم هنا أنه لا يستطيع الخروج لحرب الروم خوفًا على نفسه من نسائهم ، وزعم هنا أنه يخشى أنه إذا رآهن ضعف ووقع فى الفتنة ، وواضح أن هذه مجرد تعلة لأن المسألة إذا كانت

---

(١) الدبل حلد السلحفاة البرية أو البحرية تتخذ منه الأسورة والأمشاط .
(٢) الواقدى ، مغازى ٣ – ٩٩١ – ٩٩٢ .

مسألة فتنة نساء الروم فكل العرب كانوا معرضين لهذه الفتنة ، ولكن إيمانهم كان أقوى منها ، فهم لا يخشون على أنفسهم منها لأن إيمانهم يغلب على ذلك كله ، وهم ذاهبون لقتال الروم لا للتعرض لنسائهم ، والواقدى يؤكد هنا أن الرجل لم تكن به كل هذه الفتنة بنساء الروم ، وكان أكبر من أنكر موقف الجدّ بن قيس ابنه عبد الله الذى لام أباه لومًا شديدًا وقال له : فو الله ما فى بنى سلمة أكثر منك مالًا ، ولا تخرج ولا تحمل أحدًا .

وهنا اضطر الرجل إلى أن يكشف لابنه عن حقيقة نفسه وما دعاه إلى القعود عن الخروج مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وتعلق هنا أيضًا بحجة الخوف من فتنة نساء الروم ، فرد ابنه عليه قائلًا له : لا والله ولكنه النفاق ، والله لينزلن على رسول الله فيك قرآن يقرأونه ! » فغضب الرجل على ابنه وخلع نعله فضرب بها وجهه ، فانصرف ابنه ولم يكلمه ، وكشف الحر عن وجهه فمضى يثبط من هم على شاكلته عن الخروج للحرب ، وجعل يوجه كلامه إلى بنى سلمة وهم قومه ولولا النفاق لكان رئيسهم وسيدهم وجعل يقول : (لا تخرجوا فى الحَرّ) زهادة فى الجهاد وشكًّا فى الحق وإرجافًا برسول الله ﷺ ولم يفعل الرسول به شيئًا ولكن الله سبحانه أنزل فيه وفى أمثاله قوله :

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » (١) .

(١) سورة التوبة ٩ — ٨١ — ٨٥ .

يقول الواقدى . «فلمّا نزلت هده الآية جاء الابن إلى أبيه فقال : أَلَمْ أقل لك إنه سوف ينزل فيك قرآنٌ يقروُه – المسلمون ؟ قال : يقول أبوه : اسكت عني يا لكع ، والله لا أنفعك بنافعة أبدًا ، والله لأنت أشد عليَّ من محمد »[1] .

وهدا الموقف والكلام من الجد بن قيس يدل على أنه كان فى الحق تعيسًا بموقفه من رسول الله والإسلام ولكن ما عساه يفعل وقد امتلأت عيرة من رسول الله ونفورًا من الإسلام .

ويقول المفسرون فى تفسير الآيات الأخيرة من الآيات التى ذكرناها أنها نزلت فى عبد الله بن أُبيٍّ الذى يوصف دائمًا بأنه كبير المنافقين وكان رسول الله يعلم بأنه منافق وكاذب ، ولكنه كان يتركه على حاله ليتعذب بموقف المسلمين منه واحتقارهم إيّاه وعجزه عن القيام بشيء ، وقد أراد الله سبحانه أن يكون هذا حالهم لكى – يكونوا عبرًا للمسلمين .

وكذلك كان موقف الصبر وطول البال وبُعد النظر من جانب رسول الله دروسًا للمسلمين ، فلو أنه أراد أن يقضى عليهم كلهم فى ساعة لتم له ما أراد ، ولكن الله سبحانه أراد هنا أن يعلم المسلمين ويعرفهم كيف ينبغى أن تكون مواقفهم فى هذا الطراز من أهل النفاق .

ومن المعروف أن الإسلام دين الصبر على الأعداء وطول البال معهم والحكمة فى معاملتهم ، وما كان شيءٌ من هذا ليتحقق لو أن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه انتهى من أمرهم فى يوم ، لأن العبرة كانت فى أن يرى المسلمون تعاستهم ، وعذابهم وسوء مركزهم وسط المسلمين .

وكان ابن أُبي لا يستطيع كتمان نفاقه لأنه فى الواقع كان يعانى منه وكان غروره بنفسه يمسكه عن الإيمان برسول الله ﷺ .

قال الواقدى : « فلمّا سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أُبىّ عن رسول الله ﷺ فيمن تخلف من المنافقين وقال : يغزو محمد بنى الأصفر ! مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما قِبَلَ له به !

(١) الواقدى ، مغازى ٣ – ٩٣ .

يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر اللعب !

ونافق معه من هو على مثيل رأيه ، ثم قال ابن أبي . والله لكأنى أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين فى الحديد ! إرجافًا برسول الرسول ﷺ [1]

ومع ذلك فقد تركه رسول الله على حاله لتزداد تعاسته وسط المسلمين . وكان الناس يعرفون المنافقين بينهم ، ولكنهم كانوا يتركونهم على مذهب رسول الله ﷺ من هذا الطراز من الناس ، قال الواقدى : « قال : حدثنى يونس بن محمد عن يعقوب بن عمر بن قتادة عن محمود ابن لبيدا أنه قال له :

هل كان الناس يعرفون أهل النفاق منهم ؟ فقال : نعم والله ! إن كان الرجل ليعرفه من أبيه وأخيه وبنى عمه . سمعت جدك قتادة بن النعمان يقول : تبعنا فى دارنا قوم منا منافقون ثم من بعد سمعت زيد بن يقــول فى بنى النحار : من لابارك الله فيه ! فقال : من يا أبا سعيد ؟ فيقول : أسعد بن ررارة وقيس بن قهد ، ثم يقول ريد : لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ فى عزوة تبوك فلمّا كان من أمر الماء ما كان دعا رسول الله ﷺ فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس .

فقلنا : يا ويحك أبعد هذا شئ ؟

فقال : سحابة حارة ! وهو والله رجل لك به قرابة .

قال محمود : قد عرفته [2] !

وإذن فموقف المسلمين من المنافقين تسامح وعقل مقصودان كى يتعلم المسلمون كيف يصبرون على المنافقين فى وسطهم حتى يبلغ بهم الأمر أن يؤمنوا أو يموتوا على حالهم من النفاق والبعد عن الناس .

وقد حكى الواقدى بعد دلك حكاية رجل من المنافقين يسمى زيد بن اللصيت وكان من بقايا بنى قينقاع ، وكان رسول الله ﷺ قد فقد ناقته فقال المنافقون

---

(١) الواقدى ، مغازى ، ٣ — ٩٩٥ — ٩٩٦ .

(٢) الواقدى ، مغازى ، ٣ — ١٠٠٩ .

وفيهم زيد هذا ما معناه كيف يأتيكم محمد بخبر السماء وتصدقونه ، وقد ضاعت ناقته فهو لا يعرف أين تكون ، وقد دل رسول الله ﷺ على مكانها ، وذهب الناس وعادوا بها ، فقال زيد بن اللصيت لكأنى لم أسلم إلّا اليوم لقد كنت شاكًا فى محمد وقد أصبحت وأنا فيه ذو بصيرة ، وأشهد أنه رسول الله ، فزعم الناس أنه تاب وكان خارجة بن زيد بن ثابت ينكر توبته ويقول : لم يزل فسلًا (أى رذلًا) حتى مات »[1] .

وبهذه المناسبة أظهر الرسول ﷺ من العناية بالخيل ما زاد من محبة الناس لها والحرص عليها ، قال : قالوا : وبينا رسول الله ﷺ بتبوك قام إلى فرسه الظرب فعلق عليه شعار (الشعار ما ولى الجسد من الثياب) وجعل يمسح ظهره بردائه . قيل : يا رسول الله ، تمسح ظهره بردائك ؟ قال : نعم ، وما يدريك لعل جبريل أمرنى بذلك ، مع أنى قد بت الليلة وإن الملائكة تعاتبنى فى حسن الخيل ، ومسحها .

وقال : أخبرنى خليلى جبريل أنه يكتب لى بكل حسنة أوفيتها إيّاه حسنة ، وأن ربى عزّ وجلّ يحط بها عنى سيئة ، ومامن المسلمين من يربط فرسًا فى سبيل الله فيوفيه بعليفه يلتمس به قوته ، إلّا كتب الله له بكل حسبة حسنة وحط عنه بكل حسبة سيئة[2] .

بل إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه وجد فى هذه الغزوة الكبيرة فرصة لتربية الناس وحثهم على الثبات والعقل ، فقد فزع الناس ذات مرة لأمر ما ، ويبدو أن فزعهم زاد على الحد فخرج رسول الله علينا معضبًا فقال : أيها الناس ، ما هذه الخفة ، ما هذا النزق ألا صنعتم ما صنع هذان الرجلان الصالحان[3] ، يريد عبد الله ابن عمر أو عبد الله بن عمرو بن العاص وسالمًا مولى حذافة .

والآيات تتوالى ، بعد ذلك فى بيان أعمال

(١) الواقدى ، مغازى ٣ — ١٠٠٨ — ١٠١٠ .

(٢) وقد أمر الرسول بالعناية بالخيل فى مناسبات أخرى — الواقدى ٣ — ١٠٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ٣ — ١٠٢١ .

المنافقين وأهل الكفر وما أعد الله لهم من العقاب ، وهنا نلقى آيات كثيرة تنص على وجوب قتال المشركين ، ويلاحظ هنا أننا فى العادة نفرق بين الكافر والمشرك ، فنقول : إن الكافر هو من كفر بالله ، أى أنكره وأنكر الإيمان به إنكاراً تاماً .

أما المشرك فهو الذى يؤمن بالله ولكنه يشرك معه غيره فى الألوهية والعبادة . فأما الكافر وهو فى الغالب وثنى فلابد من قتاله حتى يؤمن أو يموت ، وأما المشرك فإنه يقاتل حتى إذا استسلم للمسلمين خير بين أن يسلم ويصبح واحداً من المومنين أو يبقى على دينه ويؤدى الجزية فيصبح من أهل الذمة أى من الداخلين فى طاعة المسلمين وحمايتهم أو يقاتل حتى يموت ، وقد درس الفقهاء والأئمة ذلك كله وانتهوا إلى أن الجهاد خارج بلاد المسلمين واجب على المسلمين جميعاً باستثناء من عجز عن القتال للضعف أو المرض أو الشيخوخة ، وجعلوا لكل حالة حلاً أو حلولاً .

أما داخل بلاد الإسلام فإن الكافر بالله لا يترك على كفره أبداً ، بل لابد أن يؤمن أو حتى الموت أما المشرك فقد ذكرنا حكمه فيما سبق .

* * *

والآيات بعد ذلك تتتبع أعمال المنافقين فى المدينة وتصدر حكم الله على كل طائفة من المنافقين ، مثال ذلك أن نفراً من المنافقين استأذنوا رسول الله فى عدم الخروج للغزو وتعللوا فى ذلك بتعلات شتى ، فقال الله فى الآية ٤٣ وما بعدها :

«عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ، وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) » .

وللمفسرين كلام جميل فى معانى هذه الآيات ، فقال ابن كثير نقلا عن ابن أبى حاتم عن رواته : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ! بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال : « عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ » .

وقال ابن كثير أيضاً . ولكن نقلاً عن قتادة بن النعمان : عاتبه كما تسمعون ثم أنزل (الآيات) التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء :

« فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ » (٢٤ - ٦٢) .

ثم يقول الله بعد ذلك : إنهم إذا أرادوا الخروج لاستعدوا له وخرجوا ، ولكن الله يعلم بما فى قلوبهم من الضعف فثبطهم عن الخروج حتى لايكون لهم شرف الخروج ، ثم لكى يحمى المسلمين منهم لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين ماكفوا عن تثبيطهم ومنهم ناس يسمعون لهم .

ثم يقول الله تعالى :

« لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ » (٩ - ٤٨) .

قال ابن كثير :« وذلك أول مقدم رسول الله ﷺ ، رمته العرب عن قوس واحد وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله تعالى يوم بدر وأعلى كلمته قال عبدالله ابن أبى وأصحابه : هذا أمر قد توجه ، أى أن تثبيط أمور المسلمين انتهى أجله وانقضى فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ثم أنهم لما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال الله تعالى :

« حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ » .

ثم يدخل القرآن بعد ذلك فى تفاصيل بعض ماحدث قبيل خروج الرسول ﷺ إلى تبوك من تعلق بعض المنافقين بتعلات واهية - بل سخيفة - لتبرير عدم الخروج للجهاد فيقول - مثلاً فى الآية ٤٩ من سورة التوبة :

« وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) والإشارة هنا واضحة ، والمراد بها هنا الجدّ بن قيس أخو بنى سلمة ، وكان واحداً من أكبرهم ، وكان معروفاً أنه فى جماة المنافقين ، وقد دعاه رسول الله ﷺ إلى الخروج للغزو فى أسلوب لطيف مجاملة له ، قال ابن كثير

فقال : يارسول الله ، أو تأذن لى ولاتفتنى فوالله لقد عرف قومى مارجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عليهن وأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك وهذا كان كلام الجدّ بن قيس ...أى أنه كان يخشى من نساء بنى الأصغر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن الجهاد أعظم (تفسير الطبرى) ، الأثر ٥٦٧٨٨ (١٤ / ٣٨٣) ، وينظر سيرة ابن هشام (٢ / ٥١٦) . وواضح أن هذا الرجل كان فى الغاية من التفاهة عندما قال ذلك ، فإن فى كل رجل صحيح ميلاً إلى النساء ، ولكن الإنسان يضغط على نفسه ويوجهها ولا يخشى أن يخرج للقتال ، فيتعرض للفتنة من نساء الأعداء ، ولهذا فقد كان إنكار الله سبحانه لموقفه هذا شديداً ، وكان رسول الله قد صرف النظر عنه لأنه كان يعرف أنه منافق ، فلما نزل حكم الله فيه افتضح أمره بين المسلمين وساء مركزه ولكنه ظل منافقاً .

وفى آيات أخرى بعد ذلك نجد الإشارة إلى المخلفين ، وهم نفر من القادرين على القتال تخلفوا عن رسول الله كسلا وميلاً إلى الدعة ومنهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، وهؤلاء اختلف فيهم حكم الإسلام بحسب موقفهم بعد تبوك .

قال ابن كثير : « فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل ابن لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة هؤلاء قبل أولئك ، وأرجىء هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية ، وهى قوله تعالى :

« لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ... » (الآية ١١٧) « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ... » (الآية ١١٨) .

كما سيأتى بيانه فى حديث كعب بن مالك وقوله :

« فَإِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ » أى . هم تحت عفو الله ، إن شاء فعل بهم

الرقاب والغارمين وفى سبيل الله) فهنا نجد قواعد عامة عادلة لابد أن يطبقها المسلمون فى التصرف فى أموال الصدقات ، فلابد أن تقسم على الطوائف الثمانية الذين وردوا فى هذه الآية ، وحيث إن الصدقات فريضة على كل المسلمين فهذه طريقة التصرف فيها ، وليس لمسلم أن يتصرف فيها كما يشاء . وللمسلمين كلام كثير فى ذلك كما أن كثيراً من حكام المسلمين أساءوا التصرف فى الصدقات فاعتبروها ضمن ماظنوا أنه حق لهم من الضرائب على الناس.

وقد أورد الصحابى عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم مع سنده قال فيه : فأتى رجل رسول الله فقال أعطنى من الصدقات فقال له : إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك[1] » .

وهذه الآية معروفة لنا جميعاً . وهى متداولة فى كتب كثيرة لأهميتها . والآيات التى تتضمن أحكاماً عامة تصدق فى كل زمان كثيرة جداً فى هذه السورة التى نزلت فى مناسبة معروفة هى غزوة تبوك ولكنها تصدق على المسلمين فى كل زمان ومكان ومن ذلك قوله تعالى فى الآيتين ٦٥ و ٦٦ من نفس السورة :

« وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ،قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِين » .

وقد روى ابن كثير خبراً غير محدد ولكنه يؤكد حقيقة ما وقع من المنافقين قال بعد السند : قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى رسول الله ، وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : « أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » إلى قوله « مُجْرِمِينَ » ، وإن رجليه لتنسفان الحجارة ، أى أنه فى تتبعه لرسول الله يشق الأرض برجليه

---

(١) أحالنا ابن كثير هنا إلى سنن أبى داوود «كتاب الزكاة» باب من يعطى الصدقة وحد الغنى الحديث ١٦٣٠ ، ٢ – ٢١٧ . وقد قال ابن كثير إن الحديث ضعيف ، وهو ضعيف فعلا (انظر تفسير ابن كثير ٤ ، ٢٠٥) .

الصادقين وما أعد الله لهم من حسن الجزاء نجد الآية الرابعة والسبعين تفتح لمن يريد إصلاح نفسه والانضمام إلى المسلمين الصادقين طريقاً للتوبة :

« يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَاقَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَانَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ » .

ونعتقد أن هـذه الآية التى فتحت أبواب التوبة والرحمة أمام المنافقين هى التى أوقفت النفاق فى المدينة ، والمجتمع الإسلامى كله بعد ذلك ، ونلاحظ أن الآية تنص على أن الله أغنى أولئك الناس وبقية أهل المدينة من فضله ، وتلك حقيقة تاريخية لم يتنبه إليها أحد ممن أرخوا للسيرة أو لعصر الرسول ، فإن هجرة الرسول إلى المدينة وإنشاءه الجماعة الإسلامية فتحت أمام أهل المدينة أبواباً واسعة من الغنى ، فقد هدأت الأحوال فيها وكثر توافد الناس عليها ، فاتسعت مساحتها وزادت أبواب الرزق أمام أهلها ، فاغتنوا وأصبحوا أغنى من أهل مكة .

حقاً لقد دقى فى مكة نفر قليل من الأغنياء ولكن البلد كله افتقر بعد أن توقفت تجارته ولم يعد الناس يزورونه للحج كما كان الحال قبل .

ولا ننسى هنا أن تحسن الأحوال الاقتصادية فى المدينة يرجع إلى الاسلام ومبادئه وإلى الطريقة المثلى التى سار عليها رسول الله فى قيادة أهل المدينة ، فقد كثر السكان وكان لابد من أعمال صناعية وتجارية للقيام بشئون هؤلاء السكان الجدد ، ثم إن الإسلام ينص على أن يشترك المسلمون جميعاً فى الغزو أو الإنفاق على الغزوات والسرايا والبعوث .

ومن هنا نفهم كيف أن تحسن الأحوال فى المدينة لم يؤدِّ إلى ظهور طبقة من الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال كما كان الحال فى مكة ، إنما هى كانت حالة رخاء عام ونشاط فى العمل والإنتاج مع النص على أن الأغنياء ينبغى أن ينفقوا أموالهم على مصالح الجماعة .

نفاقاً ، وأما عن صاحب الصاع فقد تضاحكوا به وقالوا : إن الله لغني عن صاع أبي عقيل ! فقبل رسول الله ﷺ من كل منهم ما تقدم به وقال لكل منهم : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك الله لك فيما أمسكت .

وقال ابن كثير بعد ذلك : وقوله : فيسخرون منهم ، وهذا على باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمسلمين لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر بهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً[1] وقال الله سبحانه بعد ذلك مخاطباً رسوله الكريم :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ . واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ » (٩ـ٨٠)

ونحن نرى هنا أن الله سبحانه وتعالى ترك هؤلاء المنافقين يتصرفون على هواهم ، وكان قادراً على أن يسكتهم إلى الأبد ، ولكن الله أراد أن تكون في هذا دروس للمؤمنين ، وأن نرى بأعيننا الحرية التي كانت للناس في عهد الرسول ، وهذه الحرية هي التي قضت على أولئك الناس لأنهم تصرفوا على ما رأوا دون أن يتدخل الرسول في حياتهم ، ثم جاء الله بالحل الأمثل والدرس الأعظم الذى نفع المسلمين في العصر النبوى ، فقد كانت آيات الله سبحانه خير علاج ، وبالفعل فإن هذا الطرز من المنافقين احتفت من المجتمع الإسلامي اختفاء تاماً ، وما كانت لتختفي على هذا النحو إذا كان الرسول قد أخذهم بالعنف.

ونعتقد أن الحرية هنا كانت جزءاً أساسياً في العلاج ، فقد رأى الناس كلهم هؤلاء الناس وما كان من تصرفهم ، ثم جاء حكم الله خير علاج لأحوالهم .

وتأتي بعد ذلك آيات تكرر الغضب على الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله كسلاً وكراهة في الحرب ، ولم يكتفوا بذلك بل مضوا في حث الناس على القعود وعدم الخروج في الحر :

---

(١) ابن كثير ٤ / ١٢٦ .

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا : لَا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ . قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٩ ـ ٨١) . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٩ ـ ٨٢) .

ثم تلى ذلك آيات تذكر عقابات أخرى لهؤلاء :

« فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٩ ـ٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٩ـ ٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٣ ـ ٨٥) .

وهكذا نرى أن الله سبحانه جعل عقاب أولئك المخالفين والقاعدين بيده وحده ، وهو الذى عاقبهم وحكم عليهم فكان ذلك أبلغ حكم ، فاختفوا بحكم الله لا بحكم أحد ، لأن الناس قد يخطىء بعضهم فى حق بعض ، وقد يسىء بعضهم الحكم على بعض فتكون العقوبة غير عادلة ، ولكن الله سبحانه يعرف الناس أجمعين ظاهراً وباطناً ، ولهذا كان عرضه لحالاتهم صادقاً وحكمه عليهم حاسماً .

وهذا هو الذى نراه فى المجتمع الإسلامى فى العصر النبوى ، وهو يصدق أيضاً على كل الجماعات الإسلامية بعد ذلك ، وهذا هو موقف العبرة الكبرى فى الإسلام فإن الله سبحانه هو الذى يهدى الناس ، والناس لا يستطيعون هداية بعضهم بعضاً ، وإنما يقف جهدهم عند بيان الدين وشرحه للكافرين أو المقصرين ، والبقية ، وهى هداية الناس أو عقابهم إذا كانوا لا يفتحون قلوبهم للحق – بيد الله سبحانه وتعالى .

وحتى لو جاءوا بعد ذلك يعرضون على الرسول أن يخرجوا معه فإن الله سبحانه لا يرضى عن خروجهم ويقول لهم : لقد قعدتم عن الخروج أول مرة كسلاً وتهاوناً بأمر

الله (فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) . بل إن الله يأمر رسوله الكريم بألا يصلى على أحد مات منهم ولا يقوم على قبره لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون .

وكان رسول الله ﷺ يرى قبل نزول هذه الآيات أن الله خيره بين أن يصلى على هؤلاء المنافقين أولا يصلى، فاختار الصلاة على ابن أبى بن أبى سلول لأن ابنه كان مؤمناً ، وقد سأل رسول الله أن يصلى على أبيه عندما مات وصلى عليه فعلا وقام على دفنه وقد أنكر ذلك عمر وأنكره جبريل كذلك فجاءت هذه الآيات حاسمة هنا حتى لا يصلى المؤمنون على المنافقين والكاذبين بعد ذلك أبداً ، بل إن الله سبحانه حذر رسوله من العطف على أحد من المنافقين إكراماً لأبنائهم المؤمنين .

« وَلاتُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) .

وبعد ذلك وزيادة فى التوضيح من الله سبحانه وتعالى فى هذه المواقف جاء قول الله سبحانه :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٩ ـ ٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَايُنفِقُونَ) (٩ـ٩٢) .

وهذا حدث فعلاً ، إذ أن نفراً من المؤمنين الصادقين لم يجدوا سلاحاً ولا ما يركبونه للخروج فى تلك الغزوة البعيدة فاعتذر الرسول إليهم بأنه لا يملك ما يحملهم عليه فتولوا وهم يبكون .

وقد تولى بعض المؤمنين إعانة بعضهم فأعطوا رجلين منهم جملا ليركبا متعاقبين ولكن بقى الكثيرون عاجزين عن الخروج ، وهؤلاء يعفيهم الله سبحانه من العقاب وهذا يصدق أكثر فى أيامنا هذه لأن الحرب أصبحت أكثر تعقيداً وصعوبة ، وإذا كان كافياً فى العصر النبوى أن يساعد مؤمن إخوانه من المسلمين الصادقين فيعطى اثنين منهم جملاً ليخرجا عليه ، فإن الحرب فى أيامنا تحتاج إلى أكثر من هذه المعونة

البسيطة وتصبح الدولة هى المسئولة عن خروج الناس إلى الحرب وبدلاً من أن يذهب الناس إلى الدولة يطلبون المعاونة نجد أن الدولة فى أيامنا هذه هى التى تقوم بتنظيم الخدمة العسكرية ، فهى تجند الناس فى سن معينة وتعلمهم الحرب وتمرنهم على استخدام السلاح وتعدهم للحرب دفاعاً عن الوطن حتى إذا جاء وقت الحرب كانوا قادرين على الخروج والثبات والحرب واستعمال أجهزة العصر وأدواته .

وأصبح الواجب على الناس فى أيامنا الصدق مع الدولة والإخلاص فى التدريب واستعمال الأجهزة والسلاح ، وأصبح هذا كله فاصلاً فى أيامنا حتى إن رجالاً فى الغرب فاتتهم سن الحرب والقدرة عليها فلجأوا إلى الكذب فى تعيين سنهم لكى يخرجوا مع المقاتلين ولا يبقوا مع القاعدين فاجتهد رجال الدولة فى إفهامهم أنهم يعرفون سنهم ويعرفون كذلك أن هذه السن لا تساعدهم على الثبات والقتال فى الميادين .

ومن هنا نرى أن ما يزعمه البعض من أنهم مسئولون عن الحرب والدفاع دون إذن الدولة وتنظيمها وتسليحها خطأ ولا يجوز ، فإن الناس أصبحوا فى أيامنا ملايين كثيرة ، ومن الممكن أن يحاول البعض خداع الدولة والزعم بأنهم مسؤلون عن القتال مباشرة . وهذا خطأ وخطر ، وحتى إن زعم بعضهم أن الدولة أهملته فإنه لا يجوز له أن يعد نفسه للحرب ويقوم بها بنفسه أو مع جماعة من أمثاله فذلك خطأ .

ومن الواجب أن يتقدم كل من يريد الدفاع عن الوطن والدين إلى الدولة وهى التى تتولى كل مسؤليات الحرب والجهاد وإعداد الجيوش للقيام بالحروب على مستوى العصر .

وبعد آيات قليلة يأتى الكلام على الأعراب ، والمراد بهم هنا – وفى العصور التالية – الجهال الذين يعيشون فى جماعات غير منظمة بعيداً عن الجماعات المستقرة المتحضرة ، فهؤلاء تشغلهم الفوضى التى يعيشون فيها عن الدين ومطالبه ، ثم إن الجهل والفوضى تجعلهم بعيدين بالقلب والإحساس عن طلب الهدى ، وقبل أن نورد كلام الفقهاء فى هذه المعانى نورد

الآيات القرآنية الكريمة : قال سبحانه .

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩–٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩–٩٩)

ونلاحظ هنا وكذلك لاحظ المفسرون أن الله سبحانه قسم الأعراب هنا إلى قسمين :

قسم منافق كافر وقسم مؤمن .

قال ابن كثير : أخبر تعالى أن فى الأعراب كفارًا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أى أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند .

فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى ، وإن يدك لتريبنى .

فقال زيد : ما يريبك من يدى ؟ إنها الشمال .

فقال الأعرابى ، والله ما أدرى اليمين يقطعون أم الشمال ؟

قال زيد بن صوحان : صدق الله :

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقاً ، وَأَجْدَرُ أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ »[1]

ونلاحظ هنا أن ذلك الأعرابى لم يكن جاهلاً فحسب ، بل كان كذلك شريرًا سيء القلب ، فهو يسخر من الشيخ لمجرد أنه شيخ عالم

وروى ابن كثير هنا حديثًا عن ابن عباس يقول فيه بعد السند :

(من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل « عن أوقات الصلاة » ، ومن أتى السلطان افتتن)[2] .

وقد علق الترمذى على ذلك الحديث

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠٩٣ (١٤ – ٤٢٩) .

(٢) مسند الإمام أحمد ١ – ٣٥٧ ، ابن كثير ٤ – ١٤٠ .

بقوله : حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من حديث الثورى .

ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : ولمّا كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولًا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

(سورة يوسف ، الآية ١٠٩)

أى أن الله سبحانه يختار رسله من أهل القرى والجماعات المستقرة المتحفزة .

قال ابن كثير فى تفسير الآية : (وأخبر تعالى أن منهم « مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ » ، أى فى سبيل الله مغرمًا أى غرامة وخسارة . « وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ » ، أى ينتظر بكم الحوادث والآفات . ثم يقول بعد ذلك : « وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ » .

هذا هو القسم الممدوح من الأعراب ، وهم الذين يتخذون ماينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم . « أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ » أى إن ذلك حاصل لهم : « سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

وقد فات ابن كثير أهم شىء هنا ، وهو ما كان ينبغى له أن يفوته وهو عدل الله سبحانه وتعالى فى الحكم على الناس . فما كان ليصدر حكمًا عاما على كل الأعمال بأنهم : « أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » . فإن فى الأعراب مؤمنين أتقياء يتخذون مايمفقون فى سبيل الله قربات يتقربون بها إلى الله ويبغون بذلك أن يدعو الرسول لهم

وهذه حقيقة عن الأحوال الاجتماعية فى جزيرة العرب فى العصر النبوى فقد كان الأعراب كثيرين ، ومنهم من كانوا — مؤمنين ذوى قلوب رقيقة وهؤلاء فهموا الإسلام حق الفهم ولكن غالبيتهم كانوا من أشد الناس كفرًا ونفاقًا ، لأن هذه هى طبيعة البداوة وجفاءها وخشونتها ،

ولن يصلح المجتمع العربى فى جزيرة العرب إلّا إذا قضى على البداوة واستقر سكانها أجمعين وساروا فى طريق الحضارة ، وهذا هو ما أدركه الملك عبد العزيز آل سعود عندما تولى أمر جزيرة العرب وقرر أن يخرجها من الضياع والتفرق الذى كانت تعانيه ، وينشئ من أولئك العرب ، بدوًا وحضرًا مجتمعًا واحدًا متحضرًا متساندًا . أى أمة عربية ، وقد وفق فى ذلك ، لأنه كان يسير فى تفكيره السياسى وعمله فى تطبيق ذلك التفكير على القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ومن الحقائق الاجتماعية والفكرية التى تتضمنها الآيات بعد ذلك مايقوله ابن كثير : وقال عبد الرازق : أخبرنا معمر عن قتادة فى هذه الآية :

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ » (٩ ـ ١٠١)

أنه رأى رسول الله ﷺ قال : ما بال أناس يتكلفون علم الناس : فلان فى الجنة وفلان فى النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال . لا أدرى ، لعمرى أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس ، وقد تكلفت أى (كلفت نفسك) شيئًا ما تكلفه الأنبياء قبلك . قال نبى الله نوح : « وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، وقال نبى الله شعيب : « بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ » سورة هود (١ ـ ٨٦)

والمراد ببقية الله خير لكم : أى ما أبقاه الله لكم من الحلال .

(انظر : المصحف المفسر لمحمد فريد وجدى من ٢٩٧ ـ تفسير سورة هود) .

وقد فات ابن كثير أن يلاحظ أن هذه الآية تؤكد ما سبق أن ذكرناه من عدل الله سبحانه ودقة القرآن الكريم فمادام الله قد ذكر فى آية سابقة أن من الأعراب وأهل القرى مؤمنين فكان لابد أن يؤكد هنا أن فى الحين منافقين وذلك حتى لا يدرك أهل المدينة غرور فيحسبوا أنهم كلهم أفضل فى إيمانهم من الأعراب ، بل أن فيهم أيضًا منافقين مردوا على النفاق لا يعرفون أنفسهم ولكن الله يعرفهم وسيعذبون مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم .

ثم يورد ابن كثير بعد ذلك حديثًا ينسبه إلى السدى رواية عن ابن عباس يقول : قام رسول الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال : اخرج يا فلان فإنك منافق واخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد ناسًا منهم ، فضحهم فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ، ظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر ، قد فضح الله المنافقين اليوم !

قال ابن عباس : فهذا العذاب الأول عن إخراجهم من المسجد ، والعذاب الثانى عذاب القبر [1] .

وهذا من الأحاديث التى لا يدرى الإنسان إن كان يقبلها أو لا يقبلها . من الناحية التاريخية أقصد ، لأن هذا المذهب فى معاملة الناس — والمنافقين خاصة — لا يتفق مع ما نعرف من بعد نظر الرسول فى معاملتهم فقد كان ميالًا إلى أن يجعلهم يشعرون بكفرهم وإنكار المسلمين لهم .

والقرآن الكريم كان يؤيد اتجاهه هذا حتى يجىء اليوم الذى يختفون فيه ، ويكون المجتمع فى هذه الحالة هو الذى حكم عليهم بالموت ، وهذا هو الذى حدث فعلًا .

والآية التالية تعطينا صورة لطراز آخر من أهل المدينة وهو طراز المؤمنين الذين لا يساور قلوبهم شك ، ولكنهم كسالى وميالون إلى الراحة والقعود عن القيام بما أمر الله سبحانه ، وهؤلاء يعترفون فى العادة بذنوبهم ويرجون أن يغفر الله لهم ، وهم يقومون فى أثناء ذلك بأعمال صالحة ، خلطوا كسلهم وإهمالهم باعترافهم به بينهم وبين الله : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » فهؤلاء كما يقول ابن كثير تحت عفو الله وغفرانه .

وهذه وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلَّا أنها عامة فى كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين ، وقد قال مجاهد : إنها

---

(١) ابن كثير (٤ — ١٠٤) .

وتلى ذلك فى هذه السورة الجليلة آيات عظيمة القيمة من الناحية الإسلامية والفقهية ولكنها لا تقدم لنا مادة تدخل فى موضوع هذا البحث وهو الإطار التاريخى لسورة براءة .

وسأستعرض هذه الآيات الباقية من السورة لنرى إن كان فيها إلى جانب ما ذكرنا مادة تنفعنا فى رسم الأحوال السياسية والدينية لأهل المدينة وبقية الجزيرة العربية .

الآيات من ١٠٢ إلى ١٠٩ تدور كلها حول مسجد الضرار الذى بناه فى قباء نفرٌ من المنافقين من بنى عمرو بن عوف من الخزرج من آل قباء ، وكان غرضهم المطوى فى نفوسهم من إنشائه هو أن يكون مركزاً من مراكز تجمعهم ونشاطهم المعادى – للإسلام .

وقد أرادوا أن يعطوا مسجدهم أهمية كبيرة فطلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يصلى فيه التماسًا للبركة كما قالوا .

وكان فى نفس رسول الله شىء من أمر أولئك الناس فأرجأ الاستجابة إلى ما بعد غزوة تبوك ، وعندما فرغ من الغزوة وسار فى طريق العودة جاءه من الله ما يكشف له خطيئة هذا المسجد وأهله .

وبهذه المناسبة نقول : إن أهل الفقه والحديث يذكرون هنا أبا عامر الذى كان يوصف قبل الإسلام من جانب أصحابه بالراهب ، ولقبه المسلمون بالفاسق ، وكان هذا الرجل من الخزرج ، ولكننا لا نعرف إن كان من بنى عمرو بن عوف أهل قباء ، ولكن الظاهر أنه كان منهم .

وكان فيما يقال نصرانيًّا وكان يرجو أن تكون له مكانة كبيرة فى المدينة بسبب حماسه لهذا الدين ، ولكننا لا نجد له أتباعًا من النصارى فى المدينة ، ولا نسمع أنه فكر فى إقامة كنيسة وإحضار الأناجيل إليها ، وغاية ما نستطيع قوله أنه كان يتمتع بمركز لا بأس به فى المدينة ويرجو أن يزداد مع الزمن ، ولعله كان مثل عبد الله ابن أُبى بن سلول .

فلمَّا جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة ودخل الناس فى الإسلام وتحمسوا له ضاع أمر أبى عامر ، فحقد على الإسلام ونبيه .

قال ابن كثير : (شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها . ويظهر أنه لم تكن له مكانة فى قومه كما كان لابن أبى فى قومه فخرج فارًّا إلى مشركى قريش فألبهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله وكانت العاقبة للمتقين (ص ١٤٩) .

ثم يذكر ابن كثير أن هذا الرجل حفر حفرًا فيما بين الصفين وفى إحدى هذه الحفر وضع رسول الله ﷺ وأصابه — ما نعرف وتقدم أبو عامر من قومه ودعاهم لتأييده ، فلمّا عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله ! فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومى بعدى شر وكان رسول الله ﷺ قد حاول هدايته فأبى فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت طريدًا شريدًا ، فنالته هذه الدعوة ، لأنه بعد ما حدث فى أحد من نفر المسلمين آخر الأمر ورفضهم إيّاه ذهب إلى هرقل — يستنصره على النبى ﷺ فوعده ومنّاه ، فظل مقيمًا عنده فكتب إلى أنصاره فى المدينة يبشرهم بأن قيصر سيؤيده ، وطلب إليهم أن يتخذوا معقلًا يقدم عليهم فيه ، فبنوا ذلك المسجد وزعموا أنه للمسلمين وسألوا الرسول ﷺ أن يصلى فيه ، فأنظرهم إلى ما بعد تبوك ثم كشف الله أمرهم ، فلمّا اقترب من المدينة وهو عائد من تبوك ، فدعا مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى وأخاه عامر بن عدى أخا بنى العجلان ، وأمرهما أن يمضيا فى أصحابهما إلى هذا المسجد فيحرقاه ويهدماه ففعلا

ثم نزلت الآية ١٠٨ من سورة التوبة تؤكد أن هذا المسجد كان مركز ضرار وكفر وتفريق بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله :

« وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » .

(سورة التوبة ، الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨)

والمسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم ، وقد أصبح مكان هذا المسجد.

مزملة وقتًا طويلًا بعد ذلك ثم زال — (ابن كثير التفسير ٤ — ١٤٩) .

ثم تأتى بعد ذلك الآية ١١١ من سورة التوبة وهى مشهورة وهامة جدًا وفيها بيان أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم بأن لهم الجنة ، وأنهم يقاتلون فيقتلون ويقتلون وأن هذا وعد من الله سبحانه للمتقين وهذا الوعد وارد فى التوراة والإنجيل والقرآن :

« وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

والآية ١٢٠ تقول : « مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِم عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِن عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » .

وقد صدق الله تعالى ، فإن أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أقبلوا على الجهاد راضين ولم يصبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة طوال العهد النبوى ، وفى ختام الكلام فى تفسير هذه الآية يقول ابن كثير : (وقال العوفى عن أبيه عن ابن عباس فى هذه الآية : كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى ﷺ فيسألونه ما يريدون من أهل دينهم ويتفقهون فى أمر دينهم ويقولون ، لنبى الله . ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا ما نقوله لعشائرنا إذا قدمنا وانطلقنا إليهم .

قال : فيأمرهم نبى الله بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا : إن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله يخبرهم وينذرون قومهم ، فإذا رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة (ابن كثير ٤ — ١٧٣) .

والكلام هنا غير متصل تماماً ، ولكن هكذا نقله من الأصل الرجال الذين أشرفوا.

والسورة غنية بعد ذلك بالآيات التى تؤكد روعة القرآن الكريم فى التفسير

وتأكيده للمعنى مرة بعد أخرى مع احتلاف النص فى بعض الأحيان ، وإذا تشابه النص فإن الإنسان لا يلبث أن يدرك أن هذا التشابه ظاهرى وأن القرآن يقدم فى كل آية معنى جديداً ، خذ مثلاً الآيات من ١٠٤ ـ ١٠٥

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٩ ـ ١٠٤) .

والبلاغة القرآنية هنا مبينة فى كل لفظ ، فانظر مثلا قوله إن الله يقبل التوبة عن عباده ، فحرف « عن » هنا عظيم الدلالة والمعنى هنا يختلف كل الاختلاف عن معناه إذا قال : « من » عباده ثم انظر بعد ذلك إلى قوله تعالى : (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) والمعنى هنا جديد جداً ، فقد رأينا مصارف الصدقات فيما سلف ، ولكننا نرى هنا أن الله يأخذ الصدقات ، أى أنها مهما اختلفت مصارفها فإنها كلها تصير إلى الله سبحانه فإن المسلم هنا يتعامل مع الله مباشرة ـ مما يزيد جلال الله ويرفع من قدر المؤمن ، والحال هنا هو نفس الحال مع الصلاة ، فنحن فى الصلاة نقف بين يدى الله فيرتفع مكاننا ، وهو يقبل صلاتنا ـ إذا قبلها ـ فيزداد جلاله سبحانه وكذلك الحال مع الصيام ، ومع ذلك فإن المسلمين لهم أيضاً نصيب فى عمل كل مسلم ، فإنهم لابد أن يروا نتيجة عمله ويحسوا بها وبعد ذلك نرد جميعاً إلى عالم الغيب والشهادة ـ وهو الله ـ فينبئنا بما كنا نعمل :

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (٩ ـ ١٠٥) .

وبعد ذلك تجىء الآية ١١٧ فترينا كيف « تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » (٩ ـ ١١٧) .

وأنت ترى هنا أن الله يضع رسوله فيمن تاب عليهم قبل المهاجرين والأنصار ، لأن الرسول أذن لبعض ضعاف الإيمان أن يتخلفوا عن الخروج معه إلى تبوك وطلب المغفرة لرجل كافر القلب مثل ابن أُبى وأعطى ابنه قميصه ليلبسه إياه فى ساعة الموت إلتماساً للرحمة ،

ثم صلى عليه واشترك فى دفنه دون أن يأذن له الله فى ذلك .

ثم جاء بعد ذلك عتاب الله الجميل للرسول ثم أمره إياه بألا يأذن لأحد منهم فى التخلف إلا إذا جاءه إذن بذلك من الله .

وفى سورة أخرى يعطى الله رسوله الكريم الحق فى الإذن لمن يرى أنه يستحق الإذن له فى التخلف ثم يتوب الله على المهاجرين والأنصار من بعد ما كاد يزيغ قلوب منهم لأنه سبحانه رؤوف رحيم .

وفى الآية ١١٨ إشارة إلى الثلاثة الذين تخلفوا دون مبرر مقبول عقلاً وشرعاً وقعدوا عن الخروج ، وقد رووا بعد ذلك قصصهم وهى تدل على أنهم لم يكونوا أهل كفر بطلبهم ، ولكن الكسل والانصراف إلى مشاغل الحياة قعد بهم ، فغضب الله سبحانه عليهم ثم تاب عليهم وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى .

ويلاحظ أنهم كلهم كانوا من خمسة قبائل من الأوس توقفوا عن الدخول فى الدعوة فسموا أوس مناة ، ثم تابوا ودخلوا فى الدعوة عن إيمان فسموا أوس الله ، وبهم تم إيمان الأوس وإسلامهم جميعاً (انظر تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٦٥ ـ ١٧٠) .

« وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (٤-١١٨) .

ثم تجيء بعد ذلك الآيات ١٢٠ ـ ١٢٢ وفيها ذكر التوبة العامة على المؤمنين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ممن لم يتخلفوا عن رسول الله ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه .

« ذَلِكَ بِأَنَّهم لايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلايَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلايَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩-١٢٠) وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاكَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ (٩ ـ١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (٩–١٢٢).

والكلام فى هذه الآيات ينطبق على المهاجرين والأنصار والأعراب الذين عاصروا رسول الله ﷺ ولكنه أيضاً ينطبق على المسلمين فى كل عصر بعد ذلك، فما كانت غزوة تبوك ثم سورة التوبة من بعدها إلا درساً عظيماً للمسلمين فى كل العصور فإن المسلم المجاهد مهما لقى من متاعب من ظمإ وتعب وجوع، ومهما تحمل فى سبيل الإسلام من لقاء الأعداء فإن له ثواباً خاصاً من الله على كل شيء من ذلك إلى جانب ما ترزقه الجماعة إياه من أجر أو مكافأة، فإن أجر الناس شيء وأجر الله شيء، وهذا الأخير هو الأعظم والباقى.

ومعانى هذه الآيات غاب عن النفر الذين تجمعوا فى المدينة فى منتصف خلافة عثمان، وقد أتوا إليها ليطالبوا عثمان بالجزاء والمكافأة ولم يكن لدى عثمان ما يكافئهم به، وقد حاول عثمان أن ينصحهم ويلفت نظرهم إلى أن المكافأة الحقيقية تأتى من عند الله سبحانه وأن مكافأة الناس للمجاهد لا تعد شيئاً إلى جانب مكافأة الله، لأن الله سبحانه أعلم بما تحمله كل مسلم على حدة وما أنفق كل منهم من ماله مما لا يعلمه الناس، ولكن الله يعلمه ويكافىء عليه

أقول لو علم معاصرو عثمان بالمعانى العظيمة التى تضمنتها هذه الآيات العظيمات لما أصروا على مطالبة عثمان ولما كانت الفتنة الكبرى التى نظر فيها رجال مثل معاوية إلى ما يمكن أن يصيبهم من الدنيا من ورائها، فعرضوا على عثمان أن يخرج إليهم – إلى دمشق مثلاً –، من المدينة فإن لديهم هناك الرجال والأموال، وهم يستطيعون نصرة عثمان – والحكم باسمه لأن ذلك لم يكن فى يده فى المدينة ولكن عثمان رفض أن يترك مدينة رسول الله ﷺ فى سبيل الحكم أو أى عرض من أعراض الدنيا انظر التفاصيل فى تفسير ابن كثير الجزء الرابع.

* * *

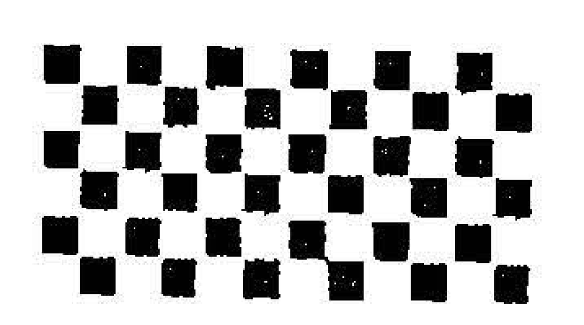
وبعد أن تأتينا السورة بإشارات بالغة البلاغة والحكمة عن كفر الكافرين ونفاق المنافقين، وما أعد الله لهؤلاء وأولئك من سوء العذاب تجىء نهاية هذه السورة،

وهما آيتان مشهورتان ولا يزال المسلمون يكررونهما فى شتى ما يلم بهم من ظروف نظرًا لما فيهما من الحكمة العظيمة والبلاغ الكامل ، وما تضفيانه على قلب المؤمن من إيمان بالله وسعادة بهذا الإيمان :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٩ ـ ١٢٨) فإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٤ـ١٢٩) .

فإن المسلم فى كل عصر أو زمان أو مكان لايزال يشعر بأن الله أرسل إلينا رسولا من أنفسنا يشاركنا آلامنا ومتاعبنا ، إذ يصعب عليه رؤية ما نعانى ونقاسى ، وهو صلى الله عليه وسلم لايزال يدعو للمؤمنين بالمغفرة والمعونة فيستجيب الله له فى حالات المؤمنين الصادقين أما غير المخلصين الذين يتولون عن الرسول ودعوته فإن الرسول يتركهم إلى الله سبحانه ، وهو حسبه «عليه توكلوا وهو رب العرش العظيم» .

حسين مؤنس
عضو المجمع



فى آفاق لغة الوحى

للأستاذ حسن عبد الله القرشى

هَفَا النجمُ ، يعنو لأعتَـابها   وغنّى الزمانُ على بابِهَـا

ودانَ لها المجدُ وهْو العصِىُّ   وأرخَى العنـانَ لِخُطّابِهَا

ترقْرقَ منها الضياءُ البهيجُ   وشعشع فى أُفْـقِ أصْحابِهَا

وتَوَّجَهَـا اللهُ ـ بالجلالِ ـ   بوحْىٍ تَجَـلَّى بِمحرَابِهَا

غَمَائِمُهَـا ثَرَّةٌ بالحَيَـاة   ووَشْىُ الرَّبيـعِ بأهْـدَابِهَا

هى (الضَّادُ) ما ظَفِرت أُمةٌ   بِمثْلِ جَنَـاها ، وأَطْيَـابِهَا

تَعَهَّـدَهَا رَبُّهَا بالبَقَـاء   فَهَلْ مُجْدِبٌ فَيْضُ إخْصَابِها ؟

تَأَلَّقُ فى صَفَحاتِ الخُلُودِ   فَتنجـابُ ثَوْرةُ حُجَّـابِهَا

وَمَا شَفَّ عن شُرُفَاتِ الوُجُودِ   كَمِثْلِ سَنًا شَعَّ مِنْ غَابِهَا

فَمَا عِشْقُها غَيْرُ مَوْتٍ بها   غَرَامًـا لِتَهْنا بِتَرْحَابِهَا

وكَمْ يَحْفِرُ الصَّخرَ صَبٌّ بها   ليحظى بِتَرْشَافِ أَكْوَابِهَـا

لينقادَ منها النُّفُورُ الشَّمُوسُ   ويُسْتَعذَبُ المُرُّ من صَابِهَا

وينهمرُ الـدُّرُّ من بَحْرِهَا   ويَحْـلُو الرَّحِيقُ لِشُرَّابِهَا

أنُوفٌ هى (الضَّادُ) أن تُجتَنى   لِغَـيرِ صَـبُورٍ لأتْعَابِهَـا

لِغَيرِ مُلِحٍّ شَدِيدِ المِرَاسِ   عميق المعـاناةِ وَهَّابِهَـا

يجوبُ الدُّروبَ احتفاءً بها   لِيُسْلَكَ فى سِمْطِ أَقْطَابِهَا

* * *

(*) أُلقيت فى الجلسة الثانية صباح يوم الثلاثاء ٢ من شعبان ١٤١٠ الموافق ٢٧ من فبراير (شباط) ١٩٩٠ م.

وأعرضَ عنها قصيرو الأداةِ　　وَمَا مِنْهُمُــو من تَغَنّى بِهَا
فَمَا عَبأَتْ بِـالأُلى أعرضُـوا　　وَمَا وَصَـلتْهم بِـأَسْـبَابِهَا

* * *

بني (الضَّادِ) يا جَمَرات الحياة　　لِأَعْـدَائِها . ولسُـلّابها
ويا شُهُب الحق كفُّوا الأَذى　　وَرُدُّوا البُغَـاةَ لاعتابها
هو الدَّمُ نادى (بني يَعرُب)　　فَهَـلّا تَحِنُّ لأَنْسَابِهَا
عَتَا الظُّلمُ منْ متحدِّى الكِرام　　حُمـاةِ (يَهُـوذا) وأذنَابِهَا
أُسُـودٌ عَلَيْنَا وما مِنْهُمُو　　سِوى خَائِرِ النفسِ هيَّـابِهَا
وأرغَم جَورُ الطغاةِ الأُباةَ　　لتعنُـوا لِصَـولَةِ إرْهابِهَا
فَمَا من (مُثَنّى) يَسُوق الحُتُوفَ　　و (مُعْتصمٍ) دونَ أَنْيَابِهَـا
ومَا مِن (صَلاحٍ) يرصُّ الصُّفُو　　فَ ويُقصِى العروبةَ عن عَابِهَا
تَفرُّقُهَا قَادَهَـا للكَلال　　وطُـول التَّنَاحرِ أَوْدَى بِهَا
تَمَادَى العَـدوُّ نكالاً بِهَا　　فَجُنَّ الهـوان بِأَلْبَابِهَـا
ولا من نَصِيرٍ وأَيْنَ النصيرُ　　لِخاذلِ نَفْسٍ فَأَزْرَى بها ؟
تَنَاسَتْ مع الذُّلِّ تَاريخَها　　لِلَهْـو الحَيَاةِ ، وأَلْعَـابِهَا
فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِصُراخ النَّذِيرِ　　ولَمْ تَسْتَشِفَّ لَظَى مَا بِهَـا
فَلَجَّ الصَّـلِيبُ بتجريحِها　　وهَامَ العَـدوُّ بِأَغْضَابِهَـا
وما هِيَ إلَّا جَنَى التضحياتِ　　وإن لَبِستْ غَـيرَ أثوابِهَا
فَهَل يا بَنى (الضَّادِ) من وَثْبَةٍ　　تَرُدُّ الكماةَ لأَسْرابِهَـا !

* * *

ويا (مَجمع الضادِ) من صَفْوَةٍ تَغارُ النُّجُومُ لأَحْسَابِهَا

عَلَت بالنُّهى فَوْقَ هَام الدُّنى وعَزَّتْ بجَوْهرِ آرابهَا

تسامتْ على تُرّهات الزَّمانِ فَلَمْ تَسْتَرِقَّ لأَوْصَابِهَا

وقدَّمتِ الشُّهدَ ، كم غادرتْ حُطامَ الحَيَاة لأَنْصَابِهَا

وكَم قد أَراقَتْ ضياءَ العُيُونِ فِدَى (الضادِ) قُربى لأَحْبابها

سَتُجزى بما بذلتْ فى غَدٍ جِنَانًا تَهَشُّ لِطُلَّابِهَا

وتُزهَى بِهَا غُرُفاتُ النَّعِيمِ فَدَارُ البَقَاءِ لأَرْبَابِهَا !

حسن عبد الله القرشى
(عضو المجمع المراسل من السعودية)

